أماندا بيترز

"عمل روائي أول مدهش يتحدث عن الحب والقسوة والعرقية... وكيف يكون الصفح بلسمًا للجروح"
بيبول

رواية

قاطفو التوت

مكتبة

ترجمة:
الحارث النبهان

قاطفو التوت

THE BERRY PICKERS

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

انقر هنا .. اتبع الرابط!

telegram @soramnqraa

مكتبة
t.me/soramnqraa

قاطفو التوت

THE BERRY PICKERS

آماندا بيترز

Amanda Peters

ترجمة: الحارث النبهان

منشورات سدرة

الموقع الإلكتروني:

www.sidrapublishing.com

البريد الإلكتروني:

Sidra.publisher@gmail.com

انستغرام:

@sidrapublishing

تويتر:

@sidrapublishing

Copyright © 2023 by Amanda Peters.

جميع الحقوق محفوظة للناشر: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

ردمك: 978-9921-809-55-8

قاطفو التوت

THE BERRY PICKERS

آماندا بيترز

Amanda Peters

ترجمة:

الحارث النبهان

مكتبة
t.me/soramnqraa

2024

من أجل أبي.. أشكرك على قصصك..

أشكرك جزيل الشكر.

مدخل

أنا جالس، مستند إلى الجدار بظهري؛ وسائد مضغوطة. ضرَبتْها ماي بيدها إلى أن جعلتها منتفخة، لكن هذا كان منذ ساعات مضت. بين يديّ واحدة من صور ليا. هي صغيرة في هذه الصورة الملتقطة قبل أن يبلغني نبأ مولدها. بدأت الشمس تخبو خارج النافذة، وأنا في عجب ... كيف صاغتني النساء وشكّلنني مع أنني كنت بعيداً عنهن طيلة الشطر الأكبر من حياتي.

الألم في ساقيّ يحول بيني وبين الجلوس في الخارج عند الموقد القريب من جذع الشجرة الذي أعتبره صديقاً لي منذ زمن طويل. تعبت من هذا الفراش، من الأدوية، من الوحدة التي تأتي مع المرض، وأعلم أن الناس الذين أحبهم لن يفهموا أبداً ما أحس من وحدة مهما حاولوا أن يفهموا. سيكون الموت أمراً لا بد لي من فعله بمفردي. تزورني ليا مرتين كل أسبوع. صارت الآن امرأة ناضجة. شقيقتي ماي وأخي الأكبر بِنْ يرعيانني حتى عندما لا أكون مستحقاً رعايتهما. وأمي تصلي.

«جو». تشق ماي باب الغرفة قليلاً فأرى وجهها محصوراً بين الباب من إحدى الجهتين والجدار من الجهة الأخرى.

«أنا مستيقظ».

ينفتح الباب كله وتدخل ماي الغرفة. في عينيها شيء فرِح. شيء لم أره منذ وقت غير قصير، لم أره في وجه أي شخص.

«أراك مسرورة، يا ماي».

«هذا لأنني مسرورة».

مكتبة
t.me/soramnqraa

أحاول الانتصاب في جلستي. أود أن أكون ذاتي المكتملة من أجل ماي كي أجعلها ترى أن ما يسرّها، مهما يكن ما يسرّها، يجعلني بدوري مسروراً.

«جو، ثمة شخص هنا أتى كي يرانا، وأظن أن علينا أن نستعد لسماع ما فاتنا من أنباء».

- 1 -

جو

يوم ضاعت روثي بدا الذباب الأسود جائعاً أكثر من عادته. كان الناس البيض في المخزن الذي نشتري منه المواد الغذائية يقولون إن الهنود يبرعون في جمع التوت لأن في دمهم شيئاً حامضاً يطرد الذباب الأسود عنهم. لكني كنت مدركاً، حتى في ذلك الوقت عندما كنت صبياً في السادسة، أن هذا غير صحيح. الذباب الأسود لا يميز بين الناس. وأما الآن، وأنا مستلقٍ هنا بعد قرابة خمسين سنة من ذلك اليوم يأكلني من داخلي مرض لا أستطيع حتى أن أراه، فأنا لم أعد واثقاً مما هو صحيح أو غير صحيح. لعلنا حامضون!

كان الذباب الأسود يلسعنا بصرف النظر عن حالة دمنا. لكن ماما كانت تعرف تجعل الحكة تهدأ في الليل كي نستطيع أن نحظى بقسط من النوم. كانت تقشر لحاء غصن من شجرة بتولا وتمضغه حتى يصير عجيناً، ثم تضعه على أماكن اللسعات.

كانت ماما تقول لي وهي تضع تلك العجينة الكثيفة، «اهدأ، يا جو! كف عن التململ!». وكانت شجرات البتولا نامية على امتداد صف الأشجار الضيق الذي يرسم حدود الحقول الخلفية. حقول ممتدة إلى الأبد ... أو، هكذا كان يبدو لي. وكان السيد إليس، مالك الأرض، قد قسمها بحجارة ضخمة فصار أسهل علينا ألا نُضيّع أين كنا وأين ينبغي أن نصل. لكنك تبلغ الأشجار من جديد، تبلغها آخر الأمر، تبلغها دائماً. إما الأشجار وإما الطريق

رقم 9، طريق متداعية ممتلئة حفراً كبرها كبر البطيخة وعمقها عمق البحيرة، خط داكن من أسفلت يمضي ملتوياً عبر الحقول التي كانت تأتي بنا إلى ذلك المكان سنة بعد سنة.

حتى في تلك الأيام، سنة 1962، ما كانت البيوت كثيرة على امتداد الطريق رقم 9؛ والبيوت التي كانت قائمة هناك كانت قديمة منذ ذلك الوقت ... الطلاء الرمادي والأبيض متقشر عنها، والشرفات الأمامية مائلة مهترئة، وأعشاب طويلة تنمو خضراء وصفراء بين السيارات والبرادات المتروكة التي يتقشّر الصدأ عنها وتذروه الريح الشديدة بعيداً. كنا نصل من نوفا سكوشا أواسط الصيف، قافلة من عمال سمرٍ جلودُهم يضحكون ويغنون مرتحلين في عالمهم الصدئ الذي طالت أعشابه؛ وكان أهل المنطقة يديرون لنا ظهورهم فحضورنا شهادة على فشلهم في تحقيق الازدهار. الفترة الوحيدة التي يُبدي فيها ذلك المكان أي قدر من الفرح كانت فترة الخريف عندما تشع الشمس الذهبية الغاربة ذهباً وتتألق الحقول تحت سماء سبتمبر الرائعة.

وكان منزل السيد إليس منتصباً وسط ذلك الصدأ والخراب كله. كان عند الزاوية حيث تلتقي الطرق رقم 9 درباً ترابية مؤدية إلى الناحية الأخرى من البحيرة، الناحية التي من غير هنود حيث يسبح البيض ويخرجون في نزهات أيام الآحاد وتُشوى جلودهم تحت شمس ولاية مين الواهية. في البيت، بعد سنين، قبل أن أرحل من جديد، كنت أتذكر ذلك المنزل كأنه صورة من كتاب أو من مجلة نظرت فيها أثناء الانتظار عند محطة الباص أو في عيادة الطبيب. أشجار القيقب الباسقة متدلية أغصانُها فوق ممر

المدخل، وصف طويل مستقيم من أشجار صنوبر غرسها أحدهم، صفٌّ ممتد بين البيت والدرب الترابية المؤدية إلى المخيم. لذا، ما كنا قادرين على استراق النظر إلى المنزل مع أن هذا لا يعني أننا لم نحاول استراق النظر.

سألت شقيقي، «بن، لماذا يحفلون أصلاً بأن يكون لهم بيت إن كان كله نوافذ؟»

«الناس في حاجة إلى سقف فوق رؤوسهم. يصير الطقس هنا بارداً مثلما يصير بارداً في ديارنا».

قلت محتجاً، «ولكن ... هذه النوافذ كلها!».

«النوافذ باهظة التكلفة. هكذا يظهرون للعالم أنهم أثرياء».

أومأت برأسي موافقاً حتى مع أنني لم أفهم الأمر تماماً.

بياض ذلك المنزل الذي يطلونه مرة كل صيفين، وأفاريزه الحمراء، والعمودان إلى جانبي الباب الرئيسي ... كان ذلك كافياً بالنسبة إلي، أنا الذي كنت أعيش في بيت صغير من ثلاث غرف يتسرب الماء من سقفه، كان كافياً لأن أعتبر ذلك المنزل «قصراً». وبعد سنين، عندما عدت وكان السيد إليس قد مات منذ زمن طويل بعد نوبة قلبية أصابته، نظرت إلى البيت بعينين مختلفتين وأدركت أنه ليس أكثر من بيت ذي طابقين له نوافذ طويلة تبلغ الأرض.

عندما وصلنا أواسط شهر يوليو، الصيف الذي فقدنا فيه روثي، كانت الحقول كلها أوراقاً خضراء وحبات توت بري ضئيلة. كنا لا نزال ممتلئين حماسة، وذكريات العمل الشاق والنهارات الطويلة من السنين السابقة لا تزال غير منسية. أنزلنا أبي مع

الحوائج اللازمة لنا من أجل ثمانية إلى اثني عشر أسبوعاً، ثم رحل من جديد في اليوم نفسه. سار الغبار في أعقابه عندما اتجه عائداً صوب الحدود. كان عائداً إلى نيو برونزويك كي يجلب جامعي التوت أنفسهم الذين يأتون دائماً، جامعي التوت الذي يستطيع أن يوليهم ثقته. جيرالد العجوز وزوجته جوليا، وهانك وبرنارد التوأمان المجدان في العمل اللذان لا يحبان الاختلاط بالآخرين، والأرملة أغنوس وأطفالها الستة، طوال القامة أقوياء جميعاً، وفرانكي السكير. فرانكي رجل غريب يخشى الدببة والظلام ولا يعمل جيداً.

قال لي أبي، «تقول أمك إن الناس، حتى الذين هم مثل فرانكي، يلزمهم مال ويلزمهم هدف في الحياة حتى إن كان ذلك خلال ثمانية أسابيع فقط».

قلت وأنا أومئ برأسي صوب فرانكي الذي كان يلقي، شارد الذهن، حبة توت في فمه، «أنا أجمعُ أكثر مما يجمع، يا بابا. وهو يأكل من التوت قدر ما يجمعه».

«ثمة أناس، يا جو، نتسامح معهم. أنت تعلم أنه كاد يغرق عندما كان طفلاً صغيراً، ثم لم يكبر جيداً بعد ذلك. لا عيب في فرانكي. لا بد أن لدى الرب خطة من أجله؛ ولهذا نقبله مثلما هو. وهو في حاجة إلى هذا الأمر كل صيف تماماً مثلما نحن في حاجة إليه. يحب أن يأتي وأن يجلس عند النار ويكسب بعض المال من أجل مصاريفه. يوفر له هذا شيئاً يتطلع إليه».

«نعم، لكن ... يا بابا ...» بدأت أقول هذا وقد ضايقني أنهم يدفعون لفرانكي مالاً مع أنني أجمع أكثر مما يجمعه ولا أحصل

إلا على ملابس جديدة من أجل المدرسة في شهر سبتمبر.

«لا تقل ولكن. ما عليك إلا أن تعود إلى العمل وأن تكون لطيفاً مع فرانكي. لا تعلم أبداً متى تكون محتاجاً إلى لطف الناس».

أثناء غياب أبي كي يأتي بقاطفي التوت الإضافيين في صندوق شاحنته الصغيرة، عكفنا على تنظيف الكوخ وترتيب أمورنا تحت رقابة عيني أمنا المنتبهتين المتطلبتين. «أنتم، يا أولاد، اقتلعوا العشب النامي عبر ألواح أرضية الشرفة. رتبوا المكان قليلاً».

تجرّحت أيدينا ونحن نقتلع العشب الذي تجرأ على النمو في غيابنا. ثم جمعنا حطباً جافاً من أجل النارين، نار للطهي تظل مشتعلة طيلة الوقت تقريباً، ونار من أجل غسل الأطباق ومن أجل غسل ملابسنا في نهاية الأسبوع. ساهمت شقيقتي ماي وبضع فتيات غيرها في تنظيف الكوخ، وذهبت فتيات أخريات إلى بيت مالك الأرض مثلما تذهبن كل سنة كي تساعدن زوجته في تنظيف منزلها من أعلاه إلى أسفله. كانت تعطيهن مبلغاً بسيطاً من المال الذي تنفقنه في معرض المقاطعة، تنفقنه على دبابيس الشعر والويسكي المهرب والبوشار.

كانت البحيرة غير مرئية من كوخنا، لكننا نستطيع رؤيتها من محيط مخيمنا، هناك في الأسفل حيث نصب جيرالد العجوز وجوليا خيمتهما. كان حظنا طيباً لأن لدينا كوخاً له سقف وباب ولأن لدينا بضع فرشات قديمة ننام عليها. لكن بضعة أشخاص منا فقط كانوا يستطيعون الإقامة في الكوخ. وأما الآخرون، ومن بينهم شقيقاي الكبيران بن وتشارلي، فكانوا ينامون في خيمة، ظهورهم على الأرض القاسية وستراتهم وسائد لرؤوسهم.

عند وصول الأسر الأخرى، أسر من أنحاء نوفا سكوشا كلها وبضع أسر من نيو برونزويك، يغدو الأولاد صاخبين وتصير أصواتهم عالية. لم ير الواحد منهم الآخرين منذ موسم التوت في السنة السابقة، ولديهم أخبار كثيرة يتناقلونها. في ذلك الصيف، لم أكن قد كبرت إلى الحد الكافي لأن أمضي الوقت مع الأولاد. لذا، كنت أمضيه مع روثي التي يصيبها التوتر لقربها من أولئك الصبية الأكبر سناً. خلال النهار، عندما يكونون جادين، عندما يعملون، كانت تتذكرهم وتحبهم مثلما تحب بقيتنا. وأما في الليل، عندما يغنون متحلقين من حول النار، يغازلون الفتيات ويتصارعون في ما بينهم، فقد كانت تنسحب إلى الكوخ وتنام مسندة ظهرها إلى الجدار الخلفي، دميتها المصنوعة من جوارب قديمة مستقرة تحت ذراعها. وكانت ماما ترقد إلى جانبها، تصير حاجزاً يقيها الصبية الصاخبين الذين نسيتهم.

عندما غادرنا موطننا ذلك الصيف واتجهنا جنوباً، كان سبعتنا قد تكوموا في تلك الشاحنة الصغيرة العتيقة. ماما وبابا وبن وماي وتشارلي وروثي وأنا. كان بن وماي يعيشان في المدرسة الهندية؛ وفي كل صيف قبل ذلك الصيف، كانت ماما تنتظر عودتهما إلى البيت متظاهرة بأنها لا تنتظر. وعندما يعودان، لا تكاد تسنح لهما فرصة النزول من السيارة قبل أن تنقض ماما عليهما فتمسك أحدهما ثم تمسك الآخر، تطوق وجهيهما بكفيها وتظل واقفة هناك تنظر إليهما، تنظر إليهما كأنهما مصنوعان من ذهب، أو من شيء من هذا القبيل. كانت تقبلهما على جبهتيهما وتكرر اسميهما مرة بعد مرة كأنها تتلو الصلاة. وكان

بابا يربت على ظهر بن ويعانق ماي قبل أن يضعنا جميعاً في الشاحنة وينطلق بها صوب الحدود. كان الوكيل الهندي يسمح لنا برؤيتهما مرتين كل سنة، في عيد الميلاد وفي موسم جمع التوت. «سوف يقوّي العمل الشاق شخصيتيهما ويساعدهما في أن يصيرا مواطنين حقيقيين». قرأ بن، ذات مرة، هذه العبارات من رسالة أعيد إلصاقها بعد أن مزقها بابا. لم يكن بابا يحب السيد هيوز، الوكيل الهندي البدين صاحب الأنف ذي الفتحتين القرمزيتين. بعد أن قرأ بابا الرسالة، لم يعد بن وماي مضطرين إلى العودة. سوف يبقيان معنا في البيت ويذهبان إلى المدرسة التي أذهب إليها ويذهب إليها تشارلي.

والآن، ينام بن في سرير مفرد في الناحية الأخرى من غرفتي. يظل مستيقظاً معظم ساعات الليل. يظل خائفاً أن ألفظ آخر أنفاسي أثناء دوره في السهر عليّ. وعندما لا يكون في الفراش، تكون ماي هناك ... تدمدم وتشخر. ما من أحد غيرنا الآن، ماما وماي وبن وأنا. إن كان عالَم الأرواح موجوداً، فسوف تسرني رؤية أولئك الناس الذين فقدتهم. سيسرني أن أعانقهم وأقول لهم إنني أحبهم، أن أقول لهم إنني آسف. ثمة اعتذارات عليّ تقديمها على جانبي ذلك الخط الفاصل العظيم. وإن كانت الجنة غير موجودة، فأظنني لن أعلم أبداً. لذا، لن أترك هذا الأمر يشغل بالي. كان ممكناً أن أقول لماما إنني أشك في وجود الجنة، لكنها مؤمنة بأن كل من تحبهم، كل من رحلوا، جالسون الآن إلى يمين الرب.

في ليلة صافية من ليالي أواسط أغسطس في ذلك الصيف نفسه، كنا جالسين جميعاً من حول نار المخيم. كان بابا قد

وضع كمانه جانباً، وكنا مرهقين لكثرة ما رقصنا وغنينا. فرشت مع روثي بطانية واستلقينا عليها. وضع كل منا يديه تحت رأسه ورحنا نرقب حشرات الليل المضيئة تنافس النجوم على اجتذاب الانتباه. من كانوا محظوظين، من كانوا كباراً إلى الحد الكافي، اتجهوا صوب جبل آلن وأوقدوا ناراً لهم هناك. كانت ماي تحكي لنا قصصاً طويلة عن أولاد وبنات يرقصون ويتبادلون القبل وتحاول إقناعنا بأنها تظل دائماً حسنة السلوك ولا تفعل أي شيء من ذلك القبيل. ما كان أحد منا يصدقها، لا روثي ولا أنا. لا يمكن أبداً أن تجد ماي حفلة لا تعجبها، حفلة لا تستطيع فيها أن تثير مشكلة من نوع ما. لكن، هناك، عند نارنا، انتقل الحديث إلى أمور أخرى.

«يقولون إنها جيدة وإنها تساعد الأطفال في التلاؤم مع المجتمع، في الحصول على العمل». كانت للمرأة العجوز يدان أشبه بعقدتين ثخينتين، لكنها كانت تحوك خيوطاً طويلة فتصنع منها ما يشبه سلة من غير حتى أن تنظر كي ترى ما تفعله يداها.

«وأنا أقول إنها سيئة. ليس من حق أحد أن ينتزع منا أطفالنا على هذا النحو، البيض خاصة. تعلمين كيف ينشئون الأطفال. ذلك التباكي والثرثرة طيلة الوقت. لا يحظون بأية فرحة؛ وقد صاروا الآن يحاولون أخذ أطفالنا».

«لا تخطئي فهمي فأنا أحب أن يعود بن وماي إلى البيت. لكن، ثمة ما ينبغي قوله في شأن كيفية إعطائهم التعاليم من الإنجيل». قالت أمي هذا وهي تميل صوب النار كي ترى جيداً

لأنها بدأت تحوك زوجاً آخر من الجوارب ... «لست متأكدة أبداً مما إذا كان أخذ بن وماي أمراً صائباً، لكن لويس متأكد ... متأكد مثلما هو متأكد من شروق الشمس». كانت أمي، والذنب ليس ذنبها، قد بدأت تحب الكنيسة وتحب الشعائر المتقنة التي حلت محل شعائر هندية انتُزعت من قلبها إبان طفولتها التي لا تذكرها إلا نادراً. نهضت روثي وهمست في أذني قائلة إنها تريد الذهاب لقضاء حاجة. تركتُ مكانها وهدة دافئة على البطانية التي نتقاسمها. لم تعد إلى البطانية أبداً. بعد قليل، ذهبت ماما باحثة عنها فوجدتها نائمة في الكوخ، متكورة على نفسها.

وفي اليوم التالي، ضاعت روثي.

كان بابا يسير بين الصفوف جيئة وذهاباً ويتفقد تقدمنا في العمل ويشير إلى الشجيرات التي أغفلها القاطفون وإلى العمل غير المتقن. في آخر كل يوم، يلتقي جامعي التوت ويسجل عدد السلال التي ملأها كل منهم في ذلك اليوم. كان بعض الكسالى يحاولون حشو أسفل السلة بسوق النباتات وأوراقها الخضراء حتى يبدو أنهم جمعوا أكثر مما جمعوا فعلاً. لكن هذا ما كان لينطلي عليه مهما كرروا محاولاتهم. يتلقى قاطفو التوت أجرهم بحسب عدد السلال. وكان السيد إليس يسير على امتداد واحد من الحبال الفاصلة بين الصفوف عندما اقتربت روثي من بابا من الناحية الأخرى حاملة دلواً صغيراً فيه ماء. رفعت روثي الدلو البلاستيكية الزرقاء الصغيرة ذات المقبض الأبيض بيدين مرتجفتين لثقله. كانت دلواً من ذلك النوع الذي نستخدمه في بناء قلاع من الرمل بعد الظهر أيام الأحد.

«شكراً، يا ابنتي». شكر بابا روثي أوخذ الدلو وشرب الماء.

«هذه فتاة هادئة، يا لويس». وضع السيد إليس يده المتعرقة على قمة رأسها وراح يدعك شعرها بحركة دائرية ويطقطق بلسانه، *تسك تسك* وكأن روثي بلهاء، أو شيء من هذا القبيل. ظلت واقفة مكانها وتركته يدعك رأسها؛ بطنه متدلية من فوق حزامه وبنطلونه الجينز قذر من كثرة ما عليه من شحم وتراب. «إنها أخف من بقية أطفالك، لعل هذا يكون أفضل بالنسبة إليها في آخر الأمر. لكني أظن كلامكم معها بهذه البربرة غير المفهومة لن يفيدها أبداً». شرب بابا جرعة ماء وأعاد الدلو إلى روثي قبل أن يضع يده على ظهرها ويشير إليها بأن تذهب صوب بن وصوبي مبتعدة عن السيد إليس. أتت في اتجاهنا وكان الماء يترقرق في الدلو. كان بن يمد يده إلى الدلو عندما رفعته روثي وسكبت بقية الماء على رأسي. سعلت وشرقت عندما دخل فمي قليل من الماء فابتلعته من غير أن أقصد. جثت روثي وراحت تدعك ظهري مثلما رأت ماما تدعكه ألف مرة.

وقرابة وقت الظهر، تحركت شاحنة أبي زاحفة على طول حافة الحقول كي تجمع العمال الذين جاءوا مع حلول وقت الغداء. وفي الحقل الرئيسي، على مقربة من المخيم، كانت ماما تناولنا سندويتشات اللحم المحفوظ. كان الخبز جافاً فالتصق بسقف فمي. أحياناً، يكون لدينا كاتشب أو خردل، لكننا نكتفي معظم الوقت بالخبز واللحم المحفوظ. عندما رأيت أن ماما غير منتبهة إلي، أخرجت اللحم فوضعته في فمي ورميت قطعة الخبز للغربان. لو رأتني أفعل هذا الشيء لوجدتْ كلاماً قوياً تقوله لي.

كانت غير متسامحة أبداً مع الهدر فلديها سبعة أفواه تطعمها ... فضلاً عن بقية من في المخيم.

في ذلك اليوم، جلست مع روثي عند آخر الحقل، على صخرتنا. كنا نحب الجلوس هناك في حين يتجول الصبية بعيداً خلال دقائق الحرية القليلة المتاحة فينسلون نازلين إلى البحيرة من أجل سباحة سريعة أو من أجل قُبلة من واحدة من الفتيات. كانت ماي قد بدأت العمل على تحضير وجبة العشاء المبكر ... عادة ما تكون تلك الوجبة من البطاطس واللحم المطهوين في الخارج تحت الشمس الغاربة. لكننا نطعم المخيم كله مما يعني أنه لا بد من وقت لتقشير تلك البطاطس كلها. كانت ماي دائمة التذمر، وكانت تهرب أحياناً. تستوقف سيارة فتذهب إلى بانغور من غير اهتمام بأن تقلق بابا أو بأن تغضب ماما. ثم تعود بعد حلول الظلام وتناولنا السكاكر سراً، روثي وأنا. لم نكن نسألها أبداً من أين حصلت على تلك السكاكر ... فما همّنا؟ طعم السكر وذلك المسحوق الحامض كان مثيراً. وكانت السكاكر تعلق بأسناننا. تصرخ ماما قليلاً فتجلس ماي وتصغي إليها. ثم تعود بعد ذلك مطيعة وتساعدها قبل أن تهرب من جديد. تلك الأيام، ما كان التنبؤ بتصرفات ماي ممكناً.

لن يستطع أحد غيري تذكر رؤية روثي ذلك اليوم بعد أن رميت خبزي إلى الغربان ورفعت إصبعي إلى شفتي، «لا تخبري ماما، يا روثي».

«لا يمكن أبداً أن أشي بك، يا جو». كان صوتها خافتاً وعلى وجهها ذلك الملمَح. صامتة ومفكرة. غريب ما يتذكره المرء

عندما يحدث أمر غير حسن. شيء لا يمكن أبداً أن يعلق في الذاكرة في يوم من الأيام العادية، لكنه يعلق فيها ويظل فيها دائماً. أتذكر أن روثي كانت مرتدية فستاناً خفيفاً آل إليها من فتيات أكبر سناً. لكن الفستان لم يصل إلى روثي إلا بعد أن اهترأ وصار مرقعاً. كان كبيراً على جسدها الصغير. لونه الأصلي الأزرق صارت عليه قطع من قماش أحمر ورمادي، بل حتى قطعة من قماش قطني بني اللون مأخوذة من بنطلون العمل الذي كنت ارتديه الصيف السابق ... تحت ذراعها تماماً. وأنا أتذكر وجهها، وجه أمي ... تشابه غريب، تشابه شديد ينتبه الجميع إليه ... أتذكره عندما التفتت روثي وراحت ترقب غراباً حطّ كي يسرق قطعة الخبز التي رميتها.

جريت كي أرمي حجارة في البحيرة مثلما كنت أفعل أكثر الأيام خلال الفترة الفاصلة بين انتهائي من أكل السندويتش وعودتي إلى عملي. لم أتخيل أبداً أن تسير روثي مبتعدة. بعد إنهائها طعامها، كانت تجلس دائماً وترقب الطيور وتنتظر قدوم ماما أو ماي لأخذها. عندما مر بابا بشاحنته الصغيرة الممتلئة بقاطفي التوت العائدين إلى الحقل، لم يتبادر إلى ذهن أحد أن ثمة أمراً يمكن أن يكون غير طبيعي إلا بعد أن ذهبت ماما إلى الصخرة باحثة عنها لأنها لم تعد كي تساعد ماي. نادتها ماما باسمها ظانة أنها تحاول التهرب من مساعدة أختها مع أن هذا لم يكن من طبع روثي على الإطلاق.

«روثي! روثي! ... تعالي الآن، يا بنت! اخرجي إلى حيث أستطيع رؤيتك!». كانت ماما سائرة على امتداد حافة منطقة

الأشـجار فـي حيـن أتـى بابـا عائـداً بشـاحنته. كان صندوقهـا خاليـاً مـن النـاس. أبطـأ السـرعة وسـار خلـف مامـا، والسيارة تترجـرج علـى الطريـق الترابيـة.

«ما الأمر؟»

«ذهبـت روثـي تتجـول. سـوف أدبـغ جلدهـا عندمـا أجدهـا لأنهـا جعلتنـي أقلـق هـذا القلـق كلـه». ابتسـم بابـا ومـال صـوب بـاب السـيارة الأيمـن ورفـع زجـاج نافذتـه كـي يمنـع دخـول الغبـار والذبـاب الأسـود، ثـم تابـع السـير فـي الطريـق تـاركاً مامـا تصيـح باسـم روثـي.

كان بابـا يقطـع حبـالاً كـي يحـدد بهـا حقـلاً جديـداً عندمـا ظهـرت مامـا عائـدة إلـى المخيـم مـن غيـر أن تكـون ابنتهـا الصغـرى معهـا.

كنـا فـي الحقـول ففوجئنـا عندمـا رأينـا شـاحنة بابـا مـن جديـد، رأيناهـا آتيـة فـي الطريـق الترابيـة ومـن خلفهـا غبـار وحصـى متطايـر فـي الجـو. أوقـف بابـا السـيارة وصـاح بالجميـع أن يصعـدوا إليهـا. نظرنـا إلـى الشـمس، أنـا وبـن وتشـارلي فرأينـا أن وقـت الانصـراف لـم يحـن بعـد، لكننـا تركنـا معداتنـا وصعدنـا مـع الآخريـن إلـى صنـدوق الشـاحنة. وعندمـا بلغنـا المخيـم، كانـت مامـا جالسـة علـى واحـدة مـن الكراسـي البلاسـتيكية، رأسـها بيـن يديهـا، ومـاي علـى مقربـة منهـا.

قـال بابـا، «اسـمعوا الآن! يبـدو أن روثـي قـد ضاعـت». اسـتدارت رؤوس الجميـع معـاً ونظرنـا إلـى الأشـجار وإلـى الـدرب المفضيـة إلـى البحيـرة كأن نظرنـا جميعـاً معـاً يمكـن أن يكشـف مكانهـا بطريقـة مـن الطـرق ... «أريـد أن تتوزعـوا أزواجـاً وأن تبحثـوا عنهـا بيـن الأشـجار».

ذهبت ماي مع تشارلي وتبعتُ بن في الغابات. أغصان الشجيرات تخدش قدمي ووجهي. إلى يوم أموت، ذلك اليوم الذي لم يعد بعيداً جداً، سأظل أتذكر أصوات أولئك الناس جميعاً يصيحون باسم روثي. فتشنا الغابة كلها، ونزلنا حتى البحيرة وفتشنا الحواف حيث يلتقي الماء الأرض ... علّنا نعثر عليها. كانت آذاننا منتظرة سماع تهليل أحدهم وقد عثر عليها أخيراً، لكنها لم تسمع شيئاً. ومع غروب الشمس وتواصل الصياح، بدأت أحس ضعفاً سرى من قمة رأسي حتى قدمي. صارت أصداء الصياح تتردد في بطني عندما بدأت السماء يظلم لونها. توقف بن عندما غدوت مضطراً على الجلوس على الأرض الرطبة بين الأشجار حتى ألتقط أنفاسي.

«هيا، يا جو! انهض! هذا ليس وقتاً للراحة. لا بد أن روثي مذعورة الآن». أمسك بن بذراعي كي ينهضني، لكن ساقيّ لم تحملاني. سقطت على الأرض. «جو، لا تكن طفلاً! هيا!».

انفجرت باكياً وملت بجسمي مبتعداً عنه، ثم تقيأت على بقعة من الطحلب.

«يا إلهي! هيا! سوف أعيدك إلى المخيم». رفعني بن وأدارني كي يحملني على ظهره كأنني خفيف مثل ريشة. طوقت عنقه بذراعي وأرحت رأسي على كتفه. «الآن ... لا تتقيأ عليّ وإلا ألقيت بك هنا وسط الغابة».

أومأت برأسي إيماءة ضعيفة. كانت ذقني تهتز مع خطواته وتصطدم بعظام كتفه.

عندما عدنا، كانت ماما جالسة على الكرسي البلاستيكي محدقة في النار. كاد يحين وقت العشاء، لكن ما من علامة تشير إلى الطعام. أنزلتني ماي عن ظهر بن وأضجعتني على بطانية عتيقة بسطتها على الأرض. رأسي عند قدمي أمي. لم تقل حتى إنني ضعيف عندما أخبرها بن كيف خانتني معدتي في الغابة.

قالت ماما، «لا تقلق، يا جو! أظنها سارت فابتعدت أكثر مما ينبغي. سوف يعثر عليها أحدهم. عليك ألا تقلق». انحنت وداعبت شعري بيديها القويتين.

كان هذا في ذلك الوقت من اليوم عندما تبدأ الشمس إفساح متسع لليل فيبدو كل شيء شبحياً. سار بابا صوب النار المشتعلة، لكني لم أكن واثقاً تمام الثقة من أنه حقيقي أم لا ... إلى أن تكلم.

«أنا ذاهب إلى المدينة كي أجلب الشرطة. من الأفضل أن يكون لدينا مزيد من الناس لمساعدتنا؛ وقد يكون لديهم مصابيح أكثر مما لدينا. ثم إنها فتاة صغيرة». وكأن ثمة أهمية لسنها! استدار بابا وصعد إلى شاحنته وانطلق بها.

قالت ماما وهي ترقب أنوار سيارته الخلفية تختفي في عتمة الغسق، «لا يزال لديه إيمان بأنهم يبالون بالأمر». وبعد نصف ساعة، عاد وفي أعقابه شرطي واحد في سيارة شرطة واحدة آتية خلف شاحنته المهترئة. ظل الشرطي جالساً في سيارته زمناً طويلاً، زمناً بدا كأنه ممتد إلى الأبد. كان أقصر قامة من بابا، لكنه نحيل مثله. رحنا ننظر إليه جميعاً وهو جالس هناك يدوّن أشياء في دفتر ملاحظته. من حين إلى آخر، كان يرفع رأسه ويلقي نظرة علينا، نحن المجتمعين حول النار. كان على مسافة

بعيدة مني، وكانت الظلمة قد ازدادت، فلم أستطع رؤيته رؤية واضحة إلى أن خرج من سيارته. أشار بابا إلي وكنت لا أزال مستلقياً عند قدمي أمي. أتى الشرطي صوبي وجثا كي يكلمني.

«هل رأيت أي شيء غريب بعد ظهر هذا اليوم، أيها الصغير؟».

هززت رأسي نفياً ... «هل رأيت شقيقتك تسير صوب الغابة؟ هل رأيتها تسير صوب البحيرة؟». هززت رأسي من جديد. كانت رائحة أنفاسه كريهة ... شيء أشبه ببصل وملفوف ممزوجين معاً، متروكين زمناً طويلاً تحت الشمس الحارة. نهض الشرطي واقفاً وسوّى بنطلونه قبل أن يطرح أسئلته نفسها على ماي وعلى ماما. نظر إلى الناس المجتمعين حول النار، لكن من غير أن يكاد يلقي بالاً إلى ما يقوله أي واحد منهم. بدأت ماي تغضب منه.

قالت له، «هل ستكتفي بطرح الأسئلة الغبية نفسها أم ستساعدنا في العثور عليها؟»

أمسكت ماما بيد ماي كي تهدئها. وأما الشرطي، فلم يكلّف نفسه حتى بالالتفات إليها. لا أنسى أبداً كيف ترك ضياء النار نصفه في الظل فصار مثل واحد من الأشرار في مجلة من مجلات القصص المصورة التي كانت تعجبني لكني لا أستطيع شراءها أبداً.

نقر على دفتره بقلمه، «لا بأس! لا أستطيع فعل شيء أكثر مما فعلتم. أبلغونا عندما تعثرون عليها. وسوف أحتفظ بملاحظاتي ... من باب الاحتياط فقط».

قال بابا، «ألن تساعدونا في البحث عنها؟».

«إنني آسف ...». أطرق برأسه ناظراً إلى دفتره ... «آسف يا لويس! أنا واثق بأنكم ستعثرون عليها. ثم إننا لا نستطيع فعل الكثير. لم يمض على غيابها وقت كافٍ، وأنتم لستم من مواطني ولاية مين، ولستم أشخاصاً معروفين هنا. أنت تدرك هذا». توقف لحظة منتظراً أن يبدي بابا موافقته. شبك بابا ذراعيه على صدره منتظراً ... «ونحن ثلاثة عناصر شرطة فقط. منذ أسبوعين، وقعت لدينا حادثة سطو على متجر مستلزمات المزارع. لذا ...».

سار عائداً إلى سيارته وهمّ بالجلوس فيها عندما أمسكه بابا من ياقته. سقطت قبعة الشرطي عن رأسه واصطدمت بباب السيارة ثم حطت عند قدمي بابا.

قال بابا بصوت هادئ، «إنها فتاة صغيرة».

استعاد الشرطي توازنه ووقف بين السيارة وبابها المفتوح. لا تزال يد بابا قابضة على ياقته. «أقترح أن تبعد يديك عني. عددكم هنا، عدد من يبحثون عنها، أكبر مما أستطيع إحضاره. والآن، اتركني!».

تركه بابا فسوّى الشرطي ملابسه. انحنى والتقط قبعته ثم صفع بها باب السيارة كي يسقط عنها ما علق بها من غبار.

«لو كنتم شديدي الاهتمام بأمر الطفلة لانتبهتم إليها أكثر، على ما أظن. والآن، تراجع! قلت لك إنني سأحتفظ بالملاحظات تحسباً لأن نسمع أي شيء جديد. لك أن تخبرني عندما تعثرون عليها». صعد إلى سيارته محاذراً أن تفارق عيناه بابا. كان بابا طويل القامة، نحيلاً مثل قصبة، لكن من الممكن أن يصير

مخيفاً عندما يغضب. تراجعت السيارة إلى المساحة الخالية بين الأشجار، ثم استدارت وسارت في الدرب الترابية عائدة إلى الطريق رقم 9. التقط بابا حجراً كبيراً وقذفها به فحطم واحداً من مصباحيها الخلفيين. توقفت السيارة لحظة واحدة قبل أن تتحرك من جديد وتتابع سيرها إلى اختفى نور مصباحها الخلفي الوحيد الباقي.

«كنتَ عارفاً أنهم لن يقدموا إلينا أية مساعدة، يا لويس. أنت تبالغ في ثقتك بأولئك الناس». جلست ماما من جديد مسندة ظهرها إلى الكرسي ورفعت رأسها ناظرة إلى النجوم وراحت تبكي.

لم ينم أحد منا تلك الليلة. أرسلوني إلى الفراش وحيداً فاستلقيت إلى جانب الحيز الذي ينبغي أن تشغله روثي. وكان ضياء النار يتسرب إلى الكوخ عبر الشقوق الضيقة الفاصلة بين ألواح خشب الصنوبر التي تشكل جدران الكوخ الخارجية. كانت أصوات أحاديث الكبار الخافتة تصلني، لكني لم أستطع فهم شيء مما يقولون. أغمضت عيني بقوة شديدة جعلت نجوماً تظهر لي. وعندما بدأت تلك النجوم تخبو، رسمت صورة وجه روثي على باطن جفنيّ.

عرّج علينا السيد إليس بعد يومين من اختفاء روثي. لم يكن موجوداً طيلة يومين، لكننا لم نلاحظ ذلك لشدة انشغالنا. كان عالماً بأمر اختفائها. الآن، صار كل مخيم على امتداد الطريق رقم 9 عالماً بالأمر. لكن، في اليوم الثالث من سلال التوت الفارغة، أوقف السيد إليس شاحنته الصغيرة ونزل منها ولوّح

لبابا بيده متظاهراً بأنه لا يسمع أصوات الباحثين الذين لا يزالون ينادون اسمها.

«هذه ليست مشكلتي، يا لويس. هذه ليست مشكلتي. أتعلم ما هي مشكلتي؟ أريد أن يُقطف هذا التوت». أشار السيد إليس إلى الحقول الخالية من القاطفين ... «وإذا لم تعودوا إلى العمل، فإن في المنطقة هنوداً آخرين كثيرين يسرهم كثيراً أن يأتوا للعمل في هذه الحقول».

أصاب رذاذ بصاقه وجه أبي فتجمد الجميع منتظرين رؤية بابا يطرحه أرضاً، لكنه لم يفعل شيئاً. بدا لنا أنه ما عاد فيه أي ميل إلى القتال.

«هذا صحيح. عودوا إلى العمل!». جأر السيد إليس بهذا وهو يعود ويجلس في شاحنته ... «يؤسفني ضياع ابنتك». قال هذا عبر النافذة مخاطباً ماما لحظة انطلاقه.

واصلنا البحث عن روثي يومين بعد ذلك، ورحنا نتناوب على قطف التوت في الحقول. كان السيد إليس يأتي بسيارته كل صباح عند الساعة العاشرة وثلاثين دقيقة فيرى في الحقل أشخاصاً كثيرين يقطفون التوت. يومئ برأسه ويتابع سيره. لكننا ظللنا نبحث منذ شروق الشمس حتى غيابها خلف الأشجار آخذة الأمل معها، نبحث ولا نتوقف عن البحث إلا وقتاً يسمح لنا بأن نملأ الصناديق أعشاباً وأغصاناً صغيرة قبل أن تغيب الشمس. صحنا باسم روثي كثيراً إلى حد جعل الأشجار تحفظه عن ظهر قلب. جبنا الطريق رقم 9 جيئة وذهاباً، وجبنا الحقول والناحية الأخرى من البحيرة لكننا لم نستطع العثور على أي أثر لها. لم نجدها

في الغابات الخفيفة الممتدة خلف حقول التوت؛ ولم تكن في أي واحد من مراحيض البيوت الخارجية ولا في أي واحد من البرادات الصدئة من حول البيوت القريبة القليلة.

بدأ مزاج ماما يصير أقل قابلية للتنبؤ به بعد انقضاء أربعة أيام من عدم ظهور روثي. صارت لا تترك كرسيها إلا كي تذهب لقضاء حاجتها أو كي تجلس على صخرة روثي. وجدتها ماي جالسة إلى جانب الصخرة تبكي بكاء شديداً لأنها رأت أثر قدم روثي الصغيرة على التراب. نظرت ماي إلى التراب من كل زاوية استطاعتها لكنها لم تر أي أثر. لم تستطع أن تجعل ماما تتحرك من مكانها إلى أن تغير الطقس وجرف ماء المطر أثر القدم غير المرئي إلى الخندق الصغير عند حافة الطريق الترابية. سارت ماي طيلة طريق العودة إلى الكوخ ممسكة بماما تحت ذراعها. وكانت ماما تنوح وتجدّف بلغتها القديمة التي تعرفها ويعرفها بابا لكننا لا نعرفها.

دفع بابا مالاً لواحد من جامعي التوت كي يقود السيارة عائداً بماما وماي إلى نوفا سكوشا. بكت ماما وناحت ساعات طويلة قبل ذهابهما. أثارت قلقي رؤية أمي تبكي على هذا النحو. أمي لا تبكي أبداً. وقفنا ننظر إلى سيارة الستشين من نوع كروسلي موديل 1952 ماضية على الطريق الترابية والصدأ يتساقط منها على الأرض كلما صادفت بركة طين جافة. لوحت للسيارة بيدي وكانت يد أبي المشققة مستقرة على كتفي.

اجتمعت نساء المخيم معاً بعد رحيل ماما. رحن يهززن رؤوسهن ويتكلمن بأصوات خفيضة، يتكلمن على أسوأ ما يمكن

أن يقع لامرأة.

«ما أصعب خسارة طفل. فقدت ثلاثة قبل الولادة، وفقدت طفلاً صغيراً أصابته حمى. كان هذا منذ نحو أربعين سنة. ليس شيئاً تستطيع المرأة تجاوزه». هزت العجوز رأسها وانحنت فوق ما تخيطه محاولة التقاط أقصى ما تستطيع التقاطه من ضوء النار.

«خاصة إذا كانت طفلة هادئة حلوة مثل روثي».

«فلنأمل ألا يضر بها هذا كثيراً. لا يزال لديها أربعة أطفال في حاجة إلى أم».

جلست أستمع إليهم وأفكر في أن ماما ستكون أحسن حالاً لو أنني أنا من اختفى، لا روثي. كان لديها ثلاثة أولاد وبنتين فقط. وكنت أصغر الأولاد، كنت واحداً يمكن الاستغناء عنه. على الأقل، هذا ما كنت أقوله لنفسي تلك الليلة في حين كان ضوء النار يلقي على الأرض ظلالاً حزينة. كانت تلك مسألة حسابية بسيطة.

بحثنا عن روثي ستة أسابيع متواصلة. استمر بحثنا إلى أن حان وقت عودتنا إلى موطننا بعد أن خلت الحقول من التوت وبعد أن اقتلعنا البطاطس من الأرض. حزمنا حوائجنا وأخذنا معنا أصحاب سيارة الستيشن. جلسوا في صندوق شاحنتنا. لم يتطرق أحد إلى ذكر روثي، لكننا مررنا بالصخرة الصغيرة حيث جلست معها آخر مرة عندما كان السندويتش في يدها فأدركت أننا نترك روثي خلفنا.

- 2 -

نورما

كانت تأتيني هذه الأحلام عندما كنت صغيرة، في الرابعة أو في الخامسة. واحد منها كله ضياء، وواحد كله ظلمة. لم أدرك أنهما كانا حلماً واحداً، الحلم نفسه، إلا بعد أن صرت في الخمسينيات، بعد أن بدأت أمي تفقد عقلها. في الحلم الأول، أرى نفسي جالسة في المقعد الخلفي في سيارة وضياء الشمس يأتيني دفقاتٍ عبر الأشجار على امتداد الطريق. يلمع الضوء على زجاج السيارة فأضيق عيني. أرفع عيني إلى الشمس فأحسها دافئة، لطيفة. شعري الذي عادة ما يكون مربوطاً في جديلة محكمة منسدلة على ظهري كي لا يلتقط القرّاد، يدغدغ أنفي. وكنت أواصل رفع يدي الصغيرتين، تراب جاف تحت أظافرهما، كي أزيح شعري عن وجهي. لسبب أجهله، كانت إحدى قدمي في فردة حذائي والفردة الثانية على الأرض أمامي. كانت السيارة سريعة فائحة برائحة صابون وجلد جديد. وكانت من غير مكيف هواء فالتصقت ساقاي النحيلتان البنيتان بالمقعد ورسم عرقي بقعتين بيضويتين صغيرتين رطبتين عند التقاء فخذيّ بالجلد. رفعت أطراف فستاني الرث وحاولت أن أدسها تحتي. يضايق أمي أن أتعرق على مقعد سيارة أحدهم. وكنت أرفرف بعيني كي أتخلص من النجوم التي أتت بعد نظري إلى الشمس زمناً طويلاً عندما كلّمتني المرأة التي تقود السيارة. التفتّ فرأيت وجه امرأة ليست أمي لكن لها وجه أمي. وعندها استيقظت.

وفي حلمي المظلم، كانت السماء سوداء إلا من هالة زرقاء من حول القمر. علمت في وقت لاحق من حياتي أن هذا هو انكسار الضوء. كان القمر متألقاً وهالته شديدة الزرقة فلم تستطع عيناي العثور على أي نجم. كان كل شيء من حول القمر غارقاً في الضياء. بضعة غيوم خفيفة؛ لكنها لن تمطر. لم أدر كيف علمت هذا، لكني علمته. قال لي صوت مألوف، «هذه ليست غيوماً مطيرة». كنت أرى ناراً مشتعلة غير بعيدة عن المكان الذي كانت فيه قدماي مزروعتين في الأرض. وكان العشب نديّاً في الليل، لطيف البرودة. القمر يأتي بالقشعريرة وبقدمين رطبتين. الناس مجتمعون من حول النار، وامرأة التفتت صوبي وأومأت برأسها ثم التفتت إلى النار من جديد فلفّتها الظلال. أريد أن أتبول.

كنت أسمع البومات المخططة تتنادى وأسمع عواء قيّوط من بعيد، لكن تلك الأصوات ما كانت تخيفني. تخيفني الآن عندما أكون في الكوخ الذي استأجرناه، أنا ومارك، عندما تزوجنا. عندما أكون وحدي وتبدأ القيّوطات عوائها، أكون في حاجة إلى استجماع شجاعتي كلها حتى لا أجلس في السيارة وأعود إلى بوسطن. الأمر الوحيد الذي يجعلني أحياناً أبقى داخل الكوخ هو تفكيري في أن القيوط يمكن أن يدركني أثناء جريي من الكوخ إلى السيارة. التقدم في السن يأتي معه بأنواع المخاوف كلها. وأما في ذلك الحلم الطفولي فإن مخلوقات الليل لا تفزعني.

أقف في حلمي مختلطة بالليل. أسمع ضحكاً وأعلم أنه ضحك أخي. هذا غريب لأنني طفلة وحيدة. أرتعش فتلتفت صوبي المرأة الواقفة عند النار، تلتفت من جديد. إنها تبحث عني،

وتشير بيديها، وتومئ لي بأن أقترب من الناس المتحلقين حول النار. أعجب مما يجعلها تظل مختفية في الظلام. أعلم كيف هي رائحتها وكيف هو صوتها. أستطيع أن أحس يديها اللتين أرهقتهما سنوات الأمومة. يداها تهدئان روعي في عاصفة رعدية. كان وجهها سراً غامضاً وظل كذلك حتى مضت بضعة أسابيع. كانت على الدوام شبحاً لا لون لعينيها، لا تورد في شفتيها، لا تجاعيد في وجهها تُظهر آثار مرور الزمن. ما كانت موجودة إلا في الليل. وكلما استيقظت، أحزن على المرأة المتلفعة بالظلام وأحاول أن أناديها. كنت أعرفها، لكني حاولت قول اسمها فعلق لساني في فمي ونسيه عقلي. كنت قادرة على الإحساس بارتعاش الصوت في حنجرتي، لكنه لم يخرج من بين شفتي. كنت ممتلئة حزناً فبدأ تساقط دموعي حتى قبل أن أفتح عيني.

بعض الأحيان، يتجسد الحزن خوفاً. لا أتذكر الأحوال كلها، لكني أتذكر أنني فهمت. لا أقول إنني فكرت فحسب، بل فهمت حقاً. فهمت أن بيتي لم يكن بيتي. وما من شيء كان حيث ينبغي أن يكون. ما من أحد كان من ينبغي أن يكون.

«لقد انتقلنا، يا حبيبتي. أنت تتذكرين البيت القديم، لا أكثر. هذا كل شيء». كانت لها دائماً طريقتها في جعلي أحس نفسي سخيفة لقولي هذه الأمور. سخيفة عندما كنت صغيرة، ثم مذنبة مع تقدم السن بي.

وعندما كنت أريد الكلام عن المرأة، عندما أوشك على تذكر وجهها، تذكر ملامحها، تذكر هيئة شعرها، يظهر لي تفسير معقول آخر.

«ذهبت كي أعتني بخالتك جون بضعة أسابيع؛ فهل تتذكرين هذا؟ بعد الجراحة التي أجريتها». جراحة لم يشرحها أحد لي، جراحة علمت في وقت لاحق من حياتي أنها كانت مختلقة بالكامل.

«لقد اختلطت الأمور عليك. أنت تفكرين في ابنة عم والدك التي أتت كي تقيم معك».

أظن أنني كنت مدركة دائماً أن ثمة شيئاً غير طبيعي. لكني كنت صغيرة فظننت أن المشكلة عندي. ثم أنسى السبب سريعاً. وتستمر الأحلام.

حاولت أن أكلم أبي عن أحلامي. ومع أنه كان لديه دائماً تفسير منطقي، فقد ظللت غير قادرة على إبعاد الحلم عني. لم أستطع أن أطويه وأضعه في أعماق درج من الأدراج كي يصير منسياً.

تنهد أبي وقال، «نورما، يا حبيبتي، أظنها واحدة من الزائرات اللواتي تأتين إلى كنيستنا في فصل الصيف. زائرة كانت لطيفة معك ذات مرة». كان يعبث بأصابعه أثناء حديثنا في هذا الأمر وينتزع نتفات صغيرة من جلد من عند زاوية التقاء الظفر بإبهامه. بعض الأحيان، كان يضعه إبهامه في فمه كي يوقف النزيف. كلما كلمته عن أحلامي يظل إبهاماه مضمدين أسبوعاً بعد ذلك.

قال لي أبي عندما بدأت أصف المرأة الواقفة عند النار، «غالباً ما تكون الأحلام من غير معنى، يا نورما. ذات مرة، رأيت نفسي في الحلم حصان بحر. هذا لا يعني أنني حصان بحر».

قلت له، «لكنه حلم حقيقي جداً». كان كل شيء واضحاً لي في

هـذه الدقائـق المعـدودة الأولـى بعـد اسـتيقاظي. كنـت قـادرة علـى أن أشـم راحـة النـار ورائحـة طهـي البطاطس. وكنـت أتحسـر مـع كل نفـس أسـتنشـقه لأن الرائحـة كانـت تخبـو شـيئاً فشـيئاً. ثـم بكيـت لا مـن زاويتـي عينـي فحسـب بـل مـن أعمـاق جوفـي، مـن أعمـاق بطنـي.

عندمـا يبـدأ بكائـي المسـموع، تدخـل أمـي غرفتـي مسـرعة لكنهـا تتوقـف كـي تضـيء المصبـاح السـيراميكي الصغيـر الـذي علـى هيئـة سـفينة نـوح بأفيالهـا وبطاتهـا مصطفـة أزواجـاً. كان صـوت تكـة الخيـط الـذي يضـيء ذلـك المصبـاح الصغيـر أول ذكرياتـي الحقيقيـة، فضـلاً عـن الحلـم. كنـت أرى كيـف يلقـي المصبـاح نـوره علـى فراشـي الصغيـر بمـا عليـه مـن حيوانـات محنطـة ولحـاف يـدوي الصنـع فيـه مسـحات مـن لـون وردي وكشـكش مـن الدانتيـلا علـى امتـداد حافتـه السـفلية. إلـى هـذا اليـوم، لا يـزال الضـوء المنبعـث مـن مصبـاح قـادراً، عندمـا يكـون مصـدر الضـوء الوحيـد، علـى أن يعـود بـي إلـى تلـك الغرفـة، إلـى رائحـة العـرق والبـول التـي امتصتهـا عميقـاً ملاءاتـي القطنيـة الخفيفـة ورديـة اللـون. لا يـزال ذلـك المصبـاح عنـدي، فـي مكـان مـن الأماكـن فـي المسـتودع، أو لعلـه فـي الكـوخ. وأمـا اللحـاف فمـا عـاد موجـوداً.

«هـذا ليـس إلا حلمـاً، يـا فتاتـي الحلـوة، ليـس إلا حلمـاً. أتـت أمـك الآن. اهـدأي، يـا نورمـا، فهـو حلـم فحسـب، حلـم فقـط. ليـس إلا حلمـاً. ليـس أكثـر مـن ذلـك الحلـم السـخيف. حلـم، لا أكثـر». كان صوتهـا فـي الليـل أشـد انخفاضـاً مـن صوتهـا فـي وضـح النهـار. تحتضننـي بقـوة وتهدهدنـي، تهزنـي أمامـاً وخلفـاً وتدنـدن بترانيـم يـوم الأحـد. تكتكـة سـاعة الجـدار فـي الممـر اسـتمرت إلـى أن أطـل

العصفور الخشبي الصغير وصاح ثلاث مرات، ولا تزال أمي جالسة معي تهدهدني. ظلت معي إلى أن جفت دموعي وزحفت الظلال منحدرة على الجدار واختفت في غبش الصباح الرمادي. بعض الأحيان، عندما لا يتوقف البكاء سريعاً، تُعد أمي لنفسها فراشاً صغيراً على الأرض مستخدمة وسائد إضافية تأتي بها من الخزانة التي في آخر الممر. وفي عدد من المرات، كانت تسخن حليباً مع نقطة من الفانيليا وتجعلني أشربه من فنجان شاي مرسومة عليه زهور زرقاء اللون ... فنجان ما كان مسموحاً لي أن أمسه وقت النهار. أعود إلى نومي وطعم الحليب لا يزال كثيفاً في فمي وأمي متكورة إلى جانبي. أحب إحساسي بذراعها الممتدة فوقي، يدها تظل ممسكة يدي إلى أن ترتخي عندما تغفو. وعندما أستيقظ في الصباح أرى أنها قد ذهبت، قد عادت إلى فراشها الذي يشاركها فيه أبي، لكن رائحتها لا تزال على الوسادة إلى جواري. معالم طفولتي الأولى كانت كلها روائح. رائحة النار والبطاطس المسلوقة في الليل. وفي الصباح، رائحة صابون العاج والويسكي الذي لم تكن أمي تظن أنني أدري عنه شيئاً.

«لعل علينا أن نأخذها كي ترى أحداً! ربما ترى قساً!». كانت أمي تتكلم بصوت منخفض ولا تكاد شفتاها تتحركان كأنها حاملة على لسانها سراً تخشى أن يطير ويخرج إن رفعت صوتها. هذه المرة، كان الحلم المظلم حياً جداً. كانت الظلمة أشد سواداً والقمر أشد تألقاً، لكن الأصوات أكثر بعداً. وهذا ما أثار ذعري. أدركت من الدوائر السوداء تحت عينيها ومن طريقتها في دعك

القدور وهي تغسلها أن حلمي يخيف أمي أيضاً. كانت تنظر إلي من خلف طاولة المطبخ، تنظر منتبهة كي ترى إن كنت أسمع ما تقول.

في الأيام التي تلي أحلامي، كان غير مسموح لي أن أكون وحدي. لهذا، كنت أجلس على أرض غرفة المعيشة مطرقة برأسي أحاول أن أسمع كلامهما. أجلس حيث أستطيع رؤيتهما؛ وعندما تنتبه إلي أمي، تخفض صوتها. أمامي مجموعة من كتب الأطفال ومعها دميتي. كنت في التاسعة. وكنت قد كبرت على أن تكون لي دمية كدمى الأطفال الصغار، لكن أمي تكون أشد ارتياحاً عندما ترى الدمية معي. أرى أنها ترقبني فأحتضن دميتي وألبسها ثيابها وأخلعها عنها وأتظاهر بإطعامها. أمشط شعرها الأصفر المصنوع من النايلون، شعرها المموج المجدول ضفيرتين. ثم أهمس للدمية بكلمات أمومية، أهمس في أذنيها البلاستيكيتين الصغيرتين. وأما عندما لا تنظر أمي إلي، فأنا أضع الدمية جانباً وألتقط كتاباً أو أحجية أو أي شيء أشد إثارة لاهتمام بنت في التاسعة. عندما لا تكون الدمية معي، تذهب أمي وتبحث عنها، ثم تضعها إلى جانبي وتظل منتبهة إلي حتى أحملها وأضعها في حجري.

«إنها طفلة، يا لينور. وهي ترى أحلاماً مزعجة. ستكون بخير. لسنا في حاجة إلى قس. سوف تكبر وتتجاوز هذا. سوف تنساه. أعدك». يرتشف أبي جرعة من قهوته ويعود إلى صحيفته. كان ذلك صباح يوم سبت، وكان أبي مرتدياً ملابسه كأنه ذاهب إلى محكمة؛ شعره الذي صار رمادياً مسرّحٌ إلى الخلف وتمشيطة

شاربه أنيقة. كان مرتدياً قميصاً رسمياً أبيض وربطة عنق تحسباً لاحتمال أن نخرج إلى مكان من الأماكن. يخلع ربطة العنق في الصيف عندما يجز المرج وفي الشتاء عندما يزيل الثلوج من الممر أمام البيت. كانت أمي تقول إن الناس يثقون بأن القضاة يتخذون قرارات صائبة طالما كان أولئك القضاة أنيقين، مرتبين. كانت النظافة إجابة أمي إزاء معظم المشكلات.

«بل هو أكثر من حلم. وأنت تعلم ما أعنيه. لا تتظاهر بأنك لا تعلم».

التفت أبي صوبي من خلال الباب الفاصل بين غرفة المعيشة والمطبخ. أدرت وجهي سريعاً وتظاهرت أنني لا أراهما يتكلمان إلي. عاد إلى صحيفته ونهضت أمي مسرعة، مسرعة إلى أقصى حد تستطيعه بحذائها ذي العقبين الثخينين المرتفعين، هذا الحذاء الذي تظل قدماها فيه حتى عندما تكون في البيت. وجدتْ لنفسها غرفة أخرى ومهمة أخرى تقوم بها، مهمة لا على التعيين ولا ضرورة لها.

بعد أن كبرت كثيراً وصارت أحلامي ذكرى باهتة، ابتكرت أمي نظرية جديدة ظلت متمسكة بها إلى أن بدأ المرض يقضم دماغها. كانت تقول إن تلك الأحلام لم تكن إلا نتيجة الإفراط في تناول السكر قبل النوم. وكان هذا أمراً غريباً لأن السكر كان موضع تقنين شديد في بيتنا حرصاً على سلامة أسناني. رميتها بنظرة الاستياء نفسها التي رماها بها أبي فأشاحت بوجهها عنا كي تعيد طي مناديل الشاي الموضوعة على الطاولة أو كي تعيد ملء المملحة التي كانت ممتلئة أصلاً. لكنني كففت آخر الأمر عن

الكلام على الأحلام. كان لا بد لي من ذلك. لم تتوقف أحلامي، لكني توقفت عن الكلام عليها، أمام أمي على الأقل. كسرت أمي إناء زجاجياً ثقيلاً عندما ذكرت آخر مرة شيئاً عن تلك السيارة وعن الأم التي أراها في حلمي. هوت بالإناء على طاولة المطبخ بقوة شديدة فانكسر إلى ثلاثة أجزاء وجرح منطقة طرية في باطن يدها تحت إبهامها مباشرة. خمس قطبات. كانت تلك آخر مرة. أحسست ثقل الذنب جاثماً على كتفي؛ وكلما بدأ إحساسي به يخف تنتبه أمي فتمد يدها صوبي كي أرى الندبة الباقية عليها.

إن كانت أمي تحسن إلى حد استثنائي فعل أمر من الأمور، فهي تحسن الإحساس بالذنب... الإحساس بالذنب وما يرافقه من تنظيف. أنا أحلم وهي تنظف؛ وعندما تنظف، أحس ثقلاً على روحي. يكون أبي في عمله وأكون في المدرسة فتشغل نفسها بمهمات هي المهمات نفسها التي أنجزتها في اليوم السابق وفي اليوم الذي كان من قبله. كانت تقول، «هذا تحسباً لاحتمال أن يأتينا زائر غير متوقع». لكني لا أتذكر أن أي زائر كان يأتينا غير شقيقة أمي، خالتي جون. مع هذا، لم يكن يتسنى للغبار وقت كي يستقر قبل أن تلتقطه بمماسح الغبار أو بالمكنسة الكهربائية. وفي مناسبات نادرة عندما تأتي «سيدات المعونة» من الكنيسة لجمع التبرعات تلتقيهن أمي عند الباب فتمططن رقابهن لرؤية ما في الداخل. يكون في يدها كتاب أو صينية جاهزة من أجل المخبوزات اللواتي تبعنها. لم تتجاوز تلك النسوة يوماً عتبة بابنا. كن يحاولن ذلك، لكن أياً منهن لم تنجح في محاولتها. وبعد

سنين، سمعت القصص التي يحكيها الناس عن بيتنا ... أكوام من الصحف مكدسة إلى علو يتجاوز قامة أبي، وقريب ميت محنّط في القبو. صحيح أنني سمعت تلك القصة الأخيرة، على ما أذكر، في المدرسة الابتدائية من صبي ذي نمش اسمه راندال رائحته قبيحة ولا يحبه أحد. ولم أسمع إلا في الصف السابع أن أمي اشتهرت في البلدة الصغيرة بأنها زوجة القاضي ذات الأطوار الغريبة في شارع «ميبل ستريت». وكنت معها، كنت ابنتها ذات الأطوار الغريبة.

كانت إجابة الخالة جون، «إنها حذرة؛ وهذا كل شيء. تحب أن تعلم كل شيء وكل شخص. وهذا يحافظ على هدوء ذهنها». كانت خالتي جون الشخص الوحيد القادر على فهم أمي؛ وقد حاولت جهدها أن تساعدني كي أفهمها بدوري.

«لم تكن على الدوام هكذا، يا طفلتي. عندما كانت طفلة، ما كان أحد ليستطيع جعلها تغلق فمها، حتى إن أراد ذلك. أقسم أنك كنت قادرة على سماع صوت تلك الفتاة في تيمبكتو. وقد كانت سعيدة، سعيدة مثل خنزير يتمرغ في القاذورات». قالت خالتي جون هذا قبل أن يكتسي وجهها هيئة جادة ... «لم تصر شديدة الهدوء ولم تصر غريبة هكذا إلا بعد ولادتها أولئك الأطفال الميتين. هذا صعب على المرأة. ثم أنجبت مولوداً جديداً كامل الخلقة، لكن رئتي ذلك المولود المسكين كانتا غير قادرتين على التنفس. كان المولود بنتاً». توقفت عن الكلام واستنشقت نفساً ... «ثم أتيت أنت، فساعدها مجيؤك. إنها في خوف شديد من فقدانك. هذا كل شيء. لا شيء أكثر، ولا شيء أقل. وهذا ينبغي

أن يكون له معنى ... إنه حب كبير جداً».

أومأت برأسي ولعقت الآيس كريم الذي كانت خالتي جون قد اشترته لي قبل أن تصعد إلى القطار الذي سيعود بها إلى بوسطن. آيس كريم بالشوكولاتة الطرية مع فانيليا فوقه وفراولة في الوسط ... ناعم، بارد على لساني. كان أبي في انتظارنا في السيارة، وقد احتاجت أمي أن تذهب إلى الحمام. لذا بقيت وحدي مع خالتي جون في انتظار القطار.

«الآن، عليك أن تتذكري هذا. تذكري أنها تفعل كل ما تفعله انطلاقاً من الحب. قد تفعل أشياء خاطئة، لكنها ممتلئة حباً حتى آخرها. تذكري هذا، يا صغيرتي». جعلتني خالتي جون أتعهد لها بأن أتذكر.

لا أظن أحداً يتذكر متى بدأ يفهم العالم. لا أتذكر أول مرة أحسست فيها تعاطفاً مع واحد من الناس، أو أول مرة انتبهت فيها إلى واحد من الكبار وصنّفته شخصاً عادياً أو غريباً، ودوداً أو خطيراً. لا أتذكر أول مرة بكيت عند مشاهدتي فيلماً لأنني أحسست قلبي ينفطر من أجل أحدهم، أو أول مرة احمر فيها لوني حرجاً نتيجة حماقة أو خطأ ارتكبه شخص غيري. لكني أتذكر ذلك اليوم، يوم فهمت الفرق أول مرة. لا أعني الفرق بين الحلوى بشرائح الشوكولاتة المصنوعة بيتياً وبين تلك التي نشتريها من المتجر. أعني الفرق الحقيقي.

لا بد أنني كنت في التاسعة لأنني كنت في التاسعة عندما بدأت الكلام مع أليس؛ وأتذكر أن الأمرين لم تفصل بينهما فترة طويلة. على أية حال، عندما كنت في التاسعة ذهبنا إلى شاطئ

البحـر. وكان شـاطئ البحـر المـكان الوحيـد فـي العالـم حيـث تبـدو أمـي فـي سـلام وهـدوء. أقسـم أن جلدهـا نفسـه كان يسـترخي، وعضـلات ظهرهـا ينفـك توترهـا قليـلاً وزاويتـا فهمـا تعلـوان أكثـر ممـا تنخفضـان. علـى شـاطئ البحـر، كنـت أسـتطيع رؤيـة القليل من الشـخص الـذي عرفتـه خالتـي جون معرفـة حسـنة. لـو لـم تكـن لـدي صـورة لـكان مـن المحتمـل أن أعتبـر هـذا خداعـاً من جانب ذاكرتـي ... الاحتيـالات الصغيـرة التـي تقـوم بهـا الذاكـرة أحيانـاً. صـورة بالأبيـض والأسـود، صـورة لأمـي مرتديـة ملابـس السـباحة تقفـز فـوق الأمـواج ويداهـا ممتدتـان صـوب الشـمس. شـعرها كـرة مـن نـور محيطـة برأسـها كأنهـا هالـة. عندمـا مـات أبـي، سـرقت الصـورة مـن الطاولـة الصغيـرة إلـى جانـب سـريره.

فـي ذلـك اليـوم، سـرنا علـى الشـاطئ نجمـع أصدافـاً بحريـة متكسـرة. خـاب أملـي لعجـزي عـن العثـور علـى ذلـك النـوع الـذي تضعـه علـى أذنـك فتسـمع صـوت البحـر.

وبّخنـي أبـي عندمـا تذمـرت مـن هـذا. «نورمـا ... لا تكونـي حمقاء! لسـت فـي حاجـة إلـى صدفـة عندمـا يكـون المحيـط كلـه علـى مسـافة أقـدام فقـط».

غمغمـت مسـتاءة وأنـا أبنـي قلعـة مـن رمـل مسـتخدمة دلـواً صغيراً أزرق اللـون ذا مقبـض أبيـض اشـترته لـي أمـي مـن متجـر كبيـر. أحببـت ذلـك الدلـو الأزرق. بكيـت عندمـا تركتـه فـي الممـر أمـام البيـت وتراجـع أبـي بالسـيارة فدهسـه وحطمـه قطعـاً صغيـرة. وأمـا ذلـك اليـوم علـى الشـاطئ، فقـد كان الدلـو لا يـزال محتفظـاً بلمعـان البلاسـتيك الجديـد.

رفعت رأسي عن كومة الرمل التي لا شكل لها ورحت أرقب الأجساد البيضاء المحمرة تحت الشمس، أرقبها تمر أمامي. توقف بعضهم كي يبدي إعجابه بقلعتي مع أن ما من شيء فيها أبداً يشبه قلعة. وكان بعض الناس يتجاهلونني تماماً. أمي جالسة في الشمس، ذقنها مرفوعة صوب السماء، وأبي يشرب بيرة ويقرأ كتاباً تحت مظلة تسقط كل قليل. نظرت إلى يدي التي جعلها الصيف داكنة اللون وعليها حبيبات رمل صغيرة ونمشات قاتمة. كان جلدي صقيلاً وأظافري ترسم أهلّة صغيرة ففي اليوم السابق شذّبتها أمي وبردتها حتى صار شكلها وطولها نموذجيين.

وقفت عند قدمي أمي التي كانت مغطية عينيها بذراعها، «لماذا أنا سمراء؟ أنتم شديدو البيضاء وأنا شديدة السمرة».

استوت أمي جالسة ورمقت أبي بنظرة قلقة فوضع كتابه على ركبته، وضعه مفتوحاً عند منتصفه حيث توقف عن القراءة. قال لي بثقة لا تترك متسعاً لأي تساؤل، «كان والد جدك إيطالياً. وقد ورثت عنه لون جلده. يزداد هذا اللون وضوحاً في الشمس».

ما كان لدي سبب يدعوني إلى عدم تصديقه. عدت إلى كومة الرمل. «هل أستطيع رؤية صورته عندما نعود إلى البيت؟»

«لا. احترقت الصور كلها يوم الحريق».

ذلك الحريق الذي شبّ عندما كنت صغيرة جداً، عندما كنت صغيرة إلى حد يجعلني عاجزة عن تذكره. وقد أخذ أشياء كثيرة من بينها كل صورة لي قبل سن الخامسة. أعلم الآن أنه أخذ أيضاً صورة الشخص الوحيد في العائلة الذي يمكن أن يبدو شبيهاً بي. لعنت الحريق وعدت إلى بناء قلعتي.

كنت ألعب في باحة المدرسة بعد بضعة أسابيع من ذلك، بعد أن بدأت الدراسة. لا بد أن ذلك كان بعد الظهر لأن الحشرات لم تبدأ اللسع بعد. الشمس حارة على رقبتي. أنا مرتدية ملابس اللعب في الخارج ... ملابس قديمة أتلفتها بطريقة من الطرق، أتلفتها بفعل ما تركته عليها من بقع أو بفعل نموّي. لا يكاد كمّا السترة يبلغان مرفقي، وهي ضيقة عند صدري وعند بطني. كنت أحفر في فناء البيت الخلفي. تراب داكن بارد. كنت أحفر كي أدفن حشرة ميتة من حشرات شهر يونيو، حشرة كبيرة جناحاها قاسيان لامعان في الشمس حتى بعد موتها. أسفت لأن المصباح الذي على شرفتنا الأمامية جعلها تطير فتصطدم بالزجاج وتموت. رُن جرس الهاتف عندما كنت أحاول إخراج دودة من الحفر الصغيرة مستخدمة ملعقة فضية ضخمة أتيت بها من المطبخ. وضعت أمي كتابها ونظرت صوب الداخل، نظرت إلي ثم صوب الداخل من جديد، وكان الهاتف يرن ثالث مرة. نهضت أخيراً ودخلت البيت تاركة إياي وحدي مع المعلقة ومع الحشرة الميتة. لم يمض وقت طويل على غيابها قبل سماعي أصواتاً أمام البيت، أصوات أطفال يتصايحون. ما كان مسموحاً لي أبداً أن أذهب وأركب الدراجة مثلما يفعل بقية الأطفال في الأمسيات. كان في وسعي أن أقود الدراجة جيئة وذهاباً في الممر الذي أمام البيت وذلك تحت رقابة أبي اليقظة. لكنه كان محظوراً علي أن أخرج للعب كرة السلة في الملعب الذي طالت أعشابه، الملعب الذي لا يبعد عنا إلا شارعين اثنين. «بالتأكيد لا. حشرات وأشخاص سيئون. وآباء وأمهات لا يبدون أي اهتمام بما يحدث لأطفالهم».

هكذا كانت الإجابة التي أتلقاها عندما أطلب الذهاب. كنت محبوسة في فناء البيت، بل في فنائه الخلفي، إذا استثنيت ركوب الدراجة. لكن شيئاً في الأصوات التي سمعتها هذا اليوم شدني إلى واجهة البيت. بلغت حافة المرج فرأيت بضعة أطفال أعرفهم من المدرسة، رأيتهم على دراجاتهم فلوح لي بعضهم بيده وصاح باسمي تحية لي. لوحت لهم بدوري. لكن، لحظة اختفائهم خلف مجموعة أشجار صغيرة عند الزاوية، جذبني شيء إلى الخلف بقوة كنت واثقة من أنها ستنتزع ذراعي من جسدي. تعثرت لكني أفلحت في البقاء واقفة في حين كانت أمي تجرني صاعدة المرج المنحدر وتدخلني البيت من بابه الأمامي. كانت الستائر مسدلة، مثلما تكون دائماً. وكان لا بد لي من الرفرفة بعيني قليلاً قبل أن تألفا النور الخافت.

«إياك، أكرر ... إياك أن تفعلي هذا ثانية». كانت أنفاسها ثقيلة وحبات عرق تظهر على شفتها العليا ... «كان ممكناً أن يأخذك أحدهم. هل تفهمين هذا؟ هل تفهمين؟» أومأت برأسي ... «وماذا نفعل إذا اختطفك أحدهم من الحديقة وذهب بك؟ بعد كل ما مر بك، ماذا يمكن أن أفعل؟» كانت أصابعها تحفر لحم ذراعي الطري، وكنت أحاول ألا أتململ. لكن أصابعها تؤلمني. في اليوم التالي، وجدت على ذراعي خمس كدمات كل منها على شكل حبة كرز.

تذكرت الوعد الذي قطعته لخالتي جون فهمست قائلة، «آسفة، يا أمي، لم أقصد هذا».

توقفت لحظة عن توبيخي كي تزيح الستارة قليلاً وتنظر

إلـى الخـارج، إلـى الشـارع الخالـي. اطمأنـت إلـى أن مـا مـن أحـد هنـاك، إلـى أن مـا مـن أحـد مسـتعد لأن يخطفنـي مـن حديقـة البيـت، فجلسـت إلـى جـواري وطوقـت رأسـها بذراعيهـا وراحـت تهزنـي إلـى الأمـام والخلـف، تهدهدنـي مثلمـا كانـت تأتينـي الأحـلام. قابلـت عناقهـا بعضـلات متيبسـة ورحـت أنظـر مـن النافـذة عندمـا جذبتنـي أقـرب إليهـا. راحـت الآن تكلمنـي بنبـرة أكثـر رقـة ... تراجـع غضبهـا متسـرباً إلـى العالـم عبـر أسـنانها المطبقـة.

«لـم أرد أن أؤلمـك. لـم أقصـد هـذا. آسـفة، يـا نورمـا، يـا حبيبتـي. مامـا آسـفة».

تلـك الليلـة، جلـس أبـي وأمـي إلـى الطاولـة الصغيـرة فـي المطبـخ، جلسـا يشـربان زجاجـة مـن الويسـكي الـذي تخليـا عـن محاولـة إخفائـه عنـي. كان حديثهمـا متوتـراً وصوتاهمـا منخفضيـن إلـى حـد جعلنـي أقلـع عـن محاولـة سـماعه مـن مـكان جلوسـي فـي الصالـة، فذهبـت إلـى فراشـي. انقضـت سـنين قبـل أن أخـرج إلـى الحديقـة الأماميـة مـرة أخـرى، ولـم أسـتطع أبـداً أن أدفـن تلـك الحشـرة المسـكينة، حشـرة شـهر يونيـو. أظـن أن قطـة جيراننـا الشـرهة أورانجـي قـد أخذتهـا.

وبعـد بضعـة أسـابيع، عندمـا كان علـيّ أن أجلـس فـي غرفتـي وأحفـظ جـداول الضـرب، سـمعتهما يتحدثـان عنـي. كانـت أمـي ترشـف الجـلاب بالنعنـع، مزيـج اكتشـفته فـي الآونـة الأخيـرة ورأت أنـه معبـر عـن المكانـة الاجتماعيـة مـع أن خالتـي جـون كانـت تعتبـره شـراباً عنصريـاً فيـه تعـالٍ علـى الآخريـن. كانـت خالتـي جـون تشـرب نبيـذاً مـن كاليفورنيـا. قالـت لـي إنهـا مؤمنـة بـأن صانعـي النبيـذ

على الساحل الغربي سيصيبون نجاحاً آخر الأمر. كانتا تتجادلان كثيراً، هي وأمي، وتتعانقان كثيراً. كانت العلاقة بينهما تحيّرني، لكنها تريحني أيضاً.

وكانت أمي ترفض اقتراح خالتي جون أن أرى معالجاً نفسياً.

كانت تدعو المعالجة النفسية «الطب الهيبّي»، ولم يخالفها أبي. وحدها خالتي جون حملت قضيتي.

تقول أمي، «لكن، يا جون، ...»

« هذه المرة، لن أقبل سماع 'لكن، يا جون'!». تناولت خالتي جون رشفة من نبيذها. أشاحت أمي عنها بوجهها.

«لكن، يا جون ... ماذا لو بحثوا في حياتها من قبل؟ ماذا لو نقّبوا في ذاكرتها؟» قالت ماما هذا بصوت خفيض وهي تنظر صوب الباب المفضي إلى غرفة المعيشة. كانت جالسة مع خالتي جون إلى طاولة غرفة الطعام. كان منتظراً مني أن أتابع برنامج «رومبر روم»، لكني لست مهتمة بمن تستطيع تلك السيدة التي في البرنامج رؤيته عبر مرآتها الصغيرة. كلما علمت أن ثمة حديثاً عني في مكان آخر في البيت، كلما تسللت خلف الستائر أو اختفيت خلف الأبواب وأصغيت إلى ذلك الحديث.

«تقول أليس إن بدء تشكل الذاكرة الحقيقية لدى الأطفال لا يبدأ قبل الخامسة أو السادسة من العمر. تستطيعين مواصلة القول لها إنها تحلم». تناولت خالتي جون جرعة كبيرة من كأسها فغبّشت أنفاسها الكريستال؛ صار ضبابياً كامد اللون.

«إنها في التاسعة، يا جون».

«كانت في الرابعة، أو في الخامسة، عندما حدث ذلك. لا نستطيع أن نكون متأكدين تماماً. قالت لنا إنها في الرابعة، لكن الأطفال يمكن أن يخطئوا. لم تتشكل ذكرياتها بعد. انتبهي إلى ما أقول!». مدت خالتي جون يدها بالكأس إلى أمي التي ملأتها. ظننت أنهما تتحدثان عن الحريق الذي أودى بذكريات الماضي الملموسة كلها. أتذكر رائحة قدر البطاطس المسلوقة ذلك اليوم. كان يوماً من أيام أوائل شهر سبتمبر. نحن لا نشوي اللحم في تاريخ مبكر إلى هذا الحد. اللحم مع البطاطس وجبة من أجل الأيام الباردة عندما تعوي الرياح وتتساقط الثلوج. أتذكر كيف كانت أمي تومئ برأسها وكيف كان في شاشة التلفزيون في الخلفية أطفال يضحكون.

«دعي أليس تكلمها. قد يريح هذا بالك».

هزت أمي رأسها وشدت شفتيها في مواجهة مزيج النعنع الذي دخل فمها من غير أن تقصد. «لا أظن هذا. يا إلهي، يا جون، أتساءل أحياناً إن كان لديك عقل أصلاً. واحدة مثلها! هل تعنينها حقاً، يا جون؟»

«أعني من؟»

«تعلمين من أعنيها».

بدا على خالتي جون أنها ضاقت ذرعاً. لكنها واصلت كلامها، «كفي عن التفكير في نفسك. فكري في نورما ولو مرة واحدة».

«هي كل ما أفكر فيه».

«إذاً، دعي أليس تكلمها!».

بعد بضعة أسابيع، تحدثت أول مرة مع أليس. كنت قد رأيتها من قبل، لكن ذلك لم يكن أبداً في بيتنا؛ ثم إنني لم أتكلم معها

مثلما تكلمت ذلك اليوم ومثلما تكلمت في أيام كثيرة تلته. فعلى الدوام، كانت في نظري صديقة خالتي جون، لا أكثر، صديقتها الحلوة اللطيفة معي. مع هذا، قررت في ذلك اليوم أنني أحب أليس. كانت أول شخص من الكبار يكلمني كأنني شخص، لا كأنني دمية خزفية سهلة الكسر. وعلى الدوام، كانت رائحة سكاكر النعناع فائحة منها. وحتى هذا اليوم، أرى وجهها كلما شممت رائحة واحدة من تلك السكاكر الوردية المدورة.

«مرحباً، يا نورما». ركعت بحيث صار وجهها قبالة وجهي تماماً. «سمعت من خالتك جون أنك ترين أحلاماً مزعجة». رفعت رأسها ناظرة إلى خالتي جون وابتسمت ... «هل تحبين أن تدخلي كي تحدثيني عنها؟»

أومأت برأسي فنهضت واقفة وأمسكت يدي وقادتني إلى غرفة معيشة لا تشبه أي غرفة معيشة دخلتها قبل ذلك. كانت تعيش في بيت من حجر بُنّي له نوافذ تشغل الجدار كله. وأفضل من ذلك كله أن الستائر مفتوحة على منظر الحدائق الواقعة إلى الناحية الأخرى من الشارع، حدائق خضراء كلها وسماء زرقاء تطل من بين الأشجار. ذهبت أمي وخالتي جون إلى المطبخ كي تشربا الشاي.

قدمت إلي أليس قطعة شوكولاته، لكنها كانت مرة ... ليست فيها حلاوة. تغضن أنفي قليلاً، لكني ابتلعتها على أية حال. ستغضب أمي إذا اكتشفت أنني لم أكن مهذبة.

«خذي راحتك، يا نورما». أشارت إلى الأريكة. رأيت دمية مستندة إلى ذراع الأريكة ... «قالت لي ماما إنك تحبين الدمى».

التقطت الدمية وأزحتها جانباً، «ليس في الحقيقة. صرت الآن كبيرة قليلاً على ذلك».

«فهمت. إذاً، أظنني سأبعدها».

«وهي ليست ماما، بل أمي».

«أمك؟!»

«نعم. تقول أمي إن كلمة ماما من كلام الشوارع».

«هذه كلمة كبيرة على ...». صمتت ثم جلست قبالة الأريكة، جلستْ على كرسي لا أظنه بدا لي مريحاً تماماً.

جلست بدوري.

«إذاً، ترين أحلاماً».

«هذا صحيح».

انتظرت، وانتظرت بدوري.

«ألا تحبين أن تقولي لي شيئاً عن تلك الأحلام؟»

«أنا أخبر أمي عن روثي. لكنها ليست إلا أحلاماً. يرى الجميع أحلاماً».

«هذا صحيح. يرى الجميع أحلاماً، لكن أمك قلقة لأن أحلامك مفزعة أكثر مما تكون الأحلام عادة. ومن هي روثي؟» مالت صوبي مستندة بمرفقيها إلى ركبتيها. قطة صغيرة برتقالية رمادية بيضاء لها أنف أسود خرجت من تحت الكرسي واقتربت مني مترددة ثم انحرفت صوب الممر قبل أن تسنح لي فرصة التقاطها والتربيت عليها.

«روثي صديقتي. تقول أمي إنني أتخيلها. لا أكاد أتذكر شيئاً من تلك الأحلام. صارت الآن باهتة كلها. لم أعد قادرة على الحديث عنها. إنها تصيب أمي بالصداع».

«هل تظنين أنها حقيقية ... هذه الأحلام؟»

التفتُّ صوب صوت سعال آتٍ من المطبخ، «لا تقلقي، يا نورما، لا تستطيعان سماعنا؟».

«كيف تعرفين خالتي جون؟»

«أنا وخالتك صديقتان حميمتان؛ وقد مضى على صداقتنا زمن طويل جداً. أظن أننا صديقتان حتى من قبل مولدك». استندت إلى ظهر كرسيها وشبكت ساقيها عند الكاحلين ... «والآن، فلنعد إلى تلك الأحلام».

«أظن أن ماما ... أمي موجودة في الأحلام، لكنها ليست هي. إنها شخص آخر. ولدي شقيق. لكن، ليس لدي شقيق. هذا بسبب الأطفال الذين ماتوا جميعاً».

بدت عليها الدهشة. «الأطفال الذين ماتوا جميعاً!».

«الأطفال الذين كانوا في بطن أمي. أنا الوحيدة التي لم تمت».

استندت أليس إلى ظهر الكرسي فأحسست أنني قلت شيئاً ما كان ينبغي لي قوله. انتظرت أن تأتي أمي سائرة في الممر فتمسك بي تحت ذراعها وترفعني عن الأريكة وتخرج من الباب عائدة بي إلى القطار. أحسست الجلد الرقيق تحت إبطي يصير أسود اللون تحت أصابعها المشدودة، لكنها لم تأت في ذلك الممر. توقفت عن تدليك الكدمات التي تخيلتها.

«هذه مسؤولية كبيرة عليك؛ ألا تظنين هذا، يا نورما؟»

«لا أعلم ما تعنين بهذا. أنا في التاسعة. لكني أكاد أصير في العاشرة. علي أن أرتب فراشي في الصباح وأن أرمي القمامة أيام الثلاثاء».

ابتسمت لي.

قالت، «ما أريد قوله هو أنك لست مذنبة في موت أولئك الأطفال، وليست مهمتك جعل أمك تنسى أمرهم. عملك الوحيد الآن هو أن تكوني فتاة صغيرة». نظرت إلي وجعدت أنفها مع ابتسامة تآمرية ... «فتاة صغيرة لعلها لم تعد تلعب بالدمى ... لكن فتاة صغيرة».

«ربما».

«ما رأيك في أن أعطيك شيئاً تفعلينه يكون مناسباً لسنك؟ ليس دمية ...» ابتسمت لي ... «هل يعجبك هذا؟»

«لا بأس».

سارت أليس إلى طاولة مكتب صغيرة في زاوية الغرفة وأخرجت منها دفتراً صغيراً على غلافه زهرات صغيرة زرقاء ووردية.

«أريد أن تكتبي يومياتك. كل ما تودين أن تتكلمي فيه مع أمك لكنك قد تحسين تردداً. أو أي شيء مهما يكن. عندما تحسين رغبة في الكتابة، ما عليك إلا أن تكتبي. وإذا أحببت أن تتكلمي معي في شيء من الأشياء التي تكتبين عنها، ففي وسعنا أن نتكلم. لكن هذه يومياتك أنت، من أجلك أنت فقط». فتحت أليس الدفتر وكتبت رقم هاتفها على غلافه الداخلي ... «إذا أحببت يوماً أن نتكلم في أي شيء مما تكتبين في هذا الدفتر، ففي وسعك أن تتصلي بي. ما رأيك في هذا؟»

«جيد». أخذت الدفتر من يدها ووضعته في حقيبة اليد التي سمحت لي أمي باستخدامها.

«قاعدة واحدة: لا كلام عن الأطفال، لا عن الذين ضاعوا ولا عن الدمى». غمزت لي بعينها فابتسمت لها ... ابتسامة كبيرة.

لست واثقة من الأمر لأنني صرت الآن كبيرة السن ولأن ذاكرتي لم تعد قوية مثلما كانت. لكني أظنها كانت المرة الأولى في حياتي الغضة التي لم أحس فيها ذنباً خلال تلك اللحظات الفاصلة بين النظر عبر النوافذ الطويلة في شقة أليس وبين جلوسنا في مقاعدنا في القطار العائد بنا إلى ولاية مين. كانت خالتي جون واقفة على رصيف المحطة. لوحت لنا بيدها عندما تحركنا. طوقتني أمي بذراعها. الندبة التي في يدها أمام وجهي. همست لي، «يا طفلتي الصغيرة الغالية» فغمرني الإحساس بالذنب، غمرني من جديد.

لا أظنني تغيرت كثيراً بعد لقائي أليس إلا من ناحية واحدة؛ ففي حين كانت أمي تقرأ في كتابها وهي جالسة على كرسي الاسترخاء على الشرفة الخلفية تحت سماء خريفية صدئة، كنت أدفن الدمية تحت الشجيرة ذات الأزهار البيضاء والقرمزية. اكتشفت أمي الأمر بعد سنين من ذلك، اكتشفته عندما كانت تحفر الأرض كي تغرس شجرة ميبل ياباني، فكادت تصيبها نوبة قلبية.

أمضينا. أنا وأليس، بضعة شهور مؤلمة نحاول استكشاف طريقنا للتعامل مع هذه النورما الجديدة. لم أعد أتكلم على أحلامي، ولم أعد أبكي عندما تأتيني. بدلاً من ذلك، صرت أكتب عنها. لم أعد أخبر أمي شيئاً عنهما ... عن أمي في الحلم، عن أخي الشبحي. وعلى الهوامش، صرت أرسم نجوماً وأقماراً وأرسم

شكلاً بدائياً لدمية. أبي لم يكن يسألني أبداً عن أحلامي. شُفي جلده عند زاوية إبهامه، شُفي تماماً. وفي آخر المطاف، بهتت الأحلام بدورها وصارت مخزونة في مكان ما في أعماق عقلي. لكني استيقظت ذات صباح على دم فوق ملاءات سريري وذعر في قلبي لأن أمي لم تقل لي شيئاً عن هذا الأمر ولأنني كنت موقنة من أنني أموت. لم أستطع بعد ذلك حتى أن أقول لأليس شيئاً عن أحلامي. خبا النور وخبت الظلمة ... امتزجا فصارا لوناً رمادياً غير واضح. ظلت الأحلام لغزاً بالنسبة إلي إلى أن بدأ عقل أمي يخذلها وبدأت تلك الأشياء المخزونة في أعماق ظلمة وعيها تقفز خارجة، بدأت تتراقص مثلما تتراقص الأسماك عند شاطئ البحيرة. عندها، عادت إلي تلك الأحلام وبدأت تعني لي شيئاً.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- 3 -

جو

تسير الطريق السريعة مخترقة الأشجار فتشطر الريف إلى نصفين، شمالي وجنوبي، تصل بينهما وتفصل بينهما. في هذا الوقت من السنة، تُرقِّطُ الإسفلت حفر كبيرة يمكن أن تبتلع السيارة كلها إذا أصبت واحدة منها بقوة كافية. وكنت أحس كل واحدة منها. يقول لي الأطباء إنها بلغت نخاع عظمي. وأنا أصدقهم. عندما نصيب واحدة من تلك الحفر، أحس الضربة في كل عظم من عظامي التي أبلاها المرض. الغاية الوحيدة من هذه الرحلة هي إفطارنا الذي يستغرق اليوم كله بعد موعدي مع الطبيب. بيكون وبيض، وبطاطس مقلية في البيت، وشرائح خبز محمصة عليها مربى الفراولة، وشريحة لحم إضافية. ما كنت لأذهب لو لم تجبرني أمي. أنا في الخامسة والخمسين؛ وأنا لا أزال حياً لأن أمي البالغة سبعاً وثمانين عاماً تقول لي إنها غير مستعدة لأن ترى موت واحد آخر من أطفالها. لو كان الأمر بيدي لكنت الآن في البيت راقداً في فراشي، لكنت منتظراً الظلام.

أقول وأكشر ألماً لحظة اصطدامنا بحفرة، «سوف تظل ماما حية بعد موتي. ستظل حية بعد موت تشارلي وموت بابا».

تقول ماي التي تقود السيارة بنا، «وروثي».

«روثي ليست ميتة، يا ماي».

«الرب يحبك، يا جو. أنت وماما لا تزالان متمسكين بالأمل بعد هذه السنين كلها».

لم يحدث يوماً أن اعتبرت روثي ميتة. كنا نعود كل سنة إلى تلك الحقول على امتداد الطريق رقم 9، إلا أننا لم نعثر على أي أثر لها. لو كانت ميتة لوجد أحدهم شيئاً. إلى جانب هذا، عندما يموت واحداً من الناس، يكون هناك إحساس بأن شيئاً قد انتهى، إحساس بالثقل يأتي مع كل نهاية من النهايات. قصة روثي ليست لها نهاية. لكن، ثمة حياة علينا أن نعيشها. وشيئاً بعد شيء، على نحوٍ هادئ، بدأنا نعيش من جديد. لم يأت ذلك على الفور، وعندما طلب بابا من آل جونسون إيواء قاطفي التفاح ذلك الخريف، كان من شأن ذلك أن أبقانا زمناً أطول قليلاً في ذلك الجزء من حزننا الذي لا يزال باقياً.

كل سنة من السنين التي سبقت اختفاء روثي، كان قاطفو التفاح يأتون إلى الحقل الواقع بين بيتنا وسكة القطار، جلودهم السمراء صارت أشد سمرة بفعل شمس الصيف وعقولهم صارت أكثر هدوءاً بفعل هواء الخريف اللطيف. كانوا يأتون بالسيارات وبالشاحنات وبالقطار، وكانوا يسيرون من المحطة التي في المدينة حاملين كل ما يلزمهم للعيش شهراً كاملاً من موسم قطاف الفاكهة. ينصبون الخيام ويشعلون النيران، يتقاتلون قليلاً ويتحابون كثيراً. وتماماً مثلما هو الأمر في حقول التوت، كان بابا يكوّمهم في صندوق شاحنته الصغيرة ويأخذهم إلى البساتين عند شروق الشمس، ثم يعود لأخذهم آخر كل يوم. كانت النساء اللواتي في سن الكهولة يأتين معاً بالسيارات وقد أنزلن زجاج نوافذها؛ شعرهن الأبيض لا يزال مشعثاً منفوشاً لشدة الريح. يأتين ويجلسن حول النار ... تبادل النمائم، ورتق الجوارب، وحياكة سلال يعطينها لنا لنبيعها لهن في المدينة.

قالت واحدة منهن، «والآن، احرص على أن تدعك وجهك بشيء من التراب قبل دخول المدينة».

قالت واحدة أخرى ضاحكة، «العَرَج مفيد أيضاً. يدفعون لك مالاً أكثر إذا رأوك تعرج في مشيتك».

كان الناس في المدينة يحبون شراء سلالنا. أظن أن شراءها يجعلهم يحسون أنهم من أهل الخير والإحسان. وما كان يبدو عليهم أبداً أنهم منتبهون إلى أن ذلك الطفل الهندي ذي الساق العرجاء والوجه الملوث بالتراب، الطفل الذي يبيعهم السلال يوم الأربعاء، هو نفسه الطفل الهندي المعافى النظيف الذي يجلس إلى جانبهم في الكنيسة يوم الأحد. وأما ذلك الشهر، شهر أكتوبر، فقد كان من غير نيران ومن غير نساء في سن الكهولة ومن غير قاطفي تفاح في الحقول. روثي أيضاً لم تكن هناك، لكنا نحس حضورها في الجدران، في الكرسي الزائد وقت العشاء وفي الأشياء التي تخصها. عثرت ماما على حذاء روثي الشتوي في الخزانة التي نضع فيها ملابس الصيف في الشتاء وملابس الشتاء في الصيف. ظلت حاملة ذلك الحذاء زمناً طويلاً جداً قبل أن تضعه على الرف فوق الخزانة في غرفة البنات. وبرفق، حملت الدمية المصنوعة من الجوارب، الدمية التي لها زران مكان العينين، ووضعتها في فردة من فردتي الحذاء.

قالت مبررة ذلك، «سيلزمها الحذاء عندما تعود إلى البيت».

بدأت ماي تقول، «يا ماما ...» لكن ماما رفعت يدها فأسكتتها.

«لا، يا ماي! أنت لا تعرفين كيف تكون خسارة واحد من الأطفال. أتمنى ألا تعرفي هذا أبداً. سوف يظل حذاؤها هناك إلى أن أقول إنه لن يظل هناك».

على مر العقود، هُدمت جدران هذا البيت في أماكن مختلفة وأعيد بناؤها من جديد وطُليت بألوان جديدة، لكن الخزانة ظلت حاملة ذلك الزوج العتيق نفسه من أحذية الفتيات وظل رأس الدمية مطلاً من واحدة من الفردتين على الرف بين السلال القديمة وزينات عيد الميلاد.

عندما بدأ الشتاء يُظهر نفسه في السماء الرمادية وفي ظلمة الأمسيات، صارت ماما صامتة، صامتة جداً. صمت مثل صمت السماء قبل بدء هطول الثلج. تمضي وقتها كله جالسة على كرسيها عند النافذة ترقب البقرات وتصيح على السناجب التي تدخل وعاء إطعام الطيور. مسبحتها في يدها. وكنت أسير في غرفة المعيشة على أطراف أصابعي في بعد ظهر عاتم أوائل شهر نوفمبر عندما توقفت ونظرت إليها.

قلت لها، «آسف لأنني أضعتها، يا ماما».

أجفلت عندما تكلمت وتحوّل وجهها عن النافذة. رأيته يتحول من وجه خالٍ من التعبير إلى وجه حزين.

«أنت لم تضيّع أحداً، يا جو. لا يجوز أن تظل حاملاً هذا الأمر على كتفيك». نظرت إلي، نظرت مباشرة إلى عيني ... «هذا ليس ذنبك أنت. الظاهر أن أطفالي يأتون جاهزين للرحيل بطريقة أو بأخرى. عاد بن وماي من تلك المدرسة. وسوف تعود روثي أيضاً، فلا تقلق». لم تبعد عينيها عني مثلما تفعل عادة. هذه المرة، ظلت عيناها ثابتتين على عيني، تلك العينان الداكنتان اللتان لا تزالان -أقسم على هذا- تعرفان كل فكرة تجول في رأسي. كنت ممتناً عندما دخلت ماي غرفة المعيشة.

«ماما، علميني الحياكة».

نظرت ماما إلى ماي وعَبَر وجهها ظل جديد، ظل ليس قاتماً ولا حزيناً مثل الذي سبقه. بدا ملمحها الجديد كأن فيه دهشة، بل كأن فيه شيئاً من الفكاهة.

«يا ماي ... أنا أحبك كثيراً، وأنت تعلمين هذا. لكن لديك يدان خرقاوان وأنت لا تستطيعين البقاء منتبهة أكثر مما يستطيع جرو صغير يعض الثلج أول مرة في حياته».

لكن ماي توسلت إليها فلانت ماما آخر الأمر. أتذكر أن ماي حاولت ... حاولت حقاً. لكن بضعة أيام انقضت فضاقت ماما ذرعاً وأقلعت عن محاولة تعليم ماي. ظل ذلك الجورب غير منتهٍ. ثمة شيء في ماي، أصابعها الخرقاء في التعامل مع الخيوط وأسنانها التي تعض شفتها لشدة تركيزها، شيء ذكّر ماما بأننا لا نزال موجودين، بأننا لا نزال محتاجين إلى من يرعانا. لا أزال أظن أن ماي كانت مدركة ما تفعله، كانت مدركة أن هذه هي الطريقة التي تستطيع بها أن تساعد ماما، أن تساعدنا جميعاً. من غير أن ينتبه أحد، تستطيع ماي أن تكون قرّة الأعين.

والآن، ماي هي التي ترعانا. هي التي تطهو وتنظف وتغسل ملاءات فراشي عندما لا أفلح في النهوض سريعاً في الليل كي أتبول؛ وهي التي تساعد ماما في النهوض عن كرسيها في غرفة المعيشة وتجلسها إلى طاولة المطبخ وتساعدها كل ليلة عند ذهابها إلى الفراش. أطفال ماي صاروا الآن كباراً فباعت بيتها وعادت كي تعيش هنا بعد رجوعي إلى البيت كي أموت. خلال سنواتي التي أمضيتها هنا، بل أيضاً خلال السنوات التي

أمضيتها بعيداً، خلال السنوات هذه كلها، ما كان لي تخيل أن ماي من النوع الذي يصلح لرعاية الناس. مع هذا، ها هي الآن، ها هي خلف مقود السيارة تأخذني إلى المدينة كي أجلس في غرفة انتظار فائحة بروائح المعقمات والأمراض، كي أحدق في جدار عليه منحوتة زجاجية زرقاء قبيحة كقبح الخطيئة، لكنها ترغمك على النظر إليها ... لست أدري كيف.

«يا إلهي، يا جو! لست أدري ما يجعلهم يضعون شيئاً بهذا القبح كي ينظر إليه المرضى والمحتضرين. لماذا لا يضعون أشياء لطيفة ... صور حلوى أو صورة تلك القلعة البيضاء في الهند!»

تقلب ماي صفحات مجلة متروكة على الطاولة بين صفوف المقاعد ... «أو، لماذا لا يضعون صورة جميلة لبوابة الجنة».

تبتسم لي امرأة في مقتبل الشباب على رأسها وشاح.

أقول، «أظن أنه فن».

«أظن أنها قمامة هذه التي ألصقوها إلى الجدار». لا ترفع رأسها عن المجلة. أرفع كتفي ناظراً إلى المرأة المريضة ذات الوشاح. ثمة تفاهم بين المحتضرين: فلنترك الأحياء يتكلمون. لديهم متسع من الوقت للتعويض عن ذلك.

وعندما ينادون اسمي، تظل ماي منتظرة ريثما يتكلمون معي ويقولون لي إنني أتحسن مع أننا نعلم جميعاً أنني، على الأرجح، قد لا أرى تغير الفصول مرة أخرى.

إن كانت رغبة ماي في الحياكة قد أعادت أمي إلينا، فإن ثمة أمراً أقسى كثيراً أعاد أبي إلينا. لكني أمضيت سنوات غير منتبهاً

إلى تلك القسوة. ففي عصر يوم رمادي تماماً بعد تجربة ماي الفاشلة في الحياكة، سقطت من يد بابا العصا التي يستخدمها في تقليب لحم الغزال على المشوى الذي في الخارج. صاح منادياً ماما طالباً منها أن تُطفئ الموقد الذي في الداخل وأن تجمعنا كلنا. كان ذلك وقت الثلج الأول فما كان من بن وتشارلي اللذين كانا يتقاذفان بكرات الثلج إلا أن أسقطا من أيديهما الثلج الذي جعلاه أسلحة لهما واقتربا من باب البيت. جريت صوب كرات الثلج التي أسقطاها إذ رأيت فرصة لسرقة ثمرة عملهما الشاق، فرصة لاستخدامها ضدهما. لم ألاحظ أي شيء غريب إلى أن خرج بابا من البيت حاملاً بندقيته وناداني باسمي. تتبعت نظرته صوب الطريق حيث كانت سيارة طويلة سوداء لامعة تدخل الممر الذي أمام بيتنا.

«جو ... اترك كرات الثلج». كنت أحس البرد يتسرب عبر القفازين الصوفيين؛ وأتذكر الخيبة التي أحسستها عند إرغامي على ترك الكرات، تلك الكرات المشكلة تشكيلاً رائعاً ... «أريد منك أن تتبع أختك وأخويك إلى الغابة». لم تفارق عيناه أبداً السيارة المقتربة من البيت ... «إنها لعبة، لعبة الاختباء. اذهبوا واختبئوا، وسوف آتي وأعثر عليكم. تستطيع الخروج من مخبئك عندما تسمع صوتي ينادي باسمك. ابق مختبئاً إذا سمعت أي شخص غيري يناديك باسمك. هل تفهمني؟»

أومأت برأسي وانحنيت كي ألتقط واحدة من الكرات التي أسقطتها قبل لحظة. استدارتها صلبة متينة، ثم استدرت وجريت إلى الغابة بأسرع ما استطعت. ومن خلفي، سمعت صوت ماي يناديني، «لا تبتعد كثيراً، لكن ابق مختبئاً».

شجرة ميبل ضخمة عند أول الغابة تماماً منتصبة على مسافة قريبة من البيت. كان جذع الشجرة مهترئاً من الداخل، وكانت فيه فجوة بحجمي تقريباً، فجوة واطئة أستطيع دخولها. كان قلب الشجرة رطباً، لكني ظللت قادراً على استراق النظر فرأيت السيارة تتوقف أمام بابا تماماً ... ظهره منتصب وبندقيته على صدره. ظهرت أمي بمئز المطبخ وعلى كتفيها بطانية. نزلت الدرجات التي أمام البيت ووقفت إلى جانبه.

«مستر هيوز! بماذا أخدمك؟»

كان علي أن أصيخ السمع كي ألتقط صوت أبي. وكانت أمي تعصر يديها وتلتفت برأسها صوب الغابة.

«مساء الخير، يا لويس! سيدتي!». أومأ برأسه صوب أمي ... «بلغَنا أنك أضعت هذا الصيف واحداً من أطفالك الصغار». ظلت أنفاسه معلقة في الهواء، بيضاء، هزيلة. لم يتحرك أبي ولم يصدر عنه أي صوت. «أتيت كي أتكلم على أطفالك الآخرين. كي أتكلم في ما هو أفضل بالنسبة إليهم، وذلك في ضوء ما جرى». نظر إلى الأرض وصمت لحظة. عندما بدأ الكلام من جديد، كان صوته أعلى وأشد لؤماً مما كان قبل ثوانٍ فقط. كان صوتاً يسهل على الريح أن تحمله فاستطعت سماعه بأوضح من ذي قبل. «كيف تفقد طفلاً، يا لويس؟ أعطني تفسيراً مقنعاً لفقدانك طفلاً، وسوف أفكر في أن أترك واحداً من أطفالك في عهدتك، بل ربما اثنين. ربما لا آخذ إلا ...». نظر في دفتره ... «إلا بن وماي، الكبيران. الاثنان اللذان انتزعتهما من المدرسة انتزاعاً. ربما أترك لك الصغار ... الآن».

لـم يتحـرك بابـا. «حـاول أن تـأخـذ أي طفـل مـن أطفالـي وسـوف أسـتخدم هـذه البندقيـة ضـدك».

تملمـل السـيد هيـوز يمنـة ويسـرة. صلعـة رأسـه محمـرة مـن البرد. قبعتـه بيـن يديـه. «الآن ... كـن منطقيـاً!».

لم يرفع بابا صوته، «اخرج من أرضي الآن».

«لا بـأس ... أنـت تـرى أن لـدي أمـراً بأخذهـم جميعـاً، يـا لويـس. لكنـي أحـاول أن أكـون متعاطفـاً معـك، أحـاول التوصـل إلـى حـل وسـط».

خطـا أبـي متراجعـاً إلـى الخلـف. حمـل البندقيـة، ثـم أصلـى زنادهـا ووجههـا إلـى السـيد هيـوز. «اخـرج الآن مـن أرضـي. اخـرج الآن وإلا فلـن تعـود إلـى أسـرتك».

بحركـة بطيئـة، رفـع السـيد هيـوز يديـه فـي الهـواء وتراجـع إلـى أن صـار عنـد سـيارته. «آمـل ألا تنـدم علـى هـذا». قالهـا وهـو يفتـح بـاب السـيارة ويجلـس فيهـا. يـداه لا تـزالان مرفوعتيـن فـي الهـواء، وبندقيـة أبـي لا تـزال موجهـة إليـه.

قـال بابـا لحظـة انطلـق السـيد هيـوز بالسـيارة قاذفـاً فـي الهـواء طينـاً وثلجـاً، «لـن أنـدم، فـلا تقلـق». خفـض بابـا بندقيتـه وأعطاهـا لمامـا المرتعشـة خوفـاً وبـرداً فدخلـتُ البيـت. التفـت بابـا صـوب الغابـة وراح ينادينـا بأسـمائنا.

وصلتنـا رسـالة بعـد انقضـاء بضعـة أسـابيع، عندمـا كان بابـا يصطـاد الغـزلان مـع بـن فـي الغابـات. قـرأت مامـا الرسـالة، ثـم قبّلتهـا ووضعتهـا داخـل غـلاف الإنجيـل. لـم نـر السـيد هيـوز بعـد ذلـك أبـداً، وظللـت سـنوات طويلـة أفضـل أن أتذكـر ذلـك اليـوم بصفتـه لعبـة

عظيمة من ألعاب الاختباء خرجت فيها فائزاً. كان الآخرون قد جثو خلف أشجار الصنوبر أو جرو خلف الكوخ الملحق بالبيت. وأما أنا فقد دخلت شجرة ميبل ... صرت داخلها! ظللت فيها إلى أن ناداني بابا باسمي. حتى ماي أقرّت لي بأنني ذكي جداً. على امتداد سنين كثيرة، ظللت أعتبر ذلك واحداً من أعظم انتصاراتي في الطفولة. ثم تلاشت الذكرى قليلاً إلى أن فتحتُ إنجيل ماما بعد عودتي للعيش في البيت. كانت الرسالة في ذلك الوقت قد تصلّبت وصارت بنية اللون، إلا أنها روت حوادث ذلك اليوم على نحوٍ يخالف ما أتذكره. لكني لم أهتم لشيء من هذا كله. وافقوا على تركنا وشأننا لأننا لا نعيش في المحمية ولأن بابا يملك أرضه ملكية مباشرة. بدا لي هذا سبباً غير مقنع. بالمقابل، سيكفون عن إرسال دولارين لكل طفل من أجل مستلزمات المدرسة. أعدت الرسالة إلى مكانها بين صفحتين من صفحات سفر اللاويين. حرصت على إعادتها إلى المكان الذي تركتها ماما فيه.

بما أننا فوّتنا قطاف التفاح، فقد صار بابا مضطراً إلى تولي عمل إضافي. في أي سنة غير تلك السنة، بعد أن ينتهي قطاف التفاح وقبل قدوم العام الجديد، كان يمضي وقته في إصلاح أشياء حول البيت ينبغي إصلاحها قبل تساقط الثلوج وقبل أن يبدأ عمله الشتوي في قطع الأشجار وقشر لحائها من أجل مصنع الأخشاب. وأما في ذلك الخريف، تماماً بعد فوزي في لعبة الاختباء، فقد قرر بابا أن يقطع شجرة الميبل، شجرتي.

قال لي عندما تذمرت، «إنها خطيرة، يا جو. كان ممكناً أن تؤذي

نفسك». وكانت تلك نهاية الشجرة. لا يزال أصل جذعها موجوداً، حلقاتها التي شوهها الزمن وشوهها الطقس. عندما يحول الألم بيني وبين النوم، تعد لي ماي فنجاناً من الشاي الثقيل وتجلسني في كرسي الحديقة إلى جانب بقية الجذع وتدثّرني بالبطانيات كي أستطيع مشاهدة شروق الشمس. وأما في ذلك الوقت، عندما كنت لا أزال طفلاً، فقد حلّ بي غضب شديد. ثم ازداد غضبي عندما وصلت بابا رسالة.

هذه الرسائل التي تطلب خدمات بابا لم تكن شيئاً جديداً، لكنه كان قد بدأ إرسال الطلبات إلى رجال أصغر منه سناً، أولئك الذين يعيشون على مقربة من بيت أخته، عمتي ليندي. تضمنت الرسالة التي وصلته طلباً لخدمات «دليل هندي حقيقي» من أجل مجموعة من الصيادين الأميركيين الأثرياء. كانوا يحبون القدوم أواخر الخريف مجهزين بأحدث معدات الصيد وبمالٍ ينفقونه. وبحسب قول بابا، كانوا راغبين في خوض «تجربة». يعني هذا أن يأخذهم بابا عبر الغابات بحثاً عن البط. طوى بابا الرسالة ونظر إلى ماما الجالسة إلى الناحية الأخرى من طاولة الطعام.

«أظنني سأذهب معهم. هذا لأننا فوّتنا موسم قطاف التفاح هذه السنة». صمت كل من كان جالساً على الطاولة. توقفت الشوكات عن الاحتكاك بالصحون وتباطأ المضغ إلى أن انقطع صوته. لم يتحرك أحد منا. شرب بابا جرعة ماء، ثم تابع كلامه. «سيكون هذا أمراً حسناً كي نحصل على بعض المال الإضافي قبل أن أعود إلى المصنع».

مدت ماما يدها إلى المملحة وقالت، «نعم. أظن هذا».

سألته، «ألا أستطيع أن أذهب معك؟». كانت الإثارة تغلي داخلي غلياناً شديداً جعل الشوكة تسقط من يدي فطارت قطعة جزر عبر الطاولة وحطت في كأس الماء أمام ماي. التقطت ماي قطعة الجزر ورمتها صوبي.

«كفي عن هذا، يا ماي».

«وأنت يا جو، أنت لا تزال صغيراً جداً ... أمك في حاجة إليك هنا. سآخذ تشارلي معي هذه السنة».

لوح تشارلي بقبضته في الهواء وصاح، «نعم»، فنظرت إليه شزراً. كان بن يذهب دائماً، والآن تشارلي. بدأت أقلق من أن يصير بابا عجوزاً قبل أن تسنح لي فرصة الذهاب معه. غريب كم تظن والديك عجوزين عندما تكون طفلاً. كان بن في الرابعة عشرة فحسب، وماي في الثانية عشرة. بلغ تشارلي الحادية عشرة ذلك الخريف، وكنت قد بدأت سنتي السابعة قبل فترة وجيزة. يصير عمر روثي خمس سنين في شهر ديسمبر. مع هذا، كنت مقتنعاً بأن أبي وأمي صارا عجوزين عندما كانا، في حقيقة الأمر، أصغر مني الآن بعشرات السنين.

ابتسمت ماما لي عبر الطاولة. قالت، «لا تقلق، يا جو! سوف يأتي دورك. والآن، كف عن محاولتك أن تكبر بهذه السرعة!».

كانوا يقولون لي كل سنة إن دوري سيأتي؛ وكنت أصير أشد استياءً. تركت تلك المرارة تتنامى ثماني سنين متواصلة إلى أن جاء الخريف الذي بلغت فيه الخامسة عشرة. كنا قد عدنا من صيف آخر عشنا وعملنا خلاله على امتداد الطريق رقم 9. لا يزال السيد إليس مالك الأرض هناك. صار الآن أشد سمنة وما

عـاد لديـه مـن الشـعر مـا يسـتحق الذكـر؛ لكنـه ظـل كريهـاً مثـل ظربـان نافـق. شـيء اسـمه النقـرس كان يجعلـه يـلازم بيتـه زمنـاً أطـول ويمضـي فـي الحقـول زمنـاً أقـل. وحتـى عندمـا يظهـر، يظـل جالسـاً فـي شـاحنته الصغيـرة. ظللنـا نطـرح أسـئلة فـي فتـرات توقفنـا عـن العمـل، وظللنـا ننظـر فـي وجـه كل فتـاة نراهـا فـي المتجـر أو فـي السـيرك الـذي حـط رحالـه هنـاك فـي الصيـف. كنـا نبحـث عـن تلـك العينيـن البنيتيـن وذلـك الفـم المنقلـب وذلـك الفسـتان الـرث وتلـك النظـرة البعيـدة. كنـا نبحـث عـن وجـه أمنـا، عـن ذلـك التشـابه الذي لا يـزال مـادة لقصـص يتداولهـا الجالسـون مـن حـول نـار المخيـم. لكـن روثـي كانـت تـزداد غيابـاً كلمـا ذهبنـا إلـى ولايـة ميـن. يعـود قاطفـو التفـاح إلـى حقولنـا كل أكتوبـر، وينقشـع عـن مامـا، كلمـا وصلـوا، ذلـك الحـزن الـذي يبـدو أنـه يخيّـم عليهـا عندمـا نكـون فـي ميـن.

انقضـت بضعـة أيـام بعـد رحيـل قاطفـي التفـاح ولـم يبـق خلفهـم غيـر أرض سـوداء حيـث أوقـدوا نيرانهـم ... تذكـرة لنـا بالأوقـات الطيبـة والوجبـات المشـتركة، بالعمـل الشـاق، بـل حتـى بـأن طفـلاً قـد وُلـد ... وكنـا أنـا وبابـا خلـف البيـت. كنـا نقطـع أغصـان الصنوبـر كـي نضعهـا مـن حـول قاعـدة البيـت لـدرء ريـح الشـتاء البـاردة. أخـرج مـن جيبـه رسـالة وناولنـي إياهـا.

«هل تود الذهـاب هـذه السـنة؟»

فتحـت الرسـالة ورأيـت الطلـب مكتوبـاً بخـط شـديد الأناقـة فكـاد قلبـي يقفـز خـارج صـدري. الآن، لـدى تشـارلي عمـل بوقـت كامـل، عمـل فـي طلـي المنـازل. وبـن الـذي تـرك حقـول التـوت قبـل ثـلاث سـنين واسـتوقف سـيارة ذاهبـة إلـى بوسـطن حيـث ظـل مقيمـاً، كان

يقول لي دائماً إن أحسن أوقاته هي التي كان يمضيها مع بابا في الغابات.

«هذا عمل سهل، وهم يدفعون جيداً». صمت ومد يده فثنى غصناً صغيراً، ثم كسره ... «في ما مضى، عندما كنت في مثل سنك الآن، كان حصول الناس الذين مثلنا على عمل أمراً صعباً. لذا، كانت هذه الرحلات مهمة. كانت تضمن وجود طعام في الطبق».

غادرنا بعد يومين من ذلك؛ وكانت ماما واقفة عند أسفل المنحدر الذي أمام باب البيت تلوح لنا بإحدى يديها ويدها الأخرى فوق عينيها كي تحميهما من الشمس.

تأتي أواخر شهر أكتوبر معها بلذعة برد. ففي الصباحات، حتى داخل البيت قبل إشعال النار، تستطيع رؤية أنفاسك في الهواء. لكنه ليس ذلك البرد الرمادي الكئيب الذي يكون في شهر نوفمبر. أظن أن الأشجار المشتعلة كلها بألوان أوراقها الحمراء والبرتقالية هي ما يجعل لذعة البرد محتملة. شجراتي المفضلة كانت تلك التي تبدو كأنها مكتسية ذهباً عندما تصيبها أشعة الشمس بزاوية مناسبة. عند مرورنا بها، أنزلت زجاج النافذة وملت برأسي مضيقاً عيني لأرى إن كنت أستطيع جعل تلك الأشجار أشد توهجاً. سافرنا طيلة المسافة إلى آخر الطريق القديمة. كانت الطريق السريعة جديدة، لكنها بليدة. حقول ثم حقول، ولا يكاد المرء يصادف منعطفاً أو منحنى. وأما الطريق القديمة ففيها أشجار وبساتين وأكشاك للبيع إلى جانب الطريق نستطيع التوقف عندها لتناول السيدر أو لشرب كأس من الماء،

وجسـور قديمـة تهتـز وتصـر عندمـا نمـر فوقهـا، ومـيـاه جاريـة مـن تحتهـا. بلغنـا بيـت عمتـي لينـدي قبيـل وقـت العشـاء. كانـت عمتـي لينـدي شـقيقة بابـا الكبـرى، أكبـر منـه بأحـد عشـر شـهراً. وكانـت امـرأة بدينـة ... مـا مـن طريقـة أخـرى لقـول هـذا. كانـت تحتضنـي بقـوة شـديدة أحسـب معهـا أن تكورهـا قـد يبتلعنـي، لكنـي أنجـو، أنفاسـي متقطعـة لكنـي حـي. وكانـت أفضـل مـن يطهـو لحـم الغـزال. صحيـح أن بيتهـا صغيـر، لكنـه علـى الـدوام دافـئ ومريـح. كان لهـا زوج فـي يـوم مـن الأيـام، «رجـل أبيـض غيـر جيـد أبـداً» مثلمـا تدعـوه عندمـا تحتسـي «كشـتبان ويسـكي فحسـب». لكـن ذلـك الرجـل نهـض ذات يـوم وانصـرف. غسـل وجهـه، وانتعـل حـذاءه، وتركهـا مـع ثلاثـة أطفـال كـي تربيهـم وحدهـا. لسـت أدري إن كان قـد صـار «غيـر جيـد أبـداً» قبـل رحيلـه أم بعـده. مـا كانـت تـروي أيـة قصـص عمـا قبـل ... فقـط القصـص التـي تـروي كيـف رحـل ولـم يعـد. بعـد سـنة مـن رحيلـه، جمعـت عمتـي لينـدي كل مـا لديهـا مـن صـور لـه وصفّتهـا علـى أرض المرحـاض الخارجـي الملحـق ببيتهـا.

تقاسـمتُ مـع بابـا السـرير العريـض فـي غرفـة النـوم الإضافيـة الوحيـدة. كان اثنـان مـن أطفالهـا يعيشـان بعيـداً عنهـا؛ وكان الثالـث قـد قُتـل فـي حادثـة أثنـاء قطـع الأشـجار، وذلـك قبـل سـنتين مـن مولـدي. اسـتلقيت فـي الفـراش وأصغيـت إلـى حديثهمـا عبـر الجـدار المصنـوع مـن ألـواح خشـب الصنوبـر. هدهدنـي صـوت أحاديـث الكبـار فنمـت. وفـي صبـاح اليـوم التالـي، كان الاثنـان يشـكوان صداعـاً. شـربا قهوتهمـا مـن غيـر سـكر ولا حليـب ... قهـوة ثقيلـة أقسـم أن رائحتهـا جعلـت عينـاي تدمعـان. وعندمـا انطلقنـا فـي طريقنـا آخـر الأمـر،

كانت حقيبتانا محشوتين ببواقي الخبز المطاطي واللحم المدخن والتفاح. رأيت بابا يناولها بضعة دولارات. على الرغم من تراجعي البطيء عن الباب كي أتفاداها، ظللت ساعات بعد ذلك أحس دبق قبلة عمتي ليندي على جبيني.

بيت عمتي ليندي كان غير بعيد عن الدرب المؤدية إلى المخيم، درب ترابية قديمة مثلها مثل أية درب غيرها. انعطف أبي في تلك الدرب ثم توقف بعد نحو خمس دقائق. أوقف السيارة إلى جانب الدرب. نظرت من حولي فلم أر شيئاً.

«أين نحن؟»

«نحن عند بداية الطريق». تناول كيسه من صندوق السيارة وعلّق كمانه به. أخذت حقيبتي الظهرية ورفعت رأسي ناظراً إلى الأشجار، أشجار ساكنة صامتة في هدأة الصباح. اجتاز أبي خندقاً صغيراً وباعد بين الأعشاب الطويلة. لحقت به. رطوبة صقيع الصباح الباكر باردة على يدي.

سألته، «أتوجد طريق هنا؟»

«إن كنت تعرف كيف تعثر عليها. علينا أن ندوس هذه الأعشاب بأقدامنا قبل وصولهم».

سرنا قدماً نحو عشرين دقيقة أخرى نباعد بين الأعشاب وندوسها كي نسوّيها بالأرض، ثم وصلنا إلى ممر ترابي ضيق تماماً عند جدار من الأشجار.

«أرأيت؟ هذه هي الطريق». غمز لي بابا بعينه، ثم استدرنا وعدنا أدراجنا إلى حيث كنا كي ننتظر وصول الأميركيين. «سرت في هذه الطريق مرات لا أستطيع إحصاءها عدداً. كان مكان

المخيم لجدك. وأنا أستطيع دائماً أن أعثر عليه».

عندما عدت إلى البيت آخر مرة بعد أن فعل السيد إليس الجديد ما فعله، حاولت مع بن أن نعثر على تلك الطريق وأن نجد سبيلنا إلى كوخ بابا. كان زمن طويل قد مر، وكانت الدرب الترابية الضيقة قد اختفت تحت أعشاب جديدة. لا بد أننا توقفنا عندها أكثر من عشر مرات مقتنعين بأننا في المكان الصحيح. إلا أننا لم نستطع العثور عليها فانصرفنا بقلبين كسيرين.

وفي طريق عودتنا، مررنا ببيت عمتنا ليندي المهجور منذ زمن طويل، المتروك للطبيعة. كان سقف البيت شبه منهار والنوافذ متكسرة. شظايا من زجاج بارزة من إطارات النوافذ المهترئة. الأعشاب والنباتات الضارة مستولية على الحديقة، لكن كرمة جميلة نمت ملتفة على تلك الأنقاض فأسعدتني رؤيتها.

عندما وصل الأميركيون آخر الأمر، كانوا ثلاثة أشخاص أوصلهم رجل قبيح اسمه هاريس زعم أنه منسق الرحلة. بعد استلامه دولارات أميركية، انطلق بسيارته وسط غيمة من غبار واعداً بأن يعود في اليوم التالي عند غروب الشمس كي يأخذهم. صافح الثلاثة أبي وألقوا علي نظرات جانبية. كلمهم أبي بلغة ميكماو متظاهراً بأن لغته الإنجليزية ضعيفة إذ كان يستخدم كلمات مفردة كي يفهمهم ما يريد من غير أن يصوغ جملة كاملة. درب، غزال، طين، وقت الليل، طعام، ويسكي. كان قد قال لي أن ألزم الصمت إذ رأى أن الكلمات القليلة التي أعرفها من لغة ميكماو لا تتجاوز عشر كلمات، تلك الكلمات التي تعلمتها من ماي. كان قول تلك الكلمات، حتى إن قلتها همساً، يعني عادة

أن يصيب أمي صداع لسماعها. لم تكن كلمات مسيحية ... هذا مؤكد.

«يعطونك مالاً أكثر إذا تكلمت بهذه اللغة في الغابات. لا ضرورة لأن يكون لما تقوله أي معنى. ما عليك إلا أن تقول بضع كلمات معاً». همس لي بهذا عندما كنا بعدين عن مرمى أسماعهم.

هذا شيء يصعب علي تقبله ... أبي يجعل نفسه صغيراً أمامهم!

«يصير الإنسان شخصاً غير ذاته إن كان لديه من هم معتمدون عليه». قالت لي ماي هذا في واحد من الصباحات عندما كنت جالساً عند بقية جذع شجرتي كي أرقب شروق الشمس. هذه المرة، ظلت معي في الخارج وكنا نتكلم عن تلك الأيام التي عشناها قبل أن نعلم أي شيء عن هذا العالم. «كنت تأكل طعامك، أليس كذلك؟ وكنت تذهب إلى المدرسة، أليس كذلك؟ لا أعني أنك استفدت شيئاً من دراستك، لكن كان عليك أن تذهب. وكان لديك بيت دافئ تعود إليه في الشتاء».

جلست صامتاً وبخار يتصاعد من فنجان الشاي وبطانية قديمة ملفوفة من حول ساقي الضامرتين. قلت لها، «أظنك محقة».

«لا تظنني محقة. اعلم أنني محقة». تناولت رشفة من فنجانها طوقت يدها بذراعها الأخرى كي تحفظ الدفء.

«وأنت لا يحق لك أن تتكلم، يا جو. لقد هجرت أسرتك، إن كنت تتذكر هذا. لم يفعل أبي شيئاً غير خداع بضعة أغبياء حتى نستطيع أن نأكل».

سرنا بأولئك الأميركيين. سرنا بهم أنا وأبي في تلك الطريق وعبر تلك الغابات طيلة الجزء الأكبر من النهار فلم نر شيئاً غير أرانب وبضع أفاعٍ عادية وشيهماً، لكنا حرصنا على عدم الاقتراب منه. كانت الشمس قد بدأت تميل صوب الغرب عندما توقف أبي كي يشير لهم إلى غزال. رفع الرجال البيض بنادقهم لكنهم لم يتسن لهم إطلاق النار. الغزلان جفولة، وأولئك الرجال يتكلمون كثيراً. كان أبي يذكرهم دائماً بأن يلزموا الصمت، يلتف صوبهم ويرفع إصبعه إلى شفتيه. ثم إنهم كانوا انتقائيين. رأينا غزالة حلوة كبيرة الحجم، لكنهم أرادوا وعولاً.

وصلنا إلى الكوخ ... غرفة واحدة فيها مدفأة حطب عتيقة وبضعة أسرّة ضيقة، وكان وصولنا مع بدء ظهور النجوم الأولى في السماء. أربعة أسرة قريبة من النار وواحد عند الجدار الآخر وملاءة معلقة يمكن سحبها مثل ستارة من أجل الخصوصية. كان جدي لأبي قد بنى الكوخ، ثم أورثه إياه. مات منذ عهد بعيد. لم أعرفه أبداً، لكنه حفر على جدران الكوخ رسوماً خلال الشتاءات الطويلة عندما يأتي ويظل هنا بضعة أسابيع في المرة الواحدة كي يصطاد الغزلان ويوقع بالأرانب. في ليلتي الأولى في ذلك الكوخ، رقدت على الفراش الضيق الذي تقاسمته مع أبي ورحت أتتبع الخطوط الخشنة في تلك الرسوم ... قندس وأشجار والكوخ نفسه وألسنة لهب منبعثة من لا شيء. نجم منقوش من غير مهارة جعلني أفكر في تلك المرة الأخيرة عندما استلقيت مع روثي على بطانية ورحنا نتتبع حركة النجوم البطيئة في سماء ولاية مين.

كنت قادراً على سماع الرجال بكل وضوح. الملاءة لم تحجب

أصواتهم عني. لكني لم أكن ملقياً بالاً إلى ما يقولون. جلس بابا في الزاوية يبري قطعة خشب ويزوّد النار بالحطب. صب لهم أيضاً بعضاً من الويسكي بيتي الصنع الذي أتى به معه وكان يتقاضى منهم ثمن كل كأس يصبها. كان يجعلهم يدفعون الثمن قبل أن يصب الكأس. يصب لهم مزيداً كلما ازدادوا سكراً. ظل طيلة الليل يرشف الكأس نفسها ويضيف إليها قليلاً من الماء بعد كل بضع رشفات. وعندما رآهم يفكرون في الذهاب إلى النوم، أخرج كمانه وعزف لهم لحناً فجعلهم ذلك يشربون ثلاث كؤوس أخرى، أو أربع كؤوس.

«أحذية جديدة لكم، يا أطفال». قال هذا وهو يحصي الأوراق النقدية الأميركية بعد أن نام الرجال.

وفي صباح اليوم التالي، بعد ساعتين أو ثلاث ساعات من نومهم، أيقظهم بابا وأعد لهم القهوة والبيكون المقلي على الموقد العتيق. جعلني أجلب الماء من البحيرة كي يستطيعوا أن يغسلوا وجوههم. كان الصباح نضراً، وكان أمراً لطيفاً أن أضع يدي في ذلك الماء الذي بلون القصدير. أحسست أنني صرت جديداً. غسلت وجهي وتحت إبطي مثلما علمتني أمي، ثم حملت زجاجتي الماء وعدت بهما إلى الكوخ. أعطيتهم الماء وأعطيتهم الأسبرين من أجل صداعهم. كان الهواء في الكوخ عابقاً برائحة دهن البيكون وبرائحة رجال كثيرين محصورين في مكان واحد. خرجنا من جديد بعد أن بدأ الأسبرين يؤدي مهمته وبعد أن صار طعام الإفطار في بطونهم.

وبعد الظهيرة، اصطادوا ذكر وعل. كانت تلك أول تجربة لي مع الهدر. أراد الرجال أن يقطعوا رأس الوعل ويرموا بقيته. لكن بابا احتفظ بالجسد وأخذه إلى عمتي ليندي التي قطّعته كي يصير طعاماً. تعلمت ذلك اليوم كيف أحمل الكاميرا. لم تكن لدينا كاميرا، لكن واحدة من شقيقات ماما كانت لديها كاميرا. هكذا صارت لدينا صور لنا. عند ماما صورة لنا جميعاً، روثي واقفة إلى جانبي مضيقة عينيها في وجه الشمس. إنها الصورة الوحيدة التي تضمنا نحن السبعة جميعاً، كلنا في مكان واحد، وهي معلقة وسط جدار لا تشاركها إياه أية صورة غيرها. كانت الكاميرا أثقل وزناً مما ظننت وكنت أرتعش خائفاً أن أسقطها. اتخذ الرجال مواقعهم من أجل الصورة وجثوا عند الحيوان القتيل، كل منهم ممسكاً به من قرونه. أرادوا أن يظهر بابا معهم في الصورة فوقف خلفهم، شفتاه رقيقتان مستقيمتان ووجهه جاد وذراعاه معقودتان على صدره ... وقفة على النمط الهندي القديم. ضغطت على المفتاح فأصدر صوت تكتة أخافني. حسبت أنني كسرت الكاميرا. سقطت من يدي واصطدمت بالأرض. هجم علي واحد من الرجال.

«أنت، أيها الخراء الأسمر الصغير ... من الخير لك أن لا تكون قد حطمتها». صار بابا بيني وبين الرجل قبل أن يتسنى له الإمساك بي. التقط الكاميرا عن الأرض وأعادها إليه.

قال له بإنجليزيته المكسرة المزعومة، «إنها جيدة، وإنها جيدة». وقد كانت كذلك. لم يصب الكاميرا أذى. التقطوا بضع

صور أخرى لكن من غير أن يكون بابا واقفاً في الخلفية ومن غير أن يسمحوا لي بحمل تلك الآلة التي تسببت في مشكلة.

«أنت من قام بكل شيء ... فلماذا هم سعداء هكذا؟ هم لم يفعلوا شيئاً». همست له بهذا وأنا أقتلع واحدة من سوق العشب الطويلة وأضعها بين أسناني مستمتعاً بنكهتها الحلوة.

«يا جو، في هذا العالم أمور أهم من أن يُنسب الفضل إليك».

كانت رحلة العودة في اليوم التالي هادئة. لست أدري كيف بدت لي أوراق الأشجار أقل تألقاً وكيف بدت لي الطريق طويلة، أقل إثارة. وعندما دخلنا الممر الذي أمام البيت، لا أظن أن السيارة كانت قد توقفت تماماً قبل أن أخرج منها وأجري داخلاً باب البيت وأصفقه من خلفي. طوقت أمي بذراعي. كان على ماي أن تبعدني عنها.

«جو، يا إلهي! لم تغب إلا ثلاثة أيام. لا تكن طفلاً صغيراً هكذا!». كانت ماي قد أمسكتني من ذراعي وجرتني إلى المغسلة كي أغتسل جيداً. لا يصدق المرء أنني كنت في الخامسة عشرة من العمر عندما يرى كم يعتنون بي. وأكون كاذباً لو قلت إن هذا كان يزعجني. كانت ماي تسخن الماء عندما دخل أبي حاملاً لحم الغزال في أكياس كي يضعه في الفريزر الذي في القبو. لا أعرف أسرة هندية غيرنا لديها قبو؛ ولا أعرف أسرة غيرنا لديها فريزر لحفظ الطعام. كان السيد إليس قد أعطانا فريزراً قديماً قائلاً إنه لا يعمل، لكن بابا أتى به إلى البيت وعبث به إلى أن صار يعمل. وضعه في القبو؛ ووضع تحته قاعدة خشبية لأن قبو بيتنا يفيض ماء كلما أمطرت.

قبّل بابا خد ماما. «مرحباً، يا حبيبتي. وقبل أن تسأليني ... كان جو جيداً جداً». توقف ووضع في يدي دولاراً قبل أن ينزل السلم إلى القبو المظلم الفائح برائحة عفونة.

قالت ماي تعابثني، «حقاً ... انظر كيف أنت!»، وطبعت ماما قبلة على قمة رأسي. لا يزال ذلك الدولار في محفظتي المستقرة الآن على الطاولة الصغيرة إلى جانب السرير مع الدواء وكؤوس من ماء دافئ. بعض الأيام، عندما لا يأتي أحد زائراً، أرقب الفقاعات الصغيرة التي تظهر في الكأس عندما يصير الماء البارد دافئاً. أرقب كيف تنفك تلك الفقاعات عن قعر الكأس كي أرى أيها تبلغ السطح قبل غيرها ... زجاجات الدواء البنية تلوح في الخلفية.

مر ذلك الشتاء بطيئاً هادئاً بعد رحلتي الأولى إلى الغابات مع بابا. كانت تأتينا رسائل من أقاربنا فتقرأها أمي بصوت عالٍ قبل أن تشد الورقة إلى صدرها. تبكي أحياناً، وأحياناً لا تبكي. بعض تلك الرسائل كان يحظى بوضعه بين صفحات الإنجيل. وإذا أتت رسالة متميزة، تعد لنا أمي تفاحاً مشوياً مع الزبدة والقرفة. ثم أتى الربيع فأمضينا الوقت في الزراعة، لكننا لم نزرع شيئاً غير خضار وفاكهة تنضج قبل ذهابنا إلى مين. وعلى نحوٍ خاص، كنا نزرع الملفوف والفاصولياء الطويلة والفراولة فتُغلى كلها وتحفظ في القبو من أجل الشتاء. خاب أمل ماما عندما أتت من المدرسة رسالة تقول لها إنني لست جاهزاً للالتحاق بالصف الدراسي التالي. لم أكن يوماً طالباً مجتهداً لأنني أفضل النظر من النافذة على الانتباه إلى ما يقال في غرفة الصف. كنت شديد الانجراف

مع مخيلتي إلى حد جعل المدير يضربني بالحزام ذات يوم لأنني «مُنشغل» ... مهما يكن معنى ذلك. لم أخبر ماما ولا بابا. كان لا بد لي من إخفاء راحتي يدي المتقرحتين أسبوعاً كاملاً ثم أكذب بعد ذلك قائلاً إنني شددت حبلاً بقوة زائدة فجرح يدي. اتضح أن تلك كانت سنتي الأخيرة في المدرسة. تركتها عند منتصف السنة التي تلت ذلك. كانت قراءتي جيدة بالقدر الكافي لإنهاء كتاب لويز لامور، وكنت أجمع الأعداد وأطرحها على الورق وأعرف كيف أوقّع باسمي. لم أر أي معنى في تعلم ما هو أكثر من ذلك؛ ولم أندم أبداً على ترك المدرسة.

لكن أمي ظلت طيلة الربيع قلقة نتيجة ما جرى وجعلتني آخذ معي إلى ولاية مين دروساً إضافية في الرياضيات والقراءة. وقبل رحيلنا، كنت أبحث عن مكانٍ مناسب أخبئ فيه تلك الدروس عندما وقعت عيني على حذاء روثي القديم. لا يزال جلد الحذاء طرياً، لكن الغبار يكسوه. كان رباط الحذاء محلولاً. رفعته عن الرف وحملته قريباً من وجهي. رمقتني عينا الدمية المدورتان بنظرة حزينة في النور الخافت. انطلقنا بعد يومين بعد إغلاق البيت جيداً، وكانت فاكهة أوائل الصيف محفوظة في القبو، ومعها الخضار. الصبيان في صندوق الشاحنة وماما وماي محشورتان داخل القمرة. أتى معنا تشارلي تلك السنة وقال إنها ستكون سنته الأخيرة. كانت لديه خطة لاحتمال أن يبدأ عمله الخاص في طلاء المنازل، وقال إن من المحتمل أن أعمل معه. لم أتخيل أبداً أنه سيكون آخر صيف لنا في مين.

- 4 -

نورما

حتى بعد أن كبرت وبدأت أشق طريقي في العالم، ظلت أمي تحاول إبقائي قريبة منها، ظلت تشدني إليها بتلك السلسلة الخفية التي تعيدني إلى فضائها كلما حاولت أن أُشغل فضاءً خاصاً بي. كنت أحب أبي وأعلم أنه يحبني، لكن حبه كان مختلفاً. صحيح أن فيه بعداً، لكن فيه خفة أيضاً. لم أشعر يوماً أن حبه كان عبئاً عليّ.

قال لي وهو يدعك جبهته بإبهامه وسبابته، «أمك ... أمك عصبية». كان جالساً على كرسيه في غرفة المعيشة، كتابه مغلق على حجره وفيه منديل، علامة على الموضع الذي بلغه في القراءة. وإلى جانبه كأس ويسكي من غير إضافات. جلست على كنبة مقابله، مرفقاي على ركبتي. «تذكري أن ما أصابها كان جسيماً. مات والداها وهي صغيرة، ورباها جداها. لم يكونا قاسيين عليها، لكنهما لم يكونا محبين، يا نورما. لم تحظ بهذا الحب الذي تهبك إياه». انحنى ووضع يده على ركبتي.

توفي جدي وجدتي في حادثة سيارة عندما كانت أمي في الثالثة وكانت خالتي جون في السادسة. لا تأتي أمي على ذكرهما، ولم أر أية صورة لهما. قالت لي خالتي جون إن جدتهما كانت تذكرهما مرات كثيرة بأنها، مع زوجها، قد ربت أطفالها من قبل وبأن أمي وخالتي جون تستطيعان أن تناما تحت سقف بيتها

وأن تـأكلا علـى طاولتها لكـن مـن غيـر أن تتوقعـا مـا هـو أكثـر مـن ذلـك. تعلمتـا فـي وقـت مبكـر كيـف تعتنيـان بنفسـيهما وكيـف تعتمـد كل منهمـا علـى الأخـرى.

«... وأيضاً... تلك الإجهاضات كلها. كان هذا كثيراً عليها».

عشـت طفولتـي كلهـا فـي ظل أشـباح الأجنّـة الذيـن ماتـوا. سـكنتْ ذكراهـم أمـي فحملتْهـم معهـا فـي كل مـكان. تتعثـر دائمـاً بغيابهـم وتلومنـي علـى السـقوط.

«كانـت بهـا رغبـة شـديدة فـي الأطفـال، يـا نورمـا، وأرادت أن تمـلأ البيـت أطفـالاً. كان حزنهـا يـزداد مـع كل واحـد منهـم. ثـم أتيـت أنـتِ فأعـدتِ إلـى عينيهـا قليـلاً مـن الضيـاء. لكنـي أفكـر أحيانـاً فـي أن الحـزن قـد حفـر فيهـا عميقـاً، فـي أن بعضـاً منـه قـد لا يـزول أبـداً». اسـتند إلـى ظهـر كرسـيه وامتـدت يـده كـي تـدرك الكتـاب الـذي بـدأ ينـزلـق مـن حجـره.

«أمـي تبالـغ فـي القلق كثيـراً. أريـد أن أذهـب إلـى المخيم. مسـافة سـاعة واحـدة. ليلتـان فقـط». لـم أبتعـد عـن البيـت أبـداً حتـى الآن، وجانيـت سـوف تذهـب أيضـاً ... «إنـه مخيـم الكنيسـة، يـا بابـا. فمـا الـذي تظـن أنـه سـيحدث؟». كانـت أمـي قـد ذهبـت كـي تسـتلقي قائلـة إن بهـا صداعـاً لأننـي جاحـدة. لهـذا، كنـت أكلمـه همسـاً.

«سـأحاول إقناعهـا». وضـع نظارتـه علـى أنفـه وحمـل كتابـه. ظللـت دقيقـة جالسـة هنـاك أنظـر إليـه إلـى أن رفـع رأسـه عـن الكتـاب وأشـار إلـى البـاب. «الآن، اذهبـي وضيعـي واتركينـي مـع كتابـي».

«لا أسـتطيع أن أضيـع حتـى إن حاولـت. لـن أتمكـن مـن مغـادرة البيـت».

ابتسم لي ابتسامة تعاطف فعدت إلى غرفتي. مررت بصورة لأمي وخالتي جون معلقة عند باب غرفتي. طيلة حياتي، كانت هذه الصورة معلقة وسط الجدار، غارقة في الظل في الممر. كانت صورة بالأبيض والأسود فيها فتاتان واقفتان على درجات كنيسة، قبعتاهما على رأسيهما وأيديهما إلى جانبيهما، وابتسامتان عريضتان متشاقيتان.

كانت هذه واحدة من الصور النادرة الموجودة في بيتنا، ولم أفكر يوماً في غرابة قلة ما لدينا من صور إلى أن ذهبت إلى بيت جانيت لحضور حفلة عيد ميلاد. أتت أمي، بالطبع، وعرضت أن تساعد الأبوين اللذين يستضيفان الأطفال. لكن الأمر انتهى بها إلى أن تجلس على الأريكة وفنجان شاي في يدها. لم ترفع عينيها عني أبداً. فقط في المدرسة، أو في الحمام، لم تكن أمي تحوّم فوقي؛ وأنا واثقة من أن عينيها كانتا ستظلان تراقبانني هناك أيضاً لو كان هذا ممكناً أو لائقاً. كانت الجدران والرفوف في بيت جانيت ممتلئة صوراً لأطفال من كل الأعمار، صوراً لأجداد وجدات وأعراس. صور الكاميرا الفورية كانت ملصقة على البراد. برادنا ليس عليه شيء غير قائمة التسوق ومغناطيس له مشبك تستخدمه أمي لتذكيرها بتسديد الفواتير. تأتي الفواتير بالبريد فتضعها على البراد كي تتذكرها عندما تذهب إلى المدينة فتسددها ثم تحفظ الفواتير نفسها في خزانة في القبو. وفي غرفة معيشتنا، فوق الأريكة، صورة لزفافهما معلقة على الجدار وصورتان لي. في الصورة الأولى، كنت في الرابعة أو في الخامسة وبدوت مذعورة في فستان مصنوع من التافتا ...

التجهم الظاهر في وجهي «جميل جداً» بحسب رأي خالتي جون. وكانت الصورة الثانية تُستبدل كل سبتمبر بعد رحلة إلى المصور الذي في المدينة. كنت أرسم على وجهي ابتسامة قسرية وأرتدي الملابس المشتراة من أجل هذه المناسبة. خلفية زائفة من أوراق خريفية. تُرفع صورة السنة السابقة وتحفظ في الخزانة نفسها في القبو. توقفت عند مروري بصورة الفتاتين الباسمتين؛ ولأول مرة، عجبت لما جعل هذه الصورة تحديداً تنجو من الحريق.

«ألم تكن لدينا صور كثيرة؟». كنا جالسين إلى طاولة العشاء وكنت أدفع في صحني، شاردة الذهن، قطعة من البروكولي المطهو على البخار.

توقف أبي عن قطع شريحة اللحم. «صور ماذا؟»

«صورنا. الصور العائلية. لماذا ليس لدينا مزيد منها؟»

شربت أمي جرعة ماء من كأسها ونظرت إلى أبي، «لدينا كل ما يلزمنا من صور».

«لا أعلم السبب، لكنني أتذكر أنه كان لدينا مزيد منها». أدخلت شوكتي في قطعة البروكلي ورفعتها إلى أنفي.

«كفي عن تشمم طعامك، وكليه!». أعلم أن تشمم الطعام سلوك سيء. وضعت أمي كأسها على الطاولة وتابعت تقول، «لديك خيال خصب. تعلمين أننا فقدنا كل شيء تقريباً في ذلك الحريق. لم أستطع إنقاذ شيء غير صور زفافنا». وضعت سكينها وشوكتها على الطاولة ومسحت فمها بزاوية منديل ... «كان عمرك أربع سنين فقط. لا تستطيعين تذكر هذا».

سألتها، «وماذا عن صورتك مع خالتي جون؟».

أتتني إجابتها سريعاً، «هذه نسخة صنعتها خالتك من أجلي بعد الحريق.

رفعت كتفي وعدت إلى تناول الطعام. «لا بأس!». وضعت قطعة البروكلي في فمي وابتلعتها بمساعدة جرعة ماء.

لم أكن قد نسيت ذلك الحديث عندما سمحوا لي بالذهاب إلى مخيم الكنيسة بعد أسبوع. لم يقع لي في المخيم أي أمر مخيف على الرغم مما كانت أمي تتخيله. لا رجال أشراراً مختبئين خلف الأشجار، ولا تيارات في البحيرة مستعدة لإغراقي ولا جروف أسقط منها. أمضيت ثلاثة أيام بأسرها بعيداً عن البيت أنام على سرير ضيق وأقود قارباً صغيراً على امتداد شاطئ البحيرة. أوراق الأشجار التي حال لونها في الخريف منعكسة على صفحة الماء. ننشد التراتيل عند النار في الليل، ونُغني. نأكل المارشميلو المشوي. لذيذٌ كان تذوقي طعم الحرية أول مرة. كان مقدراً لي مزيد من الحرية، لكني لم أفهم كيف أتتني تلك الحرية إلا بعد سنين من ذلك.

الأقدار مخادعة. تحب أن تضع لنا علامات كثيرة كي ترى إن كنا نستطيع ترتيبها ترتيباً صحيحاً وإن كنا نستطيع فهم الأشياء التي لم نفكر أصلاً في فهمها. قدمتّ إلي الأقدار علامة جريئة، علامة صارت الآن شديدة الوضوح لي لأنني أعلم الحقيقة، لكني تجاهلت تلك العلامة وقتها، تجاهلتها من أجل حريتي ومن أجل دراجة جديدة. كنت في المدرسة المتوسطة أعمل على مشروع مدرسي عن جهاز الدوران في الجسم فلزمتني أقلام رصاص زرقاء وحمراء وأوراق بيضاء كي أرسم عليها. كانت أمي محتفظة

في القبو بمستلزمات هواياتها. الرفوف هناك غاصة بأوراق ونباتات مجففة، وأراق ملونة، وخيوط ولباد. وكنت أبحث في القبو عندما رأيت الخزانة التي تضع فيها الفواتير. كانت خزانة رمادية باردة ترك عليها الزمن آثاره وترك فوقها طبقة غبار كثيفة. لم يقل لي أحد إن علي ألا أقترب منها ... كان أمراً مفهوماً أنني لن يلزمني أي شيء مما هو فيها. لكن ثمة ما جعلني، بعد ظهر يوم الأحد، أفتحها وأنظر فيها. كانت محتويات الدرج الأول مثلما قيل لي من قبل. درج كله فواتير كهرباء قديمة وفواتير ضرائب الملكية واستمارات ضريبة الدخل مرتبة في مصنفات أنيقة عليها علامات ملونة تشير إلى السنوات والشهور. لكن الدرج السفلي كان مختلفاً. توقعت أن أجد فيه مزيداً من الفواتير، من وثائق لا أهمية لها في نظر فتاة في الرابعة عشرة. لكني فوجئت عندما وجدت الدرج ممتلئاً صوراً موضوعة فيه كيفما اتفق ... شيئاً يكاد يكون عصياناً لأمي ولحرصها على أن يكون كل شيء مرتباً.

رحت أستعرض صور الوجوه المألوفة، وإن تكن أصغر سناً، وأقلبها كي أقرأ التواريخ والأسماء المكتوبة على ظهورها. كانت أمي قد كتبت معلومات كل صورة بخطها الأنيق الذي أعرفه جيداً. وجدت صوراً لأمي ولخالتي جون، وصوراً لأبي يبدو فيها أصغر سناً وتبدو غضون جبهته أقل. السواد في شعره أكثر من البياض. صورة جميلة رأيت فيها ثلاثتهم جالسين إلى طاولة الطعام في نزهة وأشجار صنوبر عالية يلوح من بينها المحيط بعيداً في الخلفية. قلبت الصورة وقرأت الكتابة على ظهرها: «جون ولينور وفرانك، يوليو 1960». كان عمري سنتين! لكني غير موجودة في

الصـورة. مـا مـن لعبـة أو دميـة ومـا مـن شـيء يشـير إلـى وجـود طفلـة صغيـرة. وكانـت هنـاك صـور أخـرى. صـور لأمـي وأبـي فـي حفل زفـاف، وصـورة لخالتـي جـون مـع أليـس، ذراعاهمـا متشـابكتان، ويـد كل منهمـا علـى خصرهـا، ضاحكتـان فـي مواجهـة الكاميـرا. صـور حفـلات، وصـور علـى الشـاطئ، وصـور الشـواء وقداديـس فـي الكنيسـة. بعـض تلـك الصـور ملتقـط قبـل ولادتـي، وأمـا فـي بقيـة الصـور فأنـا غائبـة مـع أننـي ينبغـي أن أكـون موجـودة فيهـا.

«نورمـا ... اصعـدي وسـاعديني لحظـة. مـاذا تفعليـن هنـاك؟ القبـو رطـب. سـوف يصيبـك زكام».

أخذت صـورة أسـرتي عنـد المحيـط ودسسـتها فـي جيبـي الخلفي قبـل أن أغلـق الـدرج وأجـذب خيـط المصبـاح كـي أطفئـه ويعـود القبـو إلـى ظلمتـه. ارتعشـت عندمـا بلغـت أعلـى السـلم. أفسـح هـواء القبـو البـارد الرطـب مكانـاً للإحسـاس براحـة الغرفـة التـي أدفأتهـا الشـمس. حزمـة ضـوء صفـراء مـن نافـذة صغيـرة رسـمت طريقـاً مـن أعلـى سـلم القبـو حتـى المطبـخ. وفـي آخـر تلـك الطـريق التـي أنارتهـا الشـمس، كانـت أمـي واقفـة وبقايـا نباتيـة متناثـرة مـن حولهـا.

«سـاعديني فـي هـذه». مـدت لـي حزمـة مـن غصينـات البلـوط القـزم الـذي ينمـو فـي الخنـادق والحقـول مثلمـا تنمـو الأعشـاب. كانـت الغصينـات البنيـة المخضـرة مرصعـة بحبـات حمـراء قاسـية، وكانـت مقطوعـة عنـد أسـفلها قطعـاً متقنـاً مـن أجـل حفظهـا. تجمـع أمـي هـذه الغصينـات مـن أجـل تزييـن الكنيسـة يـوم عيـد الميـلاد. مجـرد إقدامهـا علـى جمعهـا كان انحرافـاً كبيـراً عـن أمـي التـي أعرفهـا. شـال ملفـوف حـول شـعرها ذي الطيـات المتقنـة، وقفـازا

بستتة كبيران كثيراً على يديها. تخوض أمي في ماء الخندق بين الأعشاب الطويلة بالحذاء الذي يستخدمه أبي عندما يجرف الثلج من الممر أمام البيت في فصل الشتاء. رؤيتي إياها واقفة عند الطاولة، وبقع وردية على وجنتيها من برد شهر أكتوبر ... لم أستطع إلا أن أحس حباً عميقاً لها.

كانت تحاول ربط تلك الغصينات في حزم مستخدمة خيطاً ثخيناً. أخرجت الصورة من جيبي ووضعتها على الطاولة. «أمي ... أنا لست موجودة في هذه الصورة. لماذا؟»

توقفتْ، ووضعت المقص من يدها، وحملت الصورة. حملتها كأنها موشكة أن تشتعل ناراً. نظرتُ إليها فرأيت قطيرات عرق تظهر على شفتها العليا. استنشقتْ نفساً عميقاً كأنها تهم بالكلام، ثم لم تقل شيئاً. انتظرتُ صامتة وحملت المقص فقصصت الخيط الذي كانت تريد قصه. لففته حول الغصينات وربطت نهايتيه في عقدة محكمة وأنا لا أزال منتظرة.

«أحس أن نوبة صداع ستهاجمني. وأظن أن علي الآن أن أذهب وأستلقي. سوف أعود لإنهاء هذا بعد قليل». نزعت الشال المزهر الذي كان على رأسها ووضعته على الطاولة قبل أن تتركني مع تلك الغابة الصغيرة. «الغداء في البراد. من فضلك، يا نورما، ضعيه في الفرن على درجة حرارة 350 مدة ساعة واحدة. ضعيه في الفرن عند الساعة الرابعة. سنأكل عند الخامسة». قالت هذا قبل أن تختفي خلف الزاوية وتسير ذاهبة في الممر آخذة الصورة معها.

لم أر تلك الصورة بعد ذلك. لم أرها قط. كنت أفكر فيها أحياناً وأعجب مما قد يكون مزعجاً إلى هذا الحد في صورة تؤدي إلى نوبة صداع. تلك الأمسية، ارتخت السلسلة الخفية التي تقيدني إلى البيت، ثم ازداد ارتخاؤها عندما سمح لي أبي بأن أذهب إلى بيت جانيت وأنام عندها.

فاجأني أبي مرة أخرى عندما عدت إلى البيت صباح اليوم التالي. فاجأني بأن أهداني دراجة جديدة. كانت دراجة حمراء اللون لها شراريب حمراء منبثقة من قبضتي مقودها. وددت القول له إنني كبرت على تلك الشراريب، لكني خشيت إيذاء مشاعره فاحتفظت بها. كانت تلك الخيوط البلاستيكية الطويلة الملونة بألوان قوس قزح تخفق في الريح. كان مقعد الدراجة طويلاً مقوّساً، وكان فائحاً برائحة الشحم والمطاط الجديد. طرت فرحاً عندما صار مسموحاً لي أن أقود الدراجة حتى ملعب البيسبول.

قلت، «أمر غريب جداً». كنت أستخدم الهاتف الذي في المطبخ خلسة عندما تخرج أمي للتسوق ويكون أبي في الحديقة منشغلاً بجمع أوراق الأشجار في أكوام صغيرة.

همست أليس تجيبني، «ما الأمر الغريب؟»

«مجرد كوني قادرة على فعل هذه الأشياء. أجلس على دراجتي وألتفت ناظرة إلى البيت وأحس، لحظة واحدة، أن علي أن أعود إلى الداخل».

«لماذا تريدين العودة إلى داخل البيت إن كانوا قد سمحوا لك بالخروج؟»

سمعت كيف تناولت أليس رشفة شاي. لففت سلك الهاتف على إصبعي الصغير وذهبت كي أتأكد من أن أمي لم تعد بعد. «هي غير راغبة في فعل هذا. لا تريد أن تتركني. أعرف هذا. وهو لا يسرني». مكتبة سُر مَن قرأ

«نورما ... كدت تبلغين الخامسة عشرة. حان الوقت لأن تبدأي التفكير من أجل نفسك، لأن تبدأي فعل الأشياء من أجل نفسك».

«ولكن ... صداعها ...»

«إنه صداعها، لا صداعك أنت. لستِ سبب ذلك الصداع. هي سببه. تذكري هذا».

تعرف أليس دائماً كيف تجعلني أفهم الأمور. مع هذا، وبصرف النظر عن كلماتها الحكيمة، عاد إلي إحساسي بعبء صداع أمي لحظة انتهت المكالمة. كان في ذلك البيت حب، لكن أحداً منا لم يعرف حقاً ما يفعله به.

لم أهنأ بدراجتي الجديدة إلا بضعة أسابيع قبل أن يأتي الشتاء فأرغمها الثلج المنهمر على الذهاب إلى المستودع وأعادني حبيسة من جديد. ومع تعطل المغامرات بفعل العواصف الثلجية ودرجات الحرارة التي انخفضت تحت حد التجمد، تذكرت الدرج الذي في خزانة القبو وتذكرت ما فيه من صور فذهبت باحثة من جديد. كان الثلج يتساقط جانبياً ذلك اليوم. تصلّب على الطرقات وسطوح البيوت وعلى أي شيء لا يتحرك. تم إلغاء الدروس في المدرسة فحاولت أن أعود إلى النوم، لكن النوم ما كان مراداً له أن يأتيني. وكانت أمي مستيقظة منذ ذلك الوقت منشغلة بعيداً عني بشيء من الأشياء التي عادةً ما تنشغل بها بعيداً عني.

صوت عقبي حذائها قاسٍ على أرضية البيت الخشبية؛ ولا شك عندي في أن زفراتها كانت مسموعة حتى البيوت القريبة. لذا، نهضت من فراشي وارتديت ملابسي متخلية عن النوم الذي سُرق مني وعن دفء الفراش وراحته. ظل كتاب نانسي درو الذي نويت قضاء بقية اليوم في قراءته على الطاولة الصغيرة إلى جانب سريري، ظل مغلقاً.

قالت أمي، «من فضلك، ألا تستطيعين النزول إلى الأسفل كي تضعي حطباً في النار. أحس برداً».

بدأ دهن البيكون يبرد ويتصلب في صحني، وكانت الريح تهز النوافذ. أمي واقفة عند المجلى، يداها في الماء الذي أضافت إليه الصابون. أعطيتها صحني ونزلت إلى غرفة الفرن في القبو.

«من فضلك، ضعي فيه قطعة فحم كبيرة. ستشتعل فترة أطول، وستكون أشد دفئاً».

بلغت أسفل السلم وانعطفت صوب الفرن لكني انتبهت إلى الخزانة القديمة الممتلئة فواتير مسددة وصوراً اعتقدت يوماً أنها لا وجود لها. رفعت رأسي صوب أعلى السلم كي أتأكد من أنها لا تنظر إلي، ثم سرت إلى غرفة الفرن وركعت عند الخزانة. كانت ركبتاي على أسمنت أرضية القبو عندما انحنيت كي تمسك يدي بمقبض الدرج السفلي. انفتح الدرج من غير مشقة، لكن صوت انزلاق المعدن جعلني أتوقف من جديد وأنظر إلى أعلى السلم. لم يكن الصوت عالياً، لكنه تضخمَ لعلمي أنني أفعل شيئاً لا ينبغي أن أفعله. نظرت في الدرج. فارغ. لم أر فيه شيئاً غير غبار وبضعة مشابك ورق. اختفت تلك الصور كلها. جلست

محدقة في الدرج الفارغ، ثم أغلقته من غير صوت عندما سمعت خطواتها على الأرض فوقي. بلغت منتصف السلم قبل أن أتذكر سبب نزولي إلى القبو. بحثت عن كتلة فحم كبيرة وألقيتها في الفرن.

أمضيت بعد ذلك بضعة أسابيع باحثة عن تلك الصور. أبحث كلما استلقت أمي كي تحظى بقيلولة، أو كلما ذهبت إلى متجر البقالة، لكني لم أعثر تلك الصور، لم أعثر عليها أبداً. خزانة أمي هي المكان الوحيد الذي لم أبحث فيه.

ساعدتني خالتي جون في تنظيف البيت وتجهيزه للبيع بعد أن مرضت أمي وصرت غير قادرة على رعايتها بمفردي فذهبتْ للعيش في بيت رعاية. كنت منهمكة في مسح الخزائن السفلية في المطبخ عندما حاولت خالتي أن تمر بجانبي حاملة بين ذراعيها صندوق قبعات كبيراً. كانت قد استعارت سيارة واحدة من صديقاتها، وهي الآن ذاهبة كي تضع الصندوق فيها.

«خالتي جون!». لم تتوقف. «خالتي جون!». قلتها بصوت أعلى. التفتت خالتي قبل أن تبلغ السيارة لكنها لم تنطق كلمة واحدة. ظللنا واقفتين هناك تنظر كل منا إلى الأخرى في نوع من مواجهة غريبة. صندوق القبعات بين يديها، وفي يدي منشفة للأطباق. لم أدر تماماً ما كان جارياً، لكني كنت موقنة من أن ثمة أمراً غريباً في مشيتها، في طريقة حملها ذلك الصندوق، في تظاهرها بأنها لم تسمعني عندما ناديتها أول مرة.

«هذه أشياء صغيرة باقية من أيام طفولتنا. سوف آخذها معي إلى بوسطن». وضعت خالتي الصندوق على الأرض إلى جانب السيارة.

سـرت مجتـازة الشـرفة الأماميـة، متجهـة إليهـا. «هـل أسـتطيع رؤيتهـا؟»

«لا، لا. لا حاجـة إلـى هـذا. لا شـيء ممـا يثيـر اهتمامـك». فتحـت بـاب السيارة وانحنـت كـي تحمـل الصنـدوق.

«أستطيع حمله بدلاً منك».

«لسـت فـي حاجـة إلـى مسـاعدة، يـا نورمـا. عـودي إلـى مـا كنـت تفعليـن».

«ألن تدعيني يوماً أرى ما في هذا الصندوق؟»

لاحظـت أن ظهرهـا العجـوز كان معوجّـاً وهـي تضـع الصنـدوق علـى مقعـد السـيارة الخلفـي إلـى جانـب عـدد مـن فسـاتين أمـي القديمـة التـي أخذتْهـا كـي تقدمهـا إلـى مجموعـة نسـائية تعمـل معهـا. ابتسـمت خالتـي وأغلقـت بـاب السـيارة. «ذات يـوم ... ربمـا».

«جيد! أود رؤية هذه الأشياء ... ذات يوم».

ربتـت خالتـي علـى ذراعـي وظلـت بضـع ثـوانٍ واضعـة يدهـا المتغضنـة عليهـا قبـل أن تعـود إلـى البيـت. انتظـرتُ لحظـة، ثـم نظـرت إلـى زاويـة الصنـدوق عبـر نافـذة السـيارة قبـل أن أسـتدير وأتبعهـا إلـى الداخـل.

مـع بدايـة عيشـي حريتـي، كانـت أحلامـي قـد بهتـت مثلمـا تبهـت ألـوان مائيـة متروكـة فـي الشـمس. ضعفـت قـوة الألـوان، وازداد الليـل دفئـاً، وصمتـت الطيـور والمخلوقـات الليلـة، وتراجعـت حـدة الخـوف والحيـرة. صحيـح أننـي لـم أنـس تلـك الأحـلام نسـياناً تامـاً، لكـن الحيـز الـذي تشـغله فـي حياتـي صـار أصغـر حجمـاً. أول الأمـر، مـلأ

ذلك الحيز مخيمُ الكنيسة وركوب الدراجة، لكن ذلك لم يلبث أن امتد إلى لعب الكرة وإلى ولد اسمه جون هو شقيق راندال الأكبر. كانت رائحته لطيفة؛ وعندما قبّلني أول مرة، كان مذاق قبلته مثل مذاق السوس ... مذاق حلو فيه لذعة خفيفة، مذاق لازمني زمناً طويلاً بعد ذلك اليوم.

لا شك عندي في أن نوبات الصداع التي تصيب أمي كانت تزداد سوءاً كلما كبرت. وكلما ازداد الوقت الذي أمضيه خارج بيتنا الذي ظلت تلك السنين ترعاه بعناية شديدة، كلما ازدادت ملازمتها الفراش مع زجاجة تايلينول وقطعة قماش رطبة دافئة على عينيها. تقبّل أبي حريتي ولم يكد يفعل شيئاً غير أن يفرض علي أوقاتاً لا يجوز لي أن أخرج فيها وأماكن في المدينة لا يصح أن أذهب إليها.

وضع منديل الطعام في حجره بينما كنت أتناول جرعة ماء.
«أين ذهبت اليوم؟»

«ذهبت إلى جانيت وذهبت إلى الحديقة فأمضيت فيها زمناً. ذهبنا بعد ذلك إلى المكتبة». أومأت برأسي مشيرة إلى مجموعة كتب على الطاولة.

تدخلت أمي، «سمعت أن بعض الأطفال يذهبون للتجول عند الخزان». حاولت أمي أن تجعل هذا يبدو كأنه جملة عادية، لكنا كنا مدركين أنه، في حقيقة الأمر، سؤال تطرحه علي.

«أنا لا أتجول معهم، يا أمي». رمقتني بنظرة شك فرفعت كتفي وقلت، «أقسم أنني لا أذهب معهم».

قال أبي، «نحن نصدقك، يا نورما. أكملي طعامك».

كان ما قلته صحيحاً. أنا لا أذهب للتجول مع أولئك الأولاد، لكني لا أظن أن أمي صدقتني عندما قلت لها إنني ذات مسلك حسن. على الدوام، تقول لها خالتي جون أن تسترخي وأن تهدئ أعصابها، لكن الظاهر أن هذا ما كان له من أثر غير زيادة قلقها بدلاً من تخفيفه.

أتت خالتي جون كي تمضي عندنا عطلة نهاية الأسبوع، وكان ذلك في أول يوم دافئ من أيام شهر مايو في الربيع الذي شهدت بلوغي السادسة عشرة. يومها، عدت إلى البيت متأخرة خمس دقائق عن موعد العشاء. كانت أمي منتظرة عند الباب. نظرت إلي نظرة شك عندما قلت لها إنني كنت في المكتبة فلم أنتبه إلى مرور الوقت. أتت خالتي جون من خلفها وطبعت قبلة على خدها القلق الأحمر. قالت لها، «سوف يجعلك هذا القلق تموتين قبل أوانك، يا لينور». غمزت لي بعينها.

عصرت أمي كفيها وفتحت عينيها على اتساعهما مستنكرة ما سمعته قبل أن تتنحى جانباً كي أستطيع دخول الباب. «عمل شاق أن تكوني أماً، يا جون. لا تستطيعين أن تفهمي كم يمكن أن يكون مرهقاً، وكم يأتي به من قلق».

لم تتابع خالتي جون الحديث بل ابتسمت لي ونحن نضع على طاولة العشاء البطاطس المهروسة وشرائح اللحم والخبز البيتي والجزر المحمص بالعسل.

كانت خالتي جون تثير كرب أمي. وكانت «أساليبها المتحررة» تجعل وجه أمي يحمر وتجعلها عاجزة عن العثور على كلمات

تقولها. كانت معترضة على تدخينها تلك السجائر بنكهة النعنع وكذلك على رأيها القائل إن المرأة ليست في حاجة إلى رجل كي تكون راضية. كانت خالتي «امرأة صاحبة مهنة» ... عبارة تنطقها أمي بنبرة موحية بالنفور ثم تطوّح بذراعيها في الهواء. لكن خالتي جون كانت ترقص معي في غرفة المعيشة وتأتيني بنسخ أولى من كتب جيدة تهم شركتها بإصدارها. ذات مرة، ناولتني خلسة رشفة من الجن عندما كنت في الثالثة عشرة. لم يكن هذا يعجبني، ولا يزال لا يعجبني، لكن خالتي كانت هكذا، كانت شديدة الاختلاف عن أمي. وعلى الدوام، كانت العلاقة بينهما تحيّرني.

«خالتك جون قادرة أحياناً على أن تكون مرهقة جداً، يا نورما». تقول أمي هذا وهي تعيد سماعة الهاتف إلى مكانها بعد واحدة من مكالماتهما التي تطول ساعة كاملة. مع هذا، تتذمر أمي وتشتكي لشدة شوقها إلى خالتي كلما غابت فترة أطول من المعتاد. وهذا ما أثار غيرتي ... هذه العلاقة الغريبة بين الشقيقتين. وددت أن يكون لي شقيق أو شقيقة ولم أقصر أبداً في التعبير عن هذه الرغبة عارفة طيلة الوقت أنني أزعج أمي. أقلعت عن المطالبة آخر الأمر بعد أن سببت لها صداعاً جعلها تلزم الفراش أسبوعاً كاملاً. لكن خالتي جون، وعلى الرغم من عيوبها المزعومة، كانت الشخص الوحيد في حياة أمي فضلاً عنا، أنا وأبي. ما كانت لأمي أية صديقات. لديها السيدات اللواتي تعرفهن من الكنيسة ... لكن من غير الممكن اعتبارهن صديقات. كانت تلك السيدات تتكلمن بأصوات غريبة حادة النبرات، تتكلمن

في ما بينهن كل يوم أحد عند وقوفهن في حلقات صغيرة أمام الكنيسة وأعقاب أحذيتهن الدقيقة منغرسة في التراب الطري وأحكامهن الواضحة، أحكام كل منهن على غيرها، سابحة في الهواء بينهن. كانت أحاديثهن مقتصرة على موضوعات من قبيل حالة الطقس والأطفال المشاغبين ووصفات المأكولات.

كان اليوم الذي أعقب يوم وصولي متأخرة إلى البيت دافئاً إلى حد غير معهود في ذلك الوقت من السنة. أتذكر نقيق ضفادع الربيع في البركة الضحلة في الغابة خلف بيتنا، وأتذكر إدراكي أن الصيف قد اقترب. كان أبي واقفاً عند المشوى يقلّب الهامبرغر، وكانت أمي جالسة مع خالتي جون. كانتا منخرطتين في حديث خافت الصوت وقد وضعتا كأسي الشاي المثلج جانباً مفضلتين عليهما النبيذ والجلاب بنكهة النعناع.

لا أدري حتى الآن ما جعلني أتكلم يومها، لكني كنت مقتنعة، في مكان قصي داخل عقلي، بأن خالتي جون تقول لي الحقيقة دائماً. تؤلمني الآن معرفتي أن الأمر لم يكن كذلك؛ لكني أحاول الصفح. لعل جلوسي في الخارج، تحت أشعة الشمس الدافئة، جعلني أرى كيف بدأ لون جلد ذراعي يتغير.

«والد جدي، الإيطالي، ما اسمه؟».

كانت خالتي جون رافعة وجهها صوب الشمس، وكانت تدير كأس شرابها في يدها. وكنت جالسة على أعلى درجة من درجات السلم المؤدي إلى الفناء الذي أمضيت فيه الشطر الأكبر من طفولتي. الفناء الذي فيه قبور حيوانات الهامستر وحشرات أوائل الصيف، وكذلك قبر دميتي ... قبور نسيتها منذ زمن طويل.

«أي جد إيطالي!؟» انتصبت خالتي جون جالسة وعدّلت وضع قبعة الشمس كي تقي عينيها ... «نحن إيرلنديون منذ ما قبل المجاعة. مع أنني سمعت ذات مرة قصة تتحدث عن احتمال وجود مغاربة بين أسلافنا». غمزت لي بعينها، لكن أمي وأبي تبادلا نظرات قلقة.

رأيت قطعة هامبرغر نصف ناضجة تسقط على الأرض عندما حاول أبي أن يقلبها. همس بشتيمة قبل أن يركلها جانباً. «هذا من ناحيتي أنا، يا جون. والد جدي كان إيطالياً ... على ما أظن». تلعثم أثناء قوله هذه الكلمات فرمقته خالتي جون بنظرة جانبية وتناولت رشفة من كأسها قبل أن تلتفت إلي.

«صحيح ... أنسى دائماً أن لك أباً أيضاً». أطلقت ضحكة أحسستها أشد مما ينبغي، أشد صخباً مما تستحقه نكتها ... «ما أهمية هذا، يا طفلتي؟». نهضت أمي ودخلت البيت.

«أنا أشد منكم سمرة. وأنا أزداد سمرة في الصيف. هذا أمر غريب». وضعت المجلة التي كانت في يدي على الأرض خلفي.

قالت من غير أن تنظر إلي، «هذا ارتداد وراثي».

«ارتداد وراثي!؟»

«نعم ... ليس جلدك الأسمر إلا شهادة جسدية على التاريخ العائلي لمعظم الناس في هذه البلاد. لا تعلمين أبداً كيف سيكون أطفالك. أظن أن الوراثة أمر محيّر».

نهضت خالتي جون واقفة ودخلت البيت لحظة ناولني أبي صحناً من الهامبرغر حيث كنت جالسة على السلم.

قال لي بصوت أحسسته غير ثابت، «فلنأكل الآن!». انتظرني إلى أن نهضت واقفة وفتحت الباب له.

صمتهم الذي أعلم الآن أنه كان مصمماً بحيث يقتل الحديث تماماً كان له أثر معاكس إذ بعث في نفسي افتتاناً بعلم الوراثة. بدأت أستعير من المكتبة العامة كتباً فتأخذها أمي من غرفتي وتعيدها إلى المكتبة سريعاً قبل أن تتسنى لي فرصة حتى لأن أفتحها. لكنها غير قادرة على مراقبتي في المدرسة فصرت أذهب إلى المكتبة كلما تسنى لي وقت كي «أمتص» كل ما أستطيع الحصول عليه من معلومات. لا بد أنني قرأت الموسوعة نفسها مرات كثيرة إلى أن صارت لي معرفة جيدة بكل ما يتصل بالجزيئات والكروموزومات والخلايا والمورثات. وعندما درست البيولوجيا في السنة الثانية عشرة في المدرسة، كان لدي اطلاع واسع على ما يؤدي إلى ظهور صفات من قبيل لون العينين واستخدام اليد اليسرى وانخماص الذقن وشحمة الأذن الملتصقة بالرأس. كانت لي عينان بنيتان مثل عيني أبي، وكان ثلاثتنا ممن يستخدمون اليد اليمنى، لكن آذان أبي وأمي كانت شحماتها متصلة برأسيهما. شحمات أذني ليست كذلك. تلك القطعتان الصغيرتان من جلد متدل من الأذن، من جلد غير ملتصق بالرأس، بقيتا غير مثقوبتين على الرغم من مطالبتي المستمرة بأن أعلق فيهما قرطين.

همست، «خالتي جون».

كنت جاثية في الخزانة التي في الممر حيث نضع الهاتف الثاني لأنني لم أرد أن تسمع أمي صوتي. حتى عندما تغفو، أظل

مقتنعة بأنها قادرة على رؤية كل شيء أفعله وسماع كل شيء أقوله.

«نورما! لماذا تهمسين؟ ما الأمر؟»

سمعت في الخلفية صوت أليس تسأل خالتي إن كان كل شيء على ما يرام.

«كل شيء على ما يرام. أريد فقط أن أطرح عليك سؤالاً، ولا أريد أن تصيب أمي واحدة من نوبات الصداع».

صمتٌ في الهاتف.

«نورما ... أليس جالسة الآن معي، وهي تسمعك».

«لا بأس، لا مشكلة». لا مشكلة في هذا ... «المسألة هي أن شحمتي أذني غير ملتصقتين برأسي». صمت عند النهاية الأخرى من الخط، صمت لا يقطعه شيء غير تنفس امرأتين هما أكثر من أثق بهما في العالم كله.

«لا بأس ... أهذا ما تتصلين كي تخبريني به؟»

«لا ... نعم. لكن، اسمعي هذا: ليس أمراً شائعاً أن يكون لاثنين من الناس لهما شحمات أذن ملتصقة طفلٌ له شحمتا أذنين غير ملتصقتين».

«ليس أمراً شائعاً ... لكن، هل هو مستحيل؟». سألتني هذا بصوت منخفض مثل صوتي.

«ليس مستحيلاً، لكنه مستبعد».

سمعت سعال أبي آتياً من الغرفة المجاورة.

«هذا ما يحيرني، يا نورما. شحمتا أذني غير ملتصقتين. لعلك أخذت هذه الصفة مني». أحسست أنها وضعت يدها على الهاتف وبدأت تكلم أليس. أتاني صوت أليس بعد ذلك.

«لمـاذا تفكريـن فـي هـذا الأمـر، يـا نورمـا؟». لا يـزال صوتهـا ملاطفـاً.

«لست أدري. أمر أثار اهتمامي، لا أكثر ... على ما أظن».

«لكن، لماذا تتكلمين معنا في هذا الأمر بدلاً من أن تتكلمي مع أبيك وأمك؟ وما الحاجة إلى الهمس؟ قد يثير الأمر اهتمامهما، بل قد تكون الإجابة التي تبحثين عنها موجودة لديهما».

«لا أريد أن أكون سبباً في أن يصيب الصداع أمي مرة أخرى».

«لقد تكلمنا في هذا الأمر، يا نورما. أنت لست سبب صداع أمك. ألا تتذكرين هذا؟ عليك أن تكوني أشد ثقة بها. تكادين الآن تصيرين كبيرة، وقد حان الوقت لأن تبدأي إطلاع أمك على ما يجول في ذهنك. قد يعجبها هذا، وقد يجعلكما صديقتين أكثر من ذي قبل. قد يكون مفيداً لك أن تكتبي هذا في دفترك قبل أن تتحدثي معها».

لم يطاوعني قلبي على إخبارها بأنني كنت، في أعياد الميلاد الثلاثة الأخيرة، أهدي صديقتي جانيت تلك الدفاتر وبأنني لم أعد أكتب أي شيء. وأما الدفاتر القديمة، الدفاتر التي على أغلفتها أزهار، فهي على الرف في غرفتي وعليها ورق بني اللون في محاولة طفولية من جانبي لإخفاء المعلومات عن أمي. على حد علمي، لم تمتد يد إلى تلك الدفاتر منذ سنين.

«صحيح ... لا بأس. ربما أفعل هذا. هذا أمر سخيف لا يستحق الاتصال من أجله. آسفة، يا خالتي».

«لا تأسفي لأنك اتصلت بي. أحب سماع صوتك، يا طفلتي. أتمنى لك يوماً طيباً في المدرسة غداً. أحبك». أنهت خالتي

المكالمة بعد ذلك فبقيتُ جالسة في ظلمة الخزانة مع طنين الهاتف منبعثاً من السماعة التي في يدي، الطنين الذي يغرق بين المعاطف الشتوية المعلقة في رأسي كأنها أشباح.

- 5 -

جو

«لا أدري لماذا تبحثون كلكم في الغابات. هي ليست هناك». كانت ماما جالسة عند النار، حذاؤها منزاح جانباً، أسفله مهترئ بفعل الزمن وكثرة الاستخدام. كانت أصابع قدميها مغروسة في التربة الرخوة حول النار، حبة بطاطس في إحدى يديها وسكين تقشير في يدها الأخرى. «لا تفعلون شيئاً غير تضييع الوقت في البحث عنها هناك. إنها في مكان آخر». رفعت ذراعها ويدها لا تزال ممسكة سكينها. لوّحت بيدها تلويحة واسعة كأنها تشير إلى العالم كله.

على مر السنين التي انقضت بعد ضياع روثي، توصلت ماما إلى فهم «ناعم» للوضع. تحاول كل ما تستطيع كي لا تكون حزينة. ما كانت قادرة على أن تعد نفسها بسعادة تامة ولا على أن تحرر نفسها من غضبها تحريراً تاماً، وذلك مهما كثرت المرات التي تنتعل فيها حذاءها وتذهب إلى الكنيسة الحجرية الكبيرة في المدينة. إلا أنها تفلح في لجم حزنها. كانت تفلح في لجمه وفي ترويضه، في إبقائه ساكناً، صامتاً. كانت تفعل هذا من خلال جعل نفسها مقتنعة بأن روثي هناك، في مكان من الأماكن، تكبر وتأكل الآيس كريم وتقرأ الكتب وتتذكر أمها. تركناها لما هي مقتنعة به. لكنا واصلنا البحث. مشّطنا تلك الغابات، ومشّطنا شاطئ البحيرة، وبحثنا في وجه كل فتاة جديدة قد تكون في مثل سن روثي. بحثنا، لكننا لم نجدها أبداً.

«جو، تعال هنا واجلس معي!». لوحت لي بيدها الممسكة حبة البطاطس. كنت عائداً للتو مع بن وتشارلي من جولة سريعة جديدة عند آخر حقول التوت؛ وكنت أدعك آثار لسعات البعوض الجديدة على رقبتي. ذهبت إليها وجلست إلى جوارها. مدت يديها الملوثتين بنشاء البطاطس ودعكت رقبتي. أحسست برودة يديها لطيفة عندما مست أماكن لسعات البعوض التي تحرقني. لن أقول إنني حللت محل روثي، لكني صرت أصغر الأطفال سناً بعد ضياعها. وقد أتت مع هذا مسؤولية جديدة، مسؤولية كوني الأصغر سناً، الطفل الأخير. لم أكن أبداً على قدر هذه المسؤولية لأنني، على غرار أمي، كنت مقتنعاً بأن روثي موجودة في مكان من الأماكن، ولأنني كنت منتظراً أن نعثر عليها. وإلى ذلك الوقت، كنت الطفل الأقرب سناً إلى روثي، كنت أقرب من تستطيع ماما أن تعثر عليه. ولهذا، جلست معها. كنت أسير معها إلى الكنيسة بعض الأحيان وأحاول جهدي أن أصغي إليها عندما تتكلم. وفي مناسبات نادرة، عندما يطل الحزن برأسه، أمسك يدها أثناء بكائها.

أنا لست رجلاً حكيماً. أظن أن أفعالي في العقود القليلة الماضية تثبت هذا. لكني تعلمت خلال ذلك الزمن أموراً كثيرة. الأمور التي التصقت بي خلال تلك السنين الفاصلة بين خسارتنا روثي وبين مغادرتي ولاية مين من غير رجعة لا تزال موجودة: يصعب البحث عن شخص لا يمكن العثور عليه، ويصعب أكثر من ذلك استبدال ذلك الشخص في قلب أمه. لا أقول إنني لم أرد رؤية روثي من جديد ... أردت رؤيتها ... لكني أحببت الجلوس مع

ماما. روثي لم تكن في تلك الغابات؛ وحتى إن كنت مخطئاً وكانت ذاتها الصغيرة لا تزال مستلقية هناك، في مكان من الأماكن، مع الشمس والقمر صديقين وحيدين لها، فأنا لم أكن راغباً في العثور عليها بهذه الطريقة، في العثور عليها ميتة لا شيء منها باقٍ غير عظامها. من هنا، كان البحث عنها صعباً، لكنا بحثنا على الرغم من ذلك. بدا لنا أن بحثنا يعني أننا لا نزال مهتمين بأمرها، أننا لا نزال نحبها.

ظللت أبحث عنها حتى ذلك اليوم الذي شهد رحيلي تلك السنة في وقت مبكر أواسطَ شهر أغسطس، أيام كنا موشكين على استقبال حزن جديد. تناولنا طعامنا واستفدنا مما كان باقياً من شمس الصيف كي نبحث بين الأجمات وتحت الأشجار الساقطة، لكننا لم نعد نصيح باسمها. لن يسمعه أحد غيرنا.

«عددنا لا يزال يتقلص». كانت ماما ترشف الشاي بعد فراغنا من تناول الطعام. ما من صوت غير طنين البعوض الخافت وفرقعة النار ... «إذا استمر الأمر هكذا، فلن نعود قادرين على العمل في هذه الحقول».

أومأ بابا برأسه وانحنى مقترباً من النار كي يرى الكتابة التي في دفتره. «صار الناس في موطننا يجدون أعمالاً أفضل، على ما أظن. وهذه رحلة طويلة إذا لم يكن المرء راغباً فيها». استلّ سكيناً كان قد ربطها إلى حزامه وبرى بها قلم الرصاص إلى أن صارت قمته مدببة قبل أن يعكف على مراجعة سجلاته لذلك اليوم. عدد الصناديق، ووزن كل صندوق، واسم قاطف التوت ... كان هذا كله مرتباً في أعمدة منتظمة.

كان عددنا ذلك الصيف قليلاً، الصيف الذي تركنا فيه ولاية مين من غير عودة. وكانت في مخيمنا تلك الوجوه المألوفة. أتى بن من بوسطن وترك تشارلي عمله مؤقتاً كي يجني مالاً أكثر في حقول التوت. قاطفو التوت الآخرين كانوا مقتصرين على العجوز جيرالد مع جوليا، والتوأمين هانك وبرنارد، والأرملة آغنوس وثلاثة من أطفالها بعد أن رحل الثلاثة الآخرون الذين صاروا كباراً وصارت لديهم أعمالهم وأسرهم. وبطبيعة الحال، كان معنا فرانكي. فوجئت بعد سنين عندما عثرت على فرانكي من جديد، عندما عثرت عليه حياً ثملاً كعهده يقطف التوت في هذه الحقول نفسها، وجهه متغضن وفمه يكاد يكون خالياً من أسنانه كلها. إذا اقتربت منه مسافة كافية، فمن الممكن أن تجعلك رائحة أنفاسه تفقد صوابك. لكنه لا يزال فرانكي، لا يزال شخصاً يتذكر روثي في لحظات صحوه النادرة.

كنت في الخامسة عشرة ذلك الصيف عندما كانت الأيام ذات الحرارة الكاوية تبدو كأنها تجر أنفسها جراً صوب الليالي الرطبة الباردة. كنت في شوق شديد إلى أن أصير كبيراً، إلى أن أذهب إلى حيث النيران على جبل آلن، إلى أن أشرب شيئاً من البيرة التي اشتراها بن لكنه خبأها كي لا تراها ماما. لكن الفرحة والمرح كانا كأنهما يذبلان ويموتان بدورهما مع توقف قاطفي التوت عن القدوم. أتذكر انتظاري أيام نهاية الأسبوع. حتى إن لم تعد على الجبل حفلات، فلا تزال لدي سباحة في البحيرة وفتاة اسمها سوزان ترتدي ملابس السباحة وتسترق نظرات في اتجاهي عندما يكون أبوها وأمها غير منتبهين. وفي

ذلك الصيف، كان في البلدة سيرك جوّال.

كنت في آخر الصف منتظراً أن يعلن وصولُ شاحنة أبي الصغيرة انتهاء يوم العمل. وإذا أردت أن أكون صادقاً (عندما تكون نصف ميت، يصير الصدق أسهل كثيراً)، لم يكن التوت الذي قطفته كثيراً. أنا وبن لا نزال شريكين في العمل، لكنه الآن عند النهاية الأخرى من صف القاطفين ... يبدو كأنه يعمل. كان الطقس حاراً، وكنا على علم بوصول السيرك إلى البلدة الواقعة على مسافة ميلين فقط على الطريق رقم 9. كنت أنظف ما تحت أظافري مستخدماً عسلوجاً صغيراً مثلما علمتني ماما عندما أحسست هديراً تحت قدمي. كانت الأرض نفسها تهتز. سقط العسلوج من يدي ووقفت رافعاً يدي إلى عيني أرقب تلك الشاحنات تمضي حاملة خيولاً وخياماً ومهرجين وسحرة وعرّافين وحيوانات قرأت عنها في الكتب. أكاد أشم رائحة غزل البنات. مع مرور آخر شاحنة كان بن قد صار إلى جانبي.

قال لي ونحن سائرين على امتداد الصف الذي كنا نعمل فيه، «هذا ليس مثل مدن الألعاب التي في ديارنا، كما تعلم».

«ماذا تعني؟»

«لديهم ألعاب جيدة ليست مثل تلك القطارات الصغيرة ودوّارات الخيل التي عندنا. لديهم دواليب دوّارة كبيرة وأشياء تركبها فتدور بك بسرعة تجعلك تكاد تتقيأ طعامك».

«أستطيع احتمالها». الحقيقة أنني لم أكن أدري إن كنت قادراً على احتمالها. ما أردت شيئاً غير أن تسنح لي فرصة كي أشتري غزل البنات لسوزان لعلها ترضى أن تقبّلني.

كانت ليلة سبت صافية، ليلة قال عنها بن وماي وتشارلي مازحين إنها مثالية لارتكاب الخطايا كي يتوبوا عنها صباح اليوم التالي، يوم الأحد. كنت أموت شوقاً إلى ارتكاب بعض تلك الخطايا. كان ذلك أشبه بحبل مشدود، بحبل تشابكت خيوطه في داخلي مستعدة لأن تتقطع. وقد كان علينا أن نبتعد. كان علينا أن نبتعد عن ظلال تلك الأشجار، عن أشباح أصواتنا التي تنادي روثي. وكان علي أن أبتعد عن تلك الخشية الدائمة، خشية أن أجدها في مكان من الأماكن. في كوابيسي، كنت أجدها بعض الأحيان، أجد عظامها مبيضة تحت أشعة الشمس وفستانها الصغير مبسوط فوق ما بقي منها. كانت كوابيس قاسية؛ وكنت أحاول نسيانها ما استطعت بأن أرهق نفسي بالعمل في اليوم التالي. أستيقظ بعض الأحيان وأذرف دموع خوف وارتياح. هذا لأنني ... صحيح أنني لم أقتنع أبداً بأن روثي ماتت، لكن من الأفضل أن أعلم علم اليقين. ألن تصير ماما قادرة على أن ترمي ذلك الحذاء القديم إن علمت أن روثي قد رحلت؟

كان الليل دافئاً، وكان جافاً مع نسمة خفيفة كافية لإبقائك منتعشاً من غير أن تجعلك تحس قشعريرة برد. كنا قادرين على سماع أصوات السيرك ورؤية الكدمة التي صنعتها أضواء النيون في السماء. أصوات أجراس حادة لا تنقطع أتت في الظلمة كي تلقانا. أتذكر أن ساقيّ، ساقيّ النحيلتين الطويلتين اللتين تكاد عظامهما تشق جلدي الصيفي، كانتا تزدادان سرعة بمشيئة منهما وحدهما، تشدانني صوب روائح غزل البنات وشحم الآلات والمراحيض العامة.

جرى تشارلي كي يلحق بي. سدد إلى ذراعي لكمة. قال لي، «أبطئ سيرك، يا جو. سوف تستنفد قواك حتى قبل أن تصل».

أجبته بلكمة مماثلة وبدأت أجري. لحق بي كل من بن وماي، وقعُ حذائيهما على الحصى يخبو في الظلام.

لم يُسمح لي قبل الآن بالذهاب إلى السيرك. بدأ الآخرون ذهابهم عندما كانوا في الثالثة عشرة، لكن ماما منعتني لأن روثي قد ضاعت. لم أر سبباً منطقياً لهذا، لكني لم أعترض عليه. هذه السنة، تركتني أذهب أخيراً بعد نظرة جانبية من أبي. كان بابا يخبئ النقود التي نكسبها تحت مقعد شاحنته الصغيرة. وكان لكل طفل تحت سن السادسة عشرة (أنا فقط، في ذلك الوقت) مغلف خاص به. وكان بابا يكتب على كل مغلف بخطه الذي يشبه خربشة الدجاج حصيلة عمل كل واحد من أطفاله. تظل النقود خبيئة لأنها مخصصة لشراء أحذية ودفاتر من أجل المدرسة. ومع أنني تركت المدرسة، ظل بابا ممتنعاً عن السماح لي بأن آخذ مالي كله. كان يقول لي إنني سأصير كبيراً وسيتعين علي أن أبدأ دفع نصيبي من الفواتير. وأما في تلك الليلة، فقد سمح لي بأن أسحب مبلغاً صغيراً. قبل انطلاقنا، قبل أن تغيب الشمس، وضع في يدي دولارين اثنين وربت على كتفي.

قال لي، «كن حكيماً في إنفاق المال. هذا كل ما ستحصل عليه إلى أن نعود إلى ديارنا».

أحسست الورقتين الماليتين رطبتين في يدي. دفعت بهما إلى أعمق ناحية داخل جيبي. ظللت أتحسس ساقي كل دقيقتين كي أطمئن إلى أنهما لا تزالان هناك. وكنت قد تفقدت جيبي عاشر

مـرة، أو لعلهـا المـرة المئـة، عندمـا انحنـى تشـارلي كـي يعبـر مـن تحـت حبـل مشـدود بيـن خيمتيـن. وكنـت خلفـه مباشـرة. انتظرنـا فـي الظـلال إلـى أن تأكدنـا مـن عـدم وجـود أحـد علـى مقربـة منـا. مـا كـان أي منـا راغبـاً فـي إهـدار المـال الـذي شـقي فـي كسـبه علـى شـراء بطاقـة دخـول. لحظـة هممـت بـأن أخطـو داخـلاً هالـة إنـارة النيـون الاصطناعيـة، علقـت رجلـي بشـيء تحتهـا فسـقطت واندفعـت الأرض صوبـي سـريعاً. مـددت يـدي أمامـي وأدرت جسـدي فتلقـى ردفـي الصدمـة. كان العشـب قـد بـدأ يبـرد وصـار رطبـاً فـي هـواء الليـل. قفـزت ونهضـت سـريعاً ورحـت أنفـض التـراب والعشـب عـن بنطلونـي. انثنـى تشـارلي علـى نفسـه لشـدة الضحـك.

كان فرانكـي مسـتلقياً علـى الأرض إلـى جانبـي، جسـده منطـوٍ فـي زاويـة قائمـة وزجاجـة فارغـة علـى الأرض عنـد أطـراف أصابعـه القـذرة. لقـد تعثـرت بـه.

«فرانكي، يا إلهي! ما هذا؟»

«لقـد أيقظتنـي». جاهـد كـي يقـف علـى قدميـه. سـقط مرتيـن قبـل أن يفلـح فـي الوقـوف منتصبـاً.

«لقد أوقعتني».

«لـم أفعـل شـيئاً مـن هـذا القبيـل». خرجـت الكلمـات مـن فمـه متراخيـة واسـتدار مـن حـول نهايـة الخيمـة. أنـزل بنطلونـه حتـى كاحليـه وبـال علـى الحبـل الـذي عبرتـه قبـل قليـل. هـززت رأسـي واسـتدرت إلـى تشـارلي الـذي كان ماضيـاً فـي الضحـك.

قلـت لتشـارلي، «انقلـع عنـي!». ثـم اسـتدرت وسـرت مبتعداً. سـرت صـوب جمـوع النـاس.

لا تعلم أبداً ما ستكونه كلماتك الأخيرة التي تقولها لواحد من الناس ثم لا يعود تصحيحها ممكناً عند وقوع الواقعة ورحيل ذلك الشخص. أمضيت سنوات طويلة مفكراً في شيء آخر كان يمكن أن أقوله لتشارلي، بشيء يجعله يعرف كم أحبه، كم أحترمه. كلمات لا أظنه سمعها مني يوماً من الأيام. لكني عشت سنوات طويلة مع ذكرى الكلمتين الأخيرتين اللتين سمعهما أخي مني ولم تكونا كلمتا حب ولا استحسان، بل كلمتا غضب حملتا أثر ما أحسسته وقتها من حرج. بل إن آخر ما قلته لروثي لم يحظ حتى بشرف أن يكون كلمة. وضعت إصبعي على شفتي كي أسكتها وأحفظ سري. الكلمات أشياء غريبة بالغة القوة ... قلناها أم لم نقلها.

كان المكان زاخراً بالحياة. بشر من كل حجم وعمر. رأيت رجلاً بديناً يحشر جسده في مقعد العجلة الدوارة الكبيرة إلى جانب امرأة لا تقل عنه بدانة فعجبت كيف يمكن أن يظلا ثابتين عندما يعلوان في الهواء وتساءلت إن كان قوة الفولاذ كافية لحملهما. أطفال ممسكون بمقابض صغيرة منبثقة من أعناق خيولهم الخشبية، وطلاء الباستيل يتقشر ويسقط مع كل راكب جديد. ألقيت نظرة صوب مراهقي البلدة يشربون خلسة الويسكي المخلوط بالماء. حيوانات في أقفاص أو خلف أسوار كانت تجتر أو كانت نائمة، كانت تموء أو تجأر. سرت في المكان وكانت عيناي تقفزان من شيء إلى شيء يليه، تحاولان رؤية كل شيء. استنشقت رائحة السكر وعرق الصيف. زيت القلي يهس ويفور، وأجراس تعلن الفوز وتعلو فوق صرخات مستثارة، تعلو

فوق الحيوانات المحنطة والبالونات والساعات الرخيصة واللآلئ البلاستيكية. استرقت السمع إلى أحاديث، وأكلت أول «كورن دوغ». كان بن وماي قد ذهبا وجلسا على المقاعد مع بضعة أصدقاء من حقول التوت. لحق بي تشارلي ولكم ذراعي لكمة خفيفة. ليتي قلت له إنني آسف لما سمعه مني؛ لكني لم أقل شيئاً. انعطفنا عند واحدة من الألعاب متجهين صوب خيمة العرّاف حين سمعنا صوت آرتشي جونسون آتياً من خلف صف من المراحيض المؤقتة.

«أنت، يا ابن العاهرة ... أعد إلي مالي!».

التفت تشارلي في اتجاه صوت المشاجرة التي لا تزال في أولها. أحسست تقلصاً في معدتي. كان آرتشي جونسون شاباً ضخماً أكبر قليلاً من بن، وكان حانقاً طيلة الوقت. يقولون إنه خرج من بطن أمه وهو يشتم ويسدد اللكمات. وفي الضوء الخافت الآتي من ناحية الألعاب، رأينا فرانكي ملقى على الأرض، قدم آرتشي على رقبته وزبد ظاهر عند زاويتي فمه.

«دعه يذهب، يا آرتشي! لا تكن وغداً!». تقدم تشارلي منهما. مددت يدي كي أمسك ذراعه، لكنه كان قد ابتعد عني.

كان شقيقا آرتشي، وكل منهما ضخم مثله، يضحكان ويكلمان شقيقهما بلغتنا، باللغة التي لم يعلمنا إياها والدانا. كنت لا أكاد أفهم شيئاً منها، لكني فهمت من وقفتهما ومن نظرتهما أنهما لا يقولان أي شيء حسن. هم من منطقة لا تبعد أكثر من ساعتين عن مكان سكنانا في ديارنا. كان ذلك مكاناً قاسياً هجره أبي وأمي قبل أن يولد أي واحد منا. «لم يكن آل جونسون صالحين

عندمـا كنـت فتـاة صغيـرة؛ وقـد نقلـوا مسـاوئهم إلـى أطفالهـم».
كانـت أمـي تقـول هـذا كلمـا تسـبب واحـد منهـم فـي مشـكلة خـلال فتـرات الصيـف فـي ولايـة ميـن، كلمـا تشـاجروا مـع أهـل المنطقـة أو سـرقوا أشـياء مـن المخـزن الـذي نشـتري منـه مـا يلزمنـا. أكثـر الأحيـان، كانـوا يسـرقون الويسـكي والسـجائر. كانـوا فـي بحـث دائـم عـن المشـاجرات، لكـن أحـداً لـم يكـن يتيـح لهـم هـذه الفرصـة فيصـب كل واحـد علـى الآخـر مـا بـه مـن عنـف ... طيلـة الأوقـات. مـا كان مسـتغرباً أبـداً أن تـرى صبيحـة يـوم مـن أيـام الاثنيـن واحـداً منهـم بعيـن متورمـة أو بكدمـات علـى مفاصـل أصابعـه. وأمـا هـذه الليلـة فقـد وجـدوا ضحيتيـن اثنتيـن، رجـلاً ثمـلاً لا حـول لـه وشـاباً صغيـراً مثاليـاً. تقـدم واحـد مـن شـقيقي آرتشـي (لا أتذكـر أي واحـد منهمـا) خارجـاً مـن الظـلال ورفـع يـده القويـة الخشـنة إلـى صـدر تشـارلي ودفعـه. ترنـح تشـارلي وتعثـر وسـقط علـى الأرض، لكـن هـذا جعـل غضبـه يـزداد لأن قـدم آرتشـي ظلـت علـى عنـق فرانكـي.

نهـض تشـارلي واقفـاً علـى قدميـه وتقـدم مـن آرتشـي. نظـر فـي عينيـه. «اتركـه!».

«لا».

«اتركه!».

«وماذا ستفعل أيها الهندي الضخم القوي القذر؟»

على الرغم من الظلمـة، رأيت وجـه تشـارلي يـزداد توهجـاً. تقـدم مـن جديـد حتـى كاد صـدره يلاصـق صـدر آرتشـي. كان الفاصـل الوحيـد الباقـي بينهمـا ذلـك الرجـل الثمـل الملقـى علـى الأرض لا يـكاد يقـوى علـى التنفـس.

«إنه نمل لا يؤذي أحداً. اتركه!».

نظر آرتشي إلى شقيقيه؛ وبسرعة لم أتخيل أن هذين الشابين الضخمين قادرين عليها، تقدم الاثنان من تشارلي. صارت ذراعاه مطويتين خلفه. رفع آرتشي قدمه عن فرانكي وسدد إلى بطن تشارلي لكمة شديدة. أقسم أنني سمعت الهواء يفارق جسد أخي. استدرت وجريت باحثاً عن بن. جريت كأن ساقي غير متصلتين بي. أضواء السيرك تتالى سريعاً كأنها خط متصل. صوت الدم النابض في أذني أثناء جريي حل محل الأجراس والموسيقى الصادحة. وجدت بن وماي جالسين على المقاعد يدخنان سيجارة ويشاركان بعض البيض الذين لا أعرفهم زجاجة شراب. كانت يد ماي على ساق شاب ضامر، شعره الأصفر مردود إلى الخلف وفي فمه صف منتظم من أسنان بيض لامعة. كنت مبهور الأنفاس فلم أستطع شرح شيء. أمسكت بن من ذراعه وظللت أشده إلى أن بدأ هو وماي يجريان خلفي طالبين تفسيراً. خفتت الإضاءة عندما صرنا خلف المراحيض. كان الظلام والهدوء مقلقين. لم أر آرتشي وشقيقيه، لكن فرانكي كان جالساً على الأرض وقد كساه الدم. رأيت رأس تشارلي مستنداً إلى حجره. كان فرانكي يترنح أماماً وخلفاً ويبكي ويغمغم صلاة للرب.

« ... فليتقدس اسمك ...». توقف ورفع رأسه ناظراً إلينا. قال منتحباً، «كنت أريد شراباً، لا أكثر. سقطت النقود من جيبه. ظلوا يركلونه، يركلونه في بطنه وعلى رأسه. ظلوا يركلونه، يا ماي». كان فرانكي يتلعثم ويبكي، وكان يهدهد تشارلي ويمسح أنفه بكم قميصه الغارق بدم تشارلي. «صمت وكف عن الحركة، لكنهم ظلوا يركلونه».

«اسكت، يا فرانكي!». انحنت ماي فوقه. الرجل الذي كان معها على المقعد جاء ووقف خلفها. «تشارلي. تشارلي. أنا ماي. استيقظ!». لكن تشارلي لم يستيقظ. لم يتحرك تشارلي. رفع الرجل ذو الشعر الأصفر ماي عن الأرض فانحنى بن وحمل تشارلي بين ذراعيه. كان فرانكي ماضياً في بكائه.

صحت به، «أطبق فمك، يا فرانكي!». كانت بي رغبة شديدة في تسديد لكمة إلى وجه فرانكي القذر الثمل، لكني تركته وسرت لاحقاً بإخوتي.

خطا بن من فوق الحبل المشدود بين الخيمتين حاملاً جسد تشارلي الهامد بين ذراعيه، خطا مجتازاً الحبل كأنه غير موجود. أما أنا وماي فانحنيا وعبرنا من تحته. كانت ليلة هادئة. المخلوقات المختبئة في الغابات والخندق الرطب الممتد على طول الطريق رقم 9، بدت كلها كأنها عارفة بمجيئنا. بدت كأنها مدركة خطورة ما جرى.

همست لي ماي، «ماذا جرى، يا جو؟». كان في الهدوء وفي الظلام وفي العنف شيء خفض أصواتنا كلنا.

أجبتها، «إنه فرانكي». قلتها كأنني أتعثر بكلماتي.

«هل فعل فرانكي هذا؟»

«لا، يا ماي! تشارلي ... كان يحاول الدفاع عن فرانكي. فرانكي سرق ماله».

«مال من؟ هل هو مال تشارلي؟»

كنت غير قادر على الكلام الواضح. وكنت أجد صعوبة في التفكير. وأمامنا، كان بن يسير صامتاً، لكن خطواته صارت

الآن أبطأ من ذي قبل. كان بن قوياً، كان أقوانا. لكن، مع طول المسافة، صارت أنفاسه مرهقة، خشنة.

«آرتشي جونسون وأخواه. كان المال مالهم».

«أكره تلك الأسرة. أشخاص سيئون، سيئون جميعاً. إذا تشارلي ...». تقطع صوت ماي ولم تكمل جملتها.

«سيكون بخير، يا ماي، أليس كذلك؟»

لم تجبني. هممت بسؤالها من جديد، لكن أنوار سيارة قابلتنا في الظلام. أوقف الرجل ذو الشعر الأصفر سيارته الكبيرة كأنها سفينة.

«اصعدوا! سوف أنقلكم بقية الطريق».

جلست في المقعد الخلفي. مدد بن تشارلي ووضع رأسه في حضني. وضع قدميه في حضنه، وجلست ماي في المقعد الأمامي. لم يتحرك تشارلي أبداً. الصوت الوحيد كان خرخرة تنبعث من حنجرته أحياناً مع تنفسه. وصلنا إلى مخيمنا. سقط ضوء السيارة على النار فنهض كل من بابا وماما واضعين أيديهما على أعينهما، حائرين، غير قادرين على الرؤية. تعاون أربعتنا على حمل جسد تشارلي الهامد من مقعد السيارة الخلفي ووضعه في الكوخ. كانت ماما تصرخ طيلة الوقت، تسألنا عن السبب.

قال بابا متلعثماً، «ماذا ... تشارلي؟ ماذا، يا بن؟»

«كان يدافع عن فرانكي. ضربه أولاد جونسون».

على الفور، مضت ماي صوب الباب حاملة الدلو الذي نستخدمه لجلب ماء الشرب. جلست ماما على أرض الكوخ إلى جانب ابنها. يداها تمسحان رأسه. وقفت في زاوية الكوخ شاعراً

بالغضب يتنامى داخلي. كان كأنه يحرق جلدي ويجعل عضلاتي شديدة التوتر، توتر جعل أصابعي تنثني، جعل قبضتي يدي مشدودتين. استدرت كي أخرج وكنت مصمماً على العثور على آرتشي جونسون وضربه مثلما ضرب تشارلي. كنت أرى ذلك كله في رأسي. قبضتا يدي ملؤهما الغضب، وآرتشي عاجز أمامهما، خائف منهما.

قال لي بن بعد سنين من ذلك اليوم، «خيال مجنون. كان سيفعل بك مثلما فعل بتشارلي؛ فأين يصل ذلك بنا؟»

سرت فلم أتجاوز النار التي كانت قد هدأت بعد إهمالها عندما أوقفني بن. طوّق وسطي بذراعيه مثبتاً ذراعي إلى جانبي. ظل ممسكاً بي على هذا النحو من غير أن ينطق كلمة واحدة. أظنه حسب نفسه يقوم بأمر حسن، يمنعني من الذهاب كي أموت على أيدي أولاد جونسون. أظنه حسب أنني، إن أبقاني هناك، محبوساً بين ذراعيه، سأكون بخير، سأتجاوز الأمر مثلما يتجاوزه صبي مراهق عادي. ليته كان محقاً! بدلاً من ذلك، ظل غضبي محفوظاً كأنني وضعته في زجاجة. ظل حبيساً ثم خرج بعد ذلك بطرق سأظل خجلاً منها إلى أن يستلّ المرض آخر نفس من أنفاسي. لم أستطع أبداً أن أتصالح مع حقيقة أنني تركت تشارلي هناك، تركته وحيداً مع رجل ثمل لا يقوى على الوقوف، تركته كي يقاتل وحده. لم أستطع فهم سبب عدم بقائي معهم في ظلمة ظلال تلك الخيام، لماذا لم أقف إلى جانبه، لماذا لم أتلق قسماً من الضرب. لو توزعت لكماتهم علينا فلعله كان ممكناً أن ينتهي بنا الأمر حيين ... محطمين، بالتأكيد، وربما محرجين قليلاً، لكن حيين، حيين معاً.

بدموعها غسلت ماما وجه تشارلي المدمى وظلت تصلي فوقه ليل نهار، تصلي إلى أن يغلبها الإرهاق فتنام نوماً مضطرباً. «لا تذهب وتتركني، يا تشارلز مايكل. إياك أن تذهب وتتركني. استيقظ. أنا أمك، وأنا أطلب منك أن تفتح هاتين العينين، أن تنظر إلي».

لكنه لم يفتح عينيه. رحلنا عن ولاية مين وفي قلوبنا حزن ثقيل. لف بابا تشارلي بالبطانيات. حمله مع بن ووضعاه برفق على فراش. كنت قد أخرجت ذلك الفراش من الكوخ؛ واستخدمتْ ماما أحزمة وحبالاً كي تثبته في صندوق الشاحنة الصغيرة. جلست إلى واحد من جانبي الفراش، وجلس بن إلى الجانب الآخر. كنا ممسكين به كي يظل ثابتاً مكانه، وكنا نحدق في تشارلي الذي أضاع تورم لحمه ملامحه كلها. تبعتنا ماي في السيارة. رحلنا عن الحقول أواسط شهر أغسطس، وانتقل الإشراف على العمال إلى شخص مكسيكي اسمه خوان.

لم أبحث عن الإخوة جونسون، لكن واحداً من الناس قال لنا عندما كنا نحزم أمتعتنا إنهم فروا صوب الحدود تماماً بعد ضربهم تشارلي حتى الموت. ظلت الحقول التي كانوا يعملون فيها مهجورة، وحل بالسيد إليس غضب لم يلبث أن ازداد عندما قال له بابا إننا راحلون في وقت مبكر. رأيت آرتشي بعد بضع سنين من ذلك، رأيته بعد خروجه من السجن بفترة بسيطة. كنت ماضياً على الطريق تاركاً ورائي كل شيء عرفته وكل شخص أحببته، وكان يحاول استيقاف سيارة على الطريق السريعة كي يذهب إلى نيو برونزويك. عرفته من مسافة بعيدة، عرفته لضخامته. عندما

رفع يده كي يستوقف سيارتي، انحرفت بتلك الشاحنة الصغيرة العتيقة متجهاً بها صوبه. قفز في الخندق عندما صرت على التراب المحاذي للطريق. أخطأته. لست أدري إن كنت قد تعمدت أن أخطئه، لكني أخطأته. لو تابعت المضي وصدمته فلعلي كنت أتابع سيري ولا أفكر بعد ذلك بآرتشي جونسون، لا أفكر فيه أبداً. بصرف النظر عن هذا ... آمل أن يكون قد أصابه كسر أو شيء من الأشياء أو، على الأقل، أن يكون قد بال في ملابسه. ينبغي أن ينزل به عقاب على ما فعله.

غادر تشارلي هذا العالم في مكان من الأماكن في نيو برونزويك. أظن أن كل حفرة على الطريق سببت له ألماً مع أن وجهه لم يُبدِ شيئاً من ذلك. بعد تجاوزنا الحدود بعشرين دقيقة، أطلق زفرة كان يمكن أن تجعل الغيوم تسقط على الأرض، لو كانت في ذلك اليوم غيوم. كان يوماً مشمساً، يوماً جميلاً، يوماً قاسياً. نظرت إلى صدره منتظراً أن يعلو مع تنفسه، لكنه لم يعلُ. نقر بن على النافذة الخلفية. أوقف بابا السيارة، وبدأت ماما تنوح. راحت تصرخ بين الأشجار في وقفتنا إلى جانب الطريق السريعة ... شقيقنا الميت في صندوق السيارة وأمنا الثكلى تقتلع الأعشاب الطويلة النامية بمحاذاة الطريق. امتلأ كفاها جروحاً. خطوط حمراء دقيقة متقاطعة على راحتي يدي أمي ... المرأة المؤمنة التي راحت تشتم كلّ شيء.

- 6 -

نورما

نوبات الصداع التي تصيب أمي كانت تتناقص كلما كبرت. لكن الصداع عاودها ذلك الصيف قبل أن أحزم حقيبتي حتى يوصلني أبي وأمي إلى بوسطن كي ألتحق بالكلية.

«نورما! ... من فضلك، قطعة قماش باردة من أجل رأسي. ضعي واحدة أخرى في الفريزر. سأضعها على رقبتي بعد أن تصير باردة». كانت راقدة في فراشها، مستلقية على ظهرها، كعباها متقاربان وأصابع قدميها متجهة إلى الجانبين. نظرت إلى أمي أول مرة منذ زمن بعيد. نادراً ما يرى المرء التغيرات في شخص من الأشخاص عندما يراه كل يوم. لم أكن قد انتبهت أن جلدها قد بدأ يتغضن، وأن بقعة بنية داكنة من بقع التقدم في السن بدأت تظهر على حنكها. لم أنتبه إلى بروز بطنها قليلاً، ذلك البروز الذي يأتي مع انقطاع الحيض ثم لا يزول. بدت لي شديدة الهشاشة؛ وعندما استدرتُ صوب الباب كي أخرج من الغرفة تبادر إلى ذهني أنه لا يجوز لي أن أتركها.

«بالتأكيد، يا أمي». ذهبت إلى المطبخ ورطبت بالماء قطعتي قماش، واحدة كي تستخدمها الآن وواحدة وضعتها في الفريزر. نظرت من النافذة فرأيت أبي يجز العشب في الحديقة. أصوات الصيف المريحة.

وضعت قطعة القماش الرطبة على عيني أمي واستدرت كي أخرج من الغرفة عندما سمعتها تهمس لي، «سوف أشتاق إليك».

رفعتْ ذراعها فوق رأسها. انحنيت وقبّلتها على خدها قبل أن أذهب وأغلق الستائر. انسللت إلى الممر كي أذهب إلى غرفتي وأنتهي من حزم حقيبتي.

على الرغم من أنها كانت تحاول إخفائي عن العالم بطرق كثيرة، فقد بدت لي مسرورة عندما أخبرتها أنني راغبة في الالتحاق بالجامعة في بوسطن. لعلها أحست راحة لأن هذا سوف يعفيها من مراقبتي في كل ثانية من ثواني يقظتها ومن التساؤل عما إذا كنت موشكة على فهم الأمر كله. أفكر الآن في تلك الأمور، في لحظات حياتي التي انقضت من غير أية إلماحة إلى الحقيقة. الآن، تستهلك تلك اللحظات قدراً كبيراً من وقتي عندما أتذكرها.

بعد دفني المهيب دميتي في فناء البيت الخلفي، صرت أمضي وقتي مع الكتب فلم تكن أمي شديدة السرور بهذا التحول. أظنها كانت تفضل بقائي على الدوام طفلة، لكني صرت شديدة الاستمتاع بقصص الساحرات والأرانب البيض والغواصات والفرسان. أظل ساهرة إلى أن يبدأ انبلاج نور الصباح ويتسلل إلى نافذتي، أظل سابحة في تلك العوالم الأخرى، تلك العوالم الحية المختلفة كثيراً عن عالمي. كنت أتابع التحريات البوليسية مع نانسي درو وأقرأ قصصاً خيالية من مجموعات مترجمة عن اليابانية والإسبانية أهدتني إياها أليس. كان بيتي المغلفة جدرانه بألواح خشبية داكنة، بيتي المفتقر إلى الألوان، الهادئ دائماً، صحراء للمخيلة. لكن مخيلتي نمت بفضل الكتب. عندما تكون طفلاً وحيداً نصف محبوس في بيتك، يصير الكتاب أكثر

من أوراق بين دفتي غلاف، أكثر من أحرف أبجدية منتظمة في كلمات مطبوعة على الصفحات.

ولما أصرت أكبر سناً وبدأت أتجول في العالم حرة أكثر، ولو قليلاً، تراجع اعتمادي على الكتب. صرت أخرج أحياناً في مواعيد عارضة مع بعض الفتية، واخرج مع جانيت، صديقتي الأولى، صديقتي الحقيقية الوحيدة. في سنتنا الأخيرة في المدرسة، كانت لدينا فتيات بدأن التخطيط للزواج أو بدأن الاستعداد للعمل مع آبائهن في مكاتبهم البسيطة ذات النوافذ المصنوعة من خشب تركيبي، نوافذ تصدر عنها أصوات طقطقة عند فتحها. لكني كنت عاجزة عن تخيل أن تمضي حياتي على هذا النحو، أن أخرج من عملي آخر كل نهار فائحة مني رائحة القهوة البائتة ودخان السجائر. أتزوج في العشرين، وأستقر! كان هذا يبدو لي استمراراً للحياة التي أعيشها أصلاً. لم أكن واثقة مما أنا راغبة فيه، لكني كنت واثقة من أنني غير راغبة في هذا. على الأقل، ليس بعد.

بقيت مقيمة في البيت ثلاث سنين بعد إنهائي المدرسة الثانوية، وعملت في سوبرماركت قريب. كنت مدركة أن علي أن أترك بيت أبي وأمي لكني أردت أن أكون واثقة من المكان الذي أذهب إليه. صار حبهما أخف وطأة علي، لكني ظللت أحس نفسي مراقبة، محروسة كأنني سر من الأسرار، وذلك حتى بعد أن بلغت من العمر ما يسمح لي بأن أقود سيارة، ثم بأن أدلي بصوتي في الانتخابات، وأخيراً بأن أشرب وأزيح آخر بقايا الطفولة بكأس باردة من البيرة. وبدورها، اختارت جانيت أن تظل في

المدينـة. كانـت غيـر مهتمـة بالذهـاب إلـى الجامعـة فتولـت وظيفـة مسـاعدة رعاية صحيـة فـي بيـت «شـيدي أوكس» للمتقاعديـن. بدأت عملهـا فـي اليـوم الـذي تـلا تخرجهـا فـي المدرسـة، وعملـت فـي وحـدة المصابيـن بالخـرف. أتذكـر كيـف سـاعدتها، قبـل رحيلـي إلـى بوسـطن، فـي الانتقـال مـن بيـت أهلهـا إلـى شـقة خاصـة بهـا كانـت قبـواً للعازبيـن لـه سـقف منخفـض ونوافـذ أفقيـة ضيقـة. أدخلنـا الصناديق وفتحنـا النوافـذ كـي نتخلص مـن رائحـة العفونـة، ثـم أكلنـا دونَتـس أتيـت بهـا مـن حيـث أعمـل.

سـألتني، «مـاذا سـتفعلين فـي المدينـة؟»، ثـم وضعـت فـي فمهـا مـا كان بقايـاً مـن قطعـة الدونتـس وأتبعـت ذلـك بجرعـة بيـرة.

رفعت كتفي. «أدرس. أتعرف على الناس».

غمـزت لـي بعينهـا. «وربمـا تلتقيـن رجـلاً ... ليـس واحـداً مـن أولئـك الفاشـلين الذيـن عندنـا».

فتحـت صندوقـاً مكتوبـاً عليـه «المطبـخ» وبـدأت أضـع الصحـون فـي الخزانـة. «ربمـا ... علـى مـا أظـن. مـن يـدري؟ إننـي فـي شـوق إلـى الخـروج مـن بيـت أهلـي».

قالـت جانيـت تناكفنـي، «ذلـك السـجن الـذي فـي شـارع ميبـل، رقـم 412. سـجن لينـور». تناولـت جانيـت صندوقـاً مكتوبـاً عليـه «الحمـام» وسـارت فـي الممـر.

غريب كيـف فقـدت جانيـت بتلـك السـرعة! تبادلنـا بضـع رسـائل، ثـم رأيتهـا عندمـا عـدت إلـى البيـت فـي أول عطلـة عيـد ميـلاد. وفـي آخـر المطـاف، صـارت غارقـة فـي حيـاة مدينتنـا ... أضاعتنـي، أنـا التـي رحلـت. اجتمعنـا مـن جديـد يـوم أوقفـت سـيارتي أمـام بوابـة

«شيدي أوكس» كي أترك هناك أمي مع حقيبتين اثنتين وعلبة فيها بضع صور وإنجيل. خرجت جانيت للقائنا، جسدها الذي كان رياضياً نحيلاً صار ملء الباب كله، والغضون حول عينيها صارت عميقة، داكنة، والشعر الرمادي عند صدغيها صار مثل الشعر الرمادي عند صدغي.

كان يوم ذهابنا إلى بوسطن دافئاً. سافرت مبكرة بضعة أيام كي أمضي بعض الوقت مع خالتي جون. أرادت أن تجعلني أرى المدينة قبل انتقالي إلى مهجعي في الجامعة. وعدتني بوجبات العشاء وبجولات في المدينة التي أحبتها، وبأحاديث مناسبة من أجل امرأة صارت في الجامعة. أنزلت زجاج نافذة السيارة واستنشقت رائحة العشب المجزوز وعوادم السيارات والأزهار والبول وكانت السيارة تعبر الجسر داخلةً المدينة، متجهة جنوباً. لقد ذهبت إلى بوسطن من قبل، ذهبت كي أمضي عطلة نهاية الأسبوع مع خالتي جون أو كي أتحدث مع أليس؛ لكن إحساسي هذه المرة كان مختلفاً. سوف تصير هذه المدينة موطني خلال بضع سنوات قادمة. فالمكان، مثله مثل الإنسان، تصير له طبيعة خاصة عندما تكون موشكاً على معرفته معرفة قريبة. وددت أن أحفظ في ذاكرتي كل تفصيل من التفاصيل. وددت أن تتملى عيناي كل مبنى وكل جسر، كل حديقة وكل شخص سائر من مكان إلى مكان.

كانت خالتي جون تعيش وحدها في جامايكا بلين؛ وكانت عندها سمكة ذهبية خالدة اسمها هنري.

«هنري مع حرف i. ففي الحقيقة، هذه سمكة فرنسية».[1]*

كانت تحكي لي هذه النكتة منذ زمن بعيد إلى أقصى ما أستطيع تذكره. وكلما أتيت في زيارة، تبدو السمكة هنري مختلفة. عندما كنت طفلة، كانت خالتي قادرة على إقناعي بأن السمكة هنري تتكلم الفرنسية، لكن معها وحدها، وبأنها قادرة أيضاً على تغيير لون جلدها مثلما تشاء. وقد صدقتها. أدت محبتي قراءة الكتب ومحبتي القصص التي ترويها خالتي جون إلى تنمية مخيلتي ووفرت لها تغذية لم تكن متوفرة في بيتنا. ولعل حبي القصص الجيدة كان سبباً في اختياري مساري المهني في ما بعد.

تعلمت أن من الناس من يكون مقدراً لهم قراءة أعمال عظيمة، وأن من الناس من يكون مقدراً لهم أن يكتبوا تلك الأعمال. قررت عندما كنت صغيرة أن في وسعي أن أصير الكاتبة الأميركية العظيمة التالية. لكن سنين كثيرة انقضت فلم يتيسر لي، مهما حاولت، النفاذ إلى ذلك المكان الأسطوري حيث تسكن الحكايات منتظرة أن يعثر الشخص المناسب عليها ويمنحها شكلاً. ففي مكان من الأماكن بين الفكرة والحبر، كانت القصص الكامنة في مخيلتي تتفكك وتطير في الأثير. الدفاتر التي أعطتني إياها أليس واقترحت علي أن أسجل فيها يومياتي كانت غاصة بعبارات مبتذلة وبسخافات المراهقة، وكانت فيها أيضاً إشارات عارضة إلى أحلامي أو إلى إهانات متخيلة تلقيتها من أولاد وبنات كنت

(1) * اسم هنري يكتب بالإنجليزية (Henry)، ويكتب بالفرنسية (Henri).

أحسبهم أصدقاء لي. وكنت مقتنعة بأن ما من شيء في تلك اليوميات يمكن أن يكون جديراً بالقصص التي حسبت أنني قادرة على أن أرويها. ليتني أستطيع العودة إلى تلك الفتاة التي تكتب عن أحلامها في يومياتها كي أقول لها إن عليها أن تكون أكثر اهتماماً بما تكتبه، أن تمعن النظر في الصور التي ترسمها إلى أن تستطيع التذكر. لكنني غير قادرة على هذا. لذا، ذهبت إلى بوسطن كي أتعلم كيف أعلّم ما قاله أشخاص آخرون.

كانت خالتي جون في انتظارنا عندما وصلنا في ذلك اليوم الصيفي الدافئ. كانت جالسة على الشرفة الأمامية في بيتها الكبير ذي اللون الأصفر، ذلك البيت القائم على مقربة من شارع رئيسي. يستطيع المرء رؤية أن ذلك البيت كان رائعاً في يوم من الأيام. الأفاريز المصنوعة من خشب داكن اللون، والأرضيات، والنوافذ ذات الحواف المقوسة ... كان ذلك كله يروي قصصاً عن نساء في فساتين طويلة وعن رجال يرفعون قبعاتهم عندما يمر بهم الناس. كان المبنى ملكاً لخالتي جون، وكانت تعيش في الطابق الأول وفوقها شقتان اثنتان. رجل اسمه ليونارد يسكن الطابق الثاني. كان يجلس مع خالتي ويكثران من شرب الشاي معاً في الأيام المطيرة. أظنني عرفت ليونارد منذ أن عرفت خالتي جون. وكانت في الطابق الثالث أسرة من ثلاثة أشخاص تملك مخبزاً صغيراً. كانوا يجلبون معهم في المساء بعض الخبز الفائض من أجل خالتي جون ومن أجل ليونارد. أظن أن ابنهم كان معجباً بي. اسمه بويد؛ لم يبلغ الثانية عشرة. يتورد وجهه كلما رآني وتتجمد الكلمات على لسانه. كان هذا ظريفاً؛ وسوف أعترف بأن الأمر أعجبني قليلاً.

«ظننت أنكم تأخرتم كثيراً وأنكم لن تصلوا أبداً؛ لكنكم لم تتأخروا». هسهست تنورة خالتي جون عندما أتت إلي وعانقتني. همست في أذني، «سوف نستمتع كثيراً»، ثم عانقت أختها وحيت أبي بإيماءة من رأسها. «أنتما الاثنان تستطيعان الانصراف الآن».

عدت إلى صندوق السيارة كي آخذ حقيبتي.

«يا إلهي! جون ... لا تتعجلي سرقة ابنتي مني!». حاولت أمي أن يكون هذا نكتة، لكن الكلمات بدت كأنها قد علقت في حلقها.

«إذاً، ادخلا كي تشربا فنجان شاي قبل عودتكما».

غمزت لي خالتي جون بعينها قبل أن تطوق خصري بذراعها تاركة أبي وأمي كي يجلبا أمتعتي من السيارة إلى البيت. رحلا بعد ثلاث ساعات، بعد أن ذرفت أمي دموعاً وأتتها نوبة صداع. رحلا وتركاني من غيرهما، تركاني حقاً أول مرة في حياتي كلها.

بدأ اليوم التالي غائماً منذراً بالمطر، لكن الشمس هزمت الغيوم عند الضحى فرأت خالتي جون إن الوقت مناسب لأن نخرج معاً كي أرى حيها. سرنا إلى حديقة قريبة ومضينا بمحاذاة بركة ضخمة تحف بها الخضرة من كل جانب. كانت الحديقة نفسها قد تحولت إلى مخيم مؤقت فيه خيام من النايلون منصوبة عند حافة البركة وتحت الأشجار. كان الناس جالسين على الأرض وعلى بطانيات ... يأكلون ويدخنون السجائر. لافتات تطالب الحكومة بأن تعيد إليهم الأرض المسروقة منهم كانت مغروسة في الأرض أو معلقة على جوانب الخيام. نساء سمر الجلود لهن ضفائر من شعر أسود منسدلة على ظهورهن جالسات مع رجال سمر الجلود؛ وشفاه الجميع منشغلة بما بدا لي أحاديث جادة.

«ما هذا كله؟»

«إنهم يحتجون».

«يحتجون على ماذا؟»

«لماذا لا تذهبين إليهم وتسألينهم».

كنت غير قادرة على تخيل أن أبادر شخصاً غريباً بالكلام، لكن فضولي كان حقيقياً. ما من احتجاجات في مدينتي الصغيرة لأننا كلنا نسخ تكاد تكون مكررة، ولأننا كلنا نفكر بطريقة واحدة. إن كان ثمة من يفكر تفكيراً مختلفاً، فهو يفعل هذا بصمت خلف أبواب مغلقة.

همست لها، «هل هم هنود؟».

ضحكت خالتي جون. كنت لا أعرف الهنود إلا من كتب المدرسة المتوسطة ومما أراه في التلفزيون. ضمن فهمي الضيق، كان وجود الهنود كله وتاريخهم كله زاخراً بمتوحشين جائعين إلى الحرب وبسحرة ونساء مثل بوكاهونتاس.

«صحيح. وهم بشر أيضاً، يا طفلتي. لست مضطرة إلى الهمس. يعلمون من هم، وأنا واثقة من أنهم سيكونون مسرورين بإخبارك عن سبب وجودهم هنا».

كنا قد بدأنا السير مبتعدتين عن الماء نمشي بخطوات بطيئة عائدتين إلى الشارع الرئيسي. على مقربة شديدة من دربنا، كانت امرأة جالسة عند باب خيمة حمراء وخضراء. وكان باب الخيمة نصف مغلق. رجل جالس، ظهره في اتجاهي. كانا يدخنان سيجارة مشتركة بينهما والمرأة تكلمه متحمسة، حركات يديها متناسبة مع التوتر الظاهر في وجهها، لكني كنت أبعد من

أن أستطيع سماع كلامها. كان الرجل جالساً على الأرض وقد ثنى ساقيه حتى صارت ركبتاه عند صدره. كان مصغياً إليها وقد أسند رأسه إلى ركبتيه. توقفت عن كلامها عندما رأتني أنظر إليهما. فقدت الشجاعة التي كنت أحاول استجماعها كي أكلمهما. نظرت المرأة إلى عيني مباشرة. ما كان في نظرتها أي قدر من العدوانية، لكني أضعت تماسكي والتفت إلى خالتي جون التي كانت في تلك اللحظة تكلم امرأة في سن الكهولة. خطوت جانباً على الرصيف كي أفسح متسعاً لمرور محتجين آخرين حجبوا عن نظري المرأة الجالسة عند الخيمة. بعد مرور الناس، رأيتها لا تزال جالسة تنظر وتلوح بيديها. أشارت في اتجاهي فالتفت الرجل متابعاً نظرة عينيها. رفعت يدي ولوحت بها تلويحة خجلى وتبادلنا النظرات لحظة من بين المحتجين الذين تواصل عبورهم ومن بين اللافتات المكتوبة باليد وصوت طبل يتردد في الهواء. من جديد، لوحت المرأة بيدها فأدركت أنها لا تلوح لي. كانت تشير إلى المرأة الواقفة مع خالتي، تريد منها أن تنضم إليهما. لكن المرأة وخالتي كانتا غارقتين في حديثهما. بقيت واقفة هناك، ذراعاي معقودتان أمامي لشدة حرجي. رحت أنظر إلى نبتة مزهرة تحاول النمو عبر شق في الأسمنت. أمضيت وقتاً في النظر إلى كل تفصيل من تفاصيل تلك النبتة. ثم رفعت رأسي فرأيت الرجل ينظر إلي وقد مال برأسه جانباً. نظرته متمعنة. اقتربت من خالتي جون لحظة بدأت تودع صديقتها.

نادى الاثنان معاً، «روثي!». وثب الرجل واقفاً على قدميه. «روثي!».

بدأ يسير في اتجاهي. ظننت لحظة أنه ينادي صديقة خالتي جون، لكن نظرة عينيه ظلت متركزة علي ففهمت أنه آتٍ إلي. مع اقترابه مني، أحسست ثقلاً على صدري وظلمة تحوّم عند أطراف مجال رؤيتي. اضطربت وبدت لي الأصوات كلها كأنها آتية من تحت الماء. في تلك اللحظة، أمسكت خالتي جون بيدي. أمسكتها بشدة، بشدة جعلت أطراف أصابعي تصير قرمزية اللون. أمر ما تغير في خالتي جون. أحسست ذلك الأمر، أحسست كهرباء مذعورة تسري من يدها إلى يدي عندما شدتني وسارت بي مبتعدة.

شدتني مبتعدة عن الجمع المحتشد، مبتعدة عن الرجل المقترب منا.

«خالتي جون ... ما الأمر؟»

«علينا أن نذهب. أحس أنني لست على ما يرام». كان وجه خالتي جون محمراً، وحاجباها متقوسين لشدة قلقها.

«لا بأس! فلنذهب!».

«روثي! انتظري!».

سارت خالتي جون خلفي حاجبة إياي عن نظر ذلك الرجل. الآن، صارت خطواتنا سريعة. ومن خلفي، سمعت الشابة الجالسة تصيح، «بن، أين أنت ذاهب؟»

تسارعت خطوات خالتي جون وراحت تنظر من فوق كتفها مع اقتراب الرجل منا. التفتُّ مرة أخيرة فرأيت نظرة عينيه البنيتين متركزة علي. عبرنا الشارع قبل أن يصل إلينا الرجل. بدأت أعود إلى رشدي بعد أن صار حشد المحتجين السائر في الشارع

فاصلاً بيننا. ازدادت سرعتنا فصرنا كأننا نجري. وكانت قبضة خالتي جون على يدي شديدة عندما التفت فرأيته يختفي ضمن موكب المحتجين الطويل. لكني ظللت قادرة على سماع صوته عبر قرع الطبل وهدير الناس. كان يصيح، «روثي! انتظري، من فضلك!». كاد مقدار ما حمله صوته من رجاء يائس أن يجعلني أتوقف كي أؤكد له أنه مخطئ، لكن خالتي جون شدتني إلى زقاق صغير فيه حاويات قمامة أمام صف من بيوت.

«كان هذا غريباً، أليس كذلك؟». كان في وجهها قلق ظاهر على الرغم من محاولتها إخفاءه بابتسامة معوجّة ... «فلنسر في اتجاه البيت. سنتوقف كي نشتري شيء نشربه. يا له من يوم حار. أنا سأدفع». من حيث كنا واقفتين في ذلك الزقاق، رأينا حشد المحتجين يمر في الشارع. كانت خالتي جون قد توقفت لحظة كي تلتقط أنفاسها ولم أر أثراً للرجل الذي اسمه بن.

توقفنا عند بارٍ إيرلندي قبل بضع كتل سكنية من بيت خالتي جون. كان فمي جافاً. حرقة في عينيّ بعد انتقالي من ضوء الشمس إلى عتمة الظل في الداخل. صدمة الهواء المكيف جعلت قشعريرة تسري في جسدي. جلست خالتي على واحد من المقاعد العالية عند البار وجلست على المقعد المجاور. كان المكان فائحاً بروائح البطاطس المقلية والهمبرغر المشوي. طلبت لنا خالتي جون صحناً من البطاطس المقلية كي نأكله سوياً ومعه كأسين من نبيذ بينو غريغيو وكأسين من الماء.

بدأت ترشف من كأس النبيذ، وشربتُ كأسي الماء كلتيهما. كانت شديدة الاضطراب مثل أمي عندما تأتيني تلك الأحلام

الغريبة أو عندما تتأخر عودتي من المدرسة إلى البيت خمس دقائق. ظلت تلتفت صوب الباب كلما دخل المكان واحد من الناس، ثم تسترخي بعد أن يُغلق الباب من خلفه.

«هل أنت بخير، يا طفلتي؟»

أومأت لها برأسي وأنا أبتلع كأس ماء ثالثة. وضعت عاملة البار صحن البطاطس المقلية أمامنا فطلبت منها خالتي جون أن تعطيها خلاً.

«أنا بخير. كان ذلك غريباً. هذا كل ما في الأمر. تصرف ذلك الرجل كأنه يعرفني».

«لعلك شديدة الشبه بفتاة يعرفها». ابتسمت وهي تقول هذا، لكن صوتها الواثق عادة بدا لي مهتزاً.

«نعم؛ أظن هذا». تناولت رشفة من كأس النبيذ. أحسست طعمه الحامضي في حلقي فكشّرت قليلاً. «نبيذ جيد!».

«ليس للمتسول أن يختار. أنا التي أدفع الحساب». ضحكت خالتي جون فبدأ توتر ذلك اليوم ينقشع عني. إن في خالتي جون شيئاً يجعل عضلاتي تسترخي، ويجعلني أكف عن الصر على أسناني.

«على أية حال، ما موضوع احتجاجهم؟ لم تسنح لي فرصة طرح هذا السؤال».

«المعاملة غير المنصفة. لسنا طيبين مع الهنود».

مال عامل البار صوبنا. كان يسترق السمع إلى حديثنا. قال، «أظن أننا أكثر من طيبين معهم. نساعدهم في حين لا يساعدون أنفسهم. ماذا يريدون أكثر من هذا؟».

«أوه، يا عزيزي! أظن أن عملك مقتصر على أن تجلب لنا شرابنا!». وضعت خالتي جون كأسها الفارغة على البار ودفعتها في اتجاهه. رفع كتفيه وصب لها كأساً أخرى. أمضينا طيلة فترة بعد الظهر في أكل الفستق وطلبنا صحناً من البطاطس المقلية لكن مع تشيز برغر هذه المرة؛ طلبناه مقطوعاً نصفين كي تأخذ كل منا حصتها. أعترف أنني لا أتذكر الكثير مما جرى بعد كأس النبيذ الرابعة. لكني أتذكر كيف أخبرت خالتي جون بصديقة طفولتي ذلك الصديق الذي نسيت أمره بعد أن سمحوا لي بالذهاب مع جانيت إلى المخيم. قلت بصوت جعله النبيذ متراخياً، «كان لي صديقة خيالية عندما كنت صغيرة». مددت يدي إلى كأس الماء.

«يكون لدى معظم الأطفال أصدقاء خياليون. كان لأمك فأر خيالي تتهمنا بأننا نحاول قتله عندما نجلس على 'كرسيه'». ضحكت خالتي لتلك الذكرى. لكني وجدت صعوبة في أن أمي كانت لها مخيلة.

«كان اسمها روثي». تناولت رشفة من كأس الماء. نظرت إلى الماء المتكثف يسيل على الكأس في حين تململت خالتي جون في جلستها ... «ألا ترين هذا أمراً غريباً؟ صديقتي المتخيلة كان اسمها روثي؛ وذلك الرجل ناداني باسم روثي».

«هذه مصادفة، لا أكثر». مسحت خالتي يديها بمنديلها.

«نعم، أظن هذا». انفتح الباب وانسكب ضوء النهار في الصالة المعتمة ... «لكنه أمر غريب فعلاً».

«يـا طفلتـي، سـوف أطلـب منـك معروفـاً، وعليـك أن تعدينـي بفعل ما أطلبه منـك». طلبت كأس نبيذ أخـرى ... «لا تسـأليني عن السـبب. هـل اتفقنـا؟»

«اتفقنا». مددت إصبعي الصغير وشبكته بإصبعها.

«لا تخبري أمك أبداً بما جرى اليوم».

قلت مترددة، «لا بأس. لكن، لماذا؟»

«قلت لك ألا تسألينى عن السبب. وقد وعدتني بذلك».

رفعت كتفـي وشـربت مـا كان باقيـاً فـي كأسـي مـن مـاء. دفعت خالتـي جـون الحسـاب لعامـل البـار، ثـم أنهـت كأسـها جرعـة واحـدة ونزلـت عـن كرسيها. لا أتذكـر شـيئاً مـن طريـق عودتنـا إلـى البيت، لكنـي أتذكـر أننـي اسـتيقظت فـي وقت مـن الأوقـات في الليل وتقيـأت فـي الحمـام الصغيـر. كانـت بـرودة البـلاط إحساسـاً لطيفـاً علـى جلـدي. وقـد وجدتنـي خالتـي جـون نائمـة هنـاك قبـل شـروق الشـمس وأعانتنـي علـى العـودة إلـى الفـراش. شـربت نبيـذاً قبـل ذلـك، لكنهـا كانـت أول مـرة أسـكر فيهـا. ظلـت ذكـرى ذلـك اليـوم وذلـك الرجـل ذي العينيـن الداكنتيـن الـذي ناداني باسـم روثي خبيئـة فـي مـكان مـن الأماكـن فـي أعمـاق عقلـي، ظلـت خبيئـة عشـرات السـنين مثلهـا مثـل بقيـة الأمـور التـي ينبغـي أن أتذكرهـا، لكنـي لـم أتذكرهـا.

انقضـت سـريعاً سـنتان اثنتـان مثلمـا ينقضـي الوقت سـريعاً عندمـا يكبـر الإنسـان. ومـع تقلـص عـدد الطلبـة فـي صفوفـي، التـي صـارت أكثـر تخصصـاً، انتهـى بـي الأمـر إلـى عـدد محـدود مـن الأشـخاص الذيـن أعرفهـم فـي كل صـف: أنجيـلا، الشـاعرة التـي كانـت مجنونـة بحـب شـاعر آخـر اسـمه آنـدرو مـع أننـي واثقـة بأنـه كان شـاذاً ومـن

أنه كان واقعاً في حب البروفسور وولدرز؛ وترينتي التي كان اسمها يربكني وكانت مشغوفة بغابرييل غارسيا ماركيز فاتخذت قرارها بأن تدرس تخصصين اثنين، الأدب الإنكليزي واللغة الإسبانية كي تستطيع ذات يوم أن تقرأ كتاباته بلغته الأصلية؛ وجورجيا التي هي من ولاية جورجيا (وكان هذا يضايقها فجعلتنا نخاطبها باسمها الأوسط، ديزيريه). كانت تحب أدب الجنوب وحاولت أن تجعلني مثل فولكنر، لكنها فشلت. صرنا صديقتين، أنا وديزيريه. وقد جمع بيننا حبنا المشترك للوحدة وللهدوء. كنا نمضي أوقاتنا معاً من غير إكثار من الثرثرة والضجيج. لم أسألها يوماً عما جعلها تؤثر الهدوء، ولم تسألني أبداً ... كان هذا عاملاً مشتركاً بيننا، لا أكثر. وهكذا، صرنا صامتتين، لكن من غير أن نكون وحيدتين. وبعد ذلك، مثلما جرى مع جانيت، انتهت آخر الأمر روابط صداقتي غير المتينة مع ديزيريه. وبعد تخرجنا، انقطع التواصل بيننا. بدا لي أنني غير قادرة على التمسك بأي شخص، عدا أفراد عائلتي.

كنت في القطار عائدة إلى المدينة بعد عطلة عيد الميلاد عندما جلس مارك إلى جانبي. وكنت أنظر عبر النافذة مستمتعة بالألق الذي تلقيه شمس الشتاء على الحقول المكسوة ثلجاً. كنت غارقة في أفكاري.

«عذراً!».

التفت صوب صوته، لكن أشعة الشمس المنعكسة على الثلج أعمت عيني فجعلته أشبه بشبح ... نور عند الحواف وظلمة غير واضحة المعالم في الوسط.

«هل أستطيع الجلوس هنا؟».

رفعت عيني كي أقيهما ذلك الألق، كي أستطيع النظر إليه.

«بكل تأكيد». ثم عدت إلى النظر من النافذة.

«اسمي مارك».

التفت إليه، «نورما».

«يسرني لقاؤك، يا نورما».

لم أدر إن كان علي أن أعاود الالتفات صوب النافذة أم أظل على حالي وأنظر إليه. عندها، راح يضحك ... ضحكة عميقة ناعمة.

«الحقيقة أن ذلك كان غير مريح. فهل نتابع؟»

«أشحت بوجهي عن النافذة من جديد فبدت لي ملامحه أكثر وضوحاً. شعر أسود داكن وعينان زرقاوان ... شيء كنت أجده جذاباً، لكنه محير في الوقت عينه. كان حليق الذقن، شعره مقصوص قصيراً، ليس على الطريقة العسكرية، لكنه أنيق. كان مرتدياً بنطلون جينز وقميصاً ذا أزرار عليه خطوط زرقاء وبيضاء. وكنت موقنة من أنه يفعل ما أفعله تماماً، يدرسني ويحاول استنتاج إن كنت سأعود إلى النظر من النافذة. لم أعد إلى النظر من النافذة.

ظل يتكلم طيلة رحلتنا؛ وقد فوجئت عندما أعلنوا أننا اقتربنا من بوسطن.

«ما رأيك في أن نتناول طعام العشاء معاً في وقت من الأوقات؟»

«بالتأكيد. يعجبني هذا».

أنـزل مـارك حقيبتـي عـن رف الأمتعـة ووضعهـا علـى المقعـد الـذي كان جالسـاً عليـه. حملـت الحقيبـة وتبعتـه فنزلنـا مـن القطـار وصرنـا علـى رصيـف المحطـة.

«ما رأيك أن نذهب الآن؟».

«الآن!؟»

«لـم لا؟ لا أريـد أن تذهبـي ثـم تنسـي كـم أنـا مثيـر للاهتمـام». غمـز لـي بعينـه.

«لا بأس».

أكلنـا فـي مطعـم صغيـر قريـب جـداً مـن محطـة القطـار. كان ذلـك وقـت العصـر. لـذا، كان المطعـم شـبه خـالٍ مـن النـاس. جلسـنا فـي مقصـورة فـي آخـر الصالـة وتشـاركنا وجبـة مـن أجنحـة الدجـاج والجبـن المقلـي المغلـف بعجينـة هشـة.

كان مـارك أكبـر منـي ببضـع سـنين، وكان يعمـل فـي قسـم المحاسـبة في شـركة للمحامـاة في بوسـطن. يلعـب كـرة القـدم في عطـلات نهايـة الأسـبوع ويقـرأ كثيـراً. خـلال تلـك السـاعات القليلـة، وجـدت نفسـي مرتاحـة معـه إلـى حـد جعلنـي أناكفـه سـاخرة من ولعـه بقصـص الخيـال العلميـة وغيـر العلميـة. وقـد ضحكنـا. كان الضحـك شـديد النـدرة فـي حياتـي فأحسسـت غرابـة فـي أن أضحـك بصـوت مرتفـع هكـذا، ثـم أحسسـت أن الضحـك يحررنـي.

عندمـا توقفـت سـيارة التاكسـي أمـام مـكان سـكني كـي أنـزل منهـا، نـزل بـدوره كـي يناولنـي حقيبتـي.

قال لي، «أتمنى أن نستطيع فعل هذا مرة أخرى».

«وأنا أيضاً». أعطيته رقم هاتفي فمال صوبي كي يقبلني. لا أحب التعابير التي يكررونها دائماً، لكني كنت واثقة من أن دواراً قد حل بي لحظتها ... لا من البيرة، بل نتيجة قربه مني.

في حضور مارك، كنت أصير نورما التي تضحك أمام الناس، نورما التي تكلم الغرباء في صف الانتظار في متجر البقالة، نورما التي ترقص في البار بعد بضعة كؤوس. ظللت على حنيني إلى هدوء المكتبة أو إلى سكون بعد ظهر يوم الثلاثاء في المهجع عندما يكون الجميع في الصف وإما في المكتبة يدرسون. ظللت أتصل بديزيريه، وظللنا نخرج إلى المقاهي وندرس معاً. بعض الأحيان، كان يعاودني خوفي من الوجود مع أشخاص آخرين، لكن مارك فهمني وأرغمني إرغاماً لطيفاً على أن أخرج من قوقعتي. يمسك بيدي ويقودني إلى مجموعة من الناس في حفلة من الحفلات ... كنت أحب هذا. كان وجهي يتورد خجلاً، لكن يده المستقرة على أسفل ظهري تهدئني بما يكفي لأن أكون اجتماعية، لأن أكف عن كوني تلك النسخة الغريبة عن ذاتي ... عن كوني أمي.

أخذت مارك إلى بيت خالتي جون لتناول العشاء يوم الجمعة، وكان ذلك بعد ثمانية أشهر من تعارفنا.

قالت له خالتي جون لحظة دخولنا باب بيتها، «جميل، جميل! ها نحن نلتقي أخيراً». قالتها كمن يكلم شخصاً يعرفه.

قلت لها، «يا خالة جون، تبدين كأنك الشخصية الشريرة في قصة خيالية».

تجاهلتني وأمسكت بذراع مارك وقادته إلى غرفة الطعام حيث كانت كل من أليس وديزيريه جالستين إلى الطاولة. زجاجة نبيذ أحمر كانت مفتوحة قبل وصولنا ... نصف فارغة.

طبعت قبلة سريعة على وجنة أليس. قلت لها، «أرى أنكم بدأتم من غيرنا».

«مقبّلات، يا عزيزتي».

ضحكت وقلت لها، «الآن ... أنت التي تبدين مثل شخصية شريرة في قصة».

انقضت الليلة سريعاً. أتذكر تلك الليلة وأعتقد أنها قد تكون أسعد ليلة في حياتي كلها. أشخاص أحبهم. نتناول الطعام معاً ونترك النبيذ يجعلنا سخفاء. حكينا قصصاً؛ وضحكنا. وكان مارك يكثر الابتسام إلى حد ظننت معه أن فمه سينشق عند نهايتيه. انتبهت في اليوم التالي إلى أنني لم أفتقد وجود أبي وأمي مرة واحدة، لم أتمن مرة واحدة لو كانا موجودين معنا. عندما استيقظت، وكان فمي جافاً وأجراسٌ ترن في رأسي، بدأ ذلك الإحساس المألوف بالذنب يحرق أفكاري وبدأت أحس ضيقاً وانزعاجاً. كنت أترك إحساسي بالذنب لاستمتاعي بالحياة من غير أبي وأمي يفسد سعادتي. بقيت منحرفة المزاج ذلك اليوم كله، ثم ازداد مزاجي سوءاً في المساء عندما جررت مارك إلى أمسية شعرية لآندرو.

لم أكن معجبة بشعر آندرو، لكني ذهبت مساندة له لأنه زميلي في الصف. أخذت مارك معي ظناً مني أنه قادر على مقاسمتي بؤسي. جلسنا على الكراسي الخشبية المزعزعة في الصف الأخير، وكانت أنجيلا جالسة إلى الناحية الأخرى من مارك. عرّفتها عليه وعرفته عليها. راحا يثرثران من غير تأخير كأنهما صديقان منذ سنين. كرهت ذلك اليسر بينهما وحسدتهما عليه. جرى الحديث

بينهما طبيعياً كأنهما ليسا شخصين التقيا منذ قليل فقط. حاولا إشراكي في حديثهما، لكني أحسست نفسي متطفلة، أحسست كمن تسترق السمع إلى حديث شديد الخصوصية مع أنه لم يكن كذلك أبداً. تحدثا عن عمله واكتشفت أنه غير مبالٍ بمديرته ... امرأة اسمها أنجيلا أيضاً. وخلال الساعة التي تلت ذلك، كانا يتبادلان همسات إعجاب بالشاعر. وكنت جالسة، عيناي صوب صدر الصالة، ويد مارك على ركبتي. ليس سهلاً أن أغضب، لكن الهمس كان سجالاً بينهما فأحسست انزعاجي يتنامى، أحسست غصة صغيرة في بطني، غصة راحت تنمو مثلما تنمو كرمة إلى أن بلغت صدري، إلى أن بلغت وجهي. وكنت مدركة أن هذا أمر لا علاقة له بمارك ولا علاقة له بأنجيلا.

«لا أستطيع قراءة ما في عقلك، يا نورما. أنت التي أخذتني إلى أمسية شعرية مع أصدقاء لك. فهل أردت أن أجلس هناك من غير أن أظهر لهم أية مودة؟»

«لا، بالطبع لا».

«هل هذه غيرة؟». كنا سائرين معاً بعد أن تركنا المقهى وتركنا أنجيلا. كانت في صوته رنة عجب ومزاح. «هل غرت؟»

«لم أغر. انزعجت لأنكما ظللتما تتكلمان طيلة الأمسية». ازدادت خطواتي سرعة.

«لقد غرت». صار الآن كأنه يرقص. بدأ يسير خلفاً كي يظل في مواجهتي ... «اتضح في النهاية أنك تحبينني».

«أنت تضايقني. سر مثلما يسير الناس».

«لقد غرت. أريد منك أن تعترفي بهذا».

رمقته بنظرة كان ممكناً أن تقول عنها أمي إنها قادرة على قتل رجل. لم تقتله نظرتي.

«اعترفي». كان في صوته ما يكاد يكون غناء. أحسست أن أسواري بدأت تتهاوى.

«لا بأس! لقد غرت قليلاً. والآن، ألن تستدير وتسير معي؟»

«أظن أنك تحبينني، يا نورما».

«قلت لك من قبل إنني أحبك».

«صحيح، لكن لدي الآن إثبات عاطفي».

مكتبة
t.me/soramnqraa

«الغيرة ليست حباً».

«بل أظنها حباً. وسوف أعتبر هذا تأكيداً».

«تأكيد على أي شيء؟»

«تأكيد على أنني اتخذ قراراً صحيحاً».

سرنا يداً بيد وسمحت لنفسي بأن أبتسم، بأن أكون مع مارك فحسب، بأن أستمتع بهذه اللحظة المثالية. إحساسي بالذنب الذي حملته معي طيلة النهار ذاب في هواء شهر أغسطس الدافئ.

كنت في بيته بعد ثلاثة أسابيع من ذلك، أعد الطاولة من أجل وجبة العشاء. لا تزال لدي غرفتي في السكن الجامعي، لكني صرت أمضي معه الشطر الأكبر من وقتي. أعددت وجبة سباغتي كاربونارا؛ وكنا نتكلم في أمور لا أهمية لها عندما رأيته يضع على الطاولة خاتماً، يدفعه ويتركه إلى جانب صحني. كانت شوكتي في منتصف الطريق إلى فمي. تدلت السباغيتي المغلفة بالجبن والبيض فوق صحني. رفعت نظري من الخاتم إلى مارك، ثم نظرت إلى الخاتم من جديد.

ابتسم مارك.

«إذاً، ما رأيك؟»

«ما رأيي في ماذا؟». ابتلعت ما بفمي، وأجبت ابتسامته بابتسامة.

«ما رأيك في أن تصيري زوجتي؟»

وضعت الملعقة والشوكة على الطاولة ومددت يدي إلى الخاتم. طوق ذهبي رقيق في وسطه ماسة مدورة واحدة. حملت الخاتم فلمعت الماسة في الضوء.

«هل أضعه في إصبعي؟»

«سأضعه بنفسي إن كانت إجابتك نعماً».

ابتسمت وقلت، «أظن هذا».

«سأعتبر إجابتك نعماً».

بعد بضعة أسابيع من تقدم مارك للزواج مني، تخرجت مبكرة فصلاً دراسياً كاملاً وصرت صاحبة إجازة جامعية في الأدب مع تركيز على التعليم. كانت محاولاتي في كتابة رواية عظيمة لا تزال مستمرة، لكني لم أفلح أبداً في ما يتجاوز كتابة بضع فقرات قبل أن أستسلم خائبة. كنت غير قادرة على الاهتداء إلى الكلمات المناسبة. بدا لي أنني أقسر اللغة قسراً. ما كنت في حاجة إلى كلمات من عندي أثناء دراستي لأن لدي مئات السنين من كلمات جميلة كتب أكثرها بشر ماتوا. والميت لا يعترض إذا تذكرناه وروينا قصصه. حاول مارك مساندة محاولاتي الكتابية بأن يشتري لي دفاتر وأقلاماً فاخرة. ولا تزال عندي حتى الآن مجموعة من تلك الدفاتر فيها مئات الصفحات البيضاء الخالية.

أتى أبي وأمي إلى بوسطن لحضور حفل التخرج. أقاما خلال عطلة نهاية الأسبوع عند خالتي جون وتعرفا على مارك. كانت تلك أول مرة يقابلانه. وكانت معرفتهما به مقتصرة على ما أقوله لهما عبر الهاتف. ترك لديهما انطباعاً حسناً فلم تأت نهاية ذلك الأسبوع إلا وقد صارا موافقين على خطبتنا. لدي صورة غالية أضعها إلى جانب صورة أمي على شاطئ البحر. في تلك الصورة، نحن واقفون تحت شجرة، أنا ومارك وخالتي جون وأليس وأمي وأبي. بقدر ما كانا يحاولان إخفائي، وبقدر ما جعلت أمي إحساسي بالذنب يشغل قدراً كبيراً جداً من ذاتي العاطفية، بقدر ما كنت أرى أنهما منحاني حياة جيدة وأساساً متيناً. في اليوم الذي أعقب تخرجي، حزمت أمتعتي وانتقلت إلى بيت مارك. كان اعتراض أمي الصامت مرسوماً على شفتيها المشدودتين. هي من جيل من النساء يعتبر «النسوية» كلمة سيئة. كان العيش في الخطيئة لا يزال فكرة تقض مضجعها. لكني كنت سعيدة، متطلعة إلى المستقبل، إلى بناء بيت كله ضياء، بيت يبتسم الجيران عند مرورهم به وسماعهم أصوات الضحك منبعثة من نوافذه. كنت مصممة على العيش حيث يتدفق ضياء الشمس عبر نوافذ ستائرها مفتوحة، حيث يلعب الأطفال في الفناء، حيث تشغل الصور حيزاً كبيراً جداً على الجدران، حيث تصير الأحاديث المهموسة شيئاً من الماضي. وقد اخترت مارك رفيقاً لي في تلك الرحلة.

- 7 -

جو

عند انقضاء كل يوم، يضع بن علامة «X» على التقويم الملصق على الجدار إلى جانب سريري. تقويم أتانا هدية من الكنيسة مع الأعياد الكاثوليكية كلها معلمة تعليماً واضحاً. تمتد علامات «X» المكتوبة بحبر كثيف أسود، تسير مع توالي أيامي الأخيرة. ومع إشغال تلك العلامات مساحة على الصفحة تتجاوز ما هو باقٍ فيها من بياض، أصير حبيس هذه الغرفة أكثر من ذي قبل، حبيس فراشي. حتى أدنى الحركات صارت مؤلمة لي. تخفف الأدوية ألمي لكنها تقلل قدرتي على السير من غير مساعدة. يساعدني بن وتساعدني ماي، لكن أكره أن أكون عبئاً عليهما فأظل ملازماً غرفتي وأرقب ضوء النهار يأتي ويذهب، أرقبه بعينين جعلتهما الأدوية غائمتين. وقت الظهر، يصير ضياء الشمس المنسكب عبر النافذة كاوياً. أحدق فيه إلى أن تُغمض عيناي رغماً عني. أنتظر حتى تخبو علامات الضوء على باطن جفني وتصير صفراء حليبية. ثم أفتح عيني وأكرر الأمر من جديد. أغفو أحياناً. وعندما أستيقظ، تكون الشمس قد هجرت إطار النافذة تاركة ضوء نهار خابياً. أحاول العثور على وضع أكثر راحة في فراشي فأسمع صوت ليا آتية في الممر. تأتي ليا كل يوم ثلاثاء عند الساعة الثالثة وثلاثين دقيقة. إنها وفية، وفية لي أكثر مما كنت وفياً لها. دفاعاً عن نفسي، إن كنت أستطيع دفاعاً، أقول إنني فعلت ما ظننته أفضل. رحلت. لكن الطريق إلى جهنم مبلطة بالنوايا الحسنة ... هذا ما تقوله ماما دائماً.

أقول لها قبل أن تدق الباب، «ادخلي».

«مرحباً، يا جو». تترك الباب مفتوحاً وتجلس على المقعد الوحيد الذي يتناوب عليه ماي وبن. لا تخاطبني أبداً بكلمة «بابا» وهذا ما يكسر قلبي؛ لكني لم أصارحها بذلك أبداً. تقول ماي إنه ليس لقباً أستحقه، ولعلها محقة في هذا. ورثت ليا عيني، لكن كل شيء آخر فيها يشبه أمها. سمرة جلدها خفيفة أيضاً، ليست مثل سمرة بقيتنا. أظن أن هذا سيكون مفيداً لها. وهي ذات جسد رياضي البنية ... شيء تكرهه. في المدرسة الثانوية، كانوا يطلبون منها أن تشارك في الألعاب الرياضية، لكنها تفضل الكتب وتفضل عزف الكمان. ترك لها جدها كمانه عندما مات، عندما لم أكن هنا، عندما كنت هناك في مكان من الأماكن حيث ينبغي أن أكون. كان ذلك حتى قبل علمي أن جزءاً مني قد صار يسير في هذا العالم. تقول لي إنها ليست شديدة البراعة في عزف الكمان وإن أذنها ليست موسيقية؛ لكني لا أستطيع التمييز. يبدو عزفها لي جيداً.

«كيف حال أمك؟»

«بخير. ربحتْ يوم الأحد أربعمئة دولار في البينغو. وسوف تدعونا، أنا وجيفري، إلى العشاء في الخارج».

لم ألتق جيفري هذا؛ لم ألتق جيفري قط. تقول ماي إنه جيد من أجل ليا؛ وماي لا يمكن أن تكذب في ما يتصل بها. لكنه لا يحبني مع أننا لم نلتق أبداً. يزعم أنني لا أستحق حب ابنتي التي لم أرعها أبداً. لعله محق في هذا، مثل ماي. لكني أحب أن تأتي ليا كي تزورني. كلما فتحت فمي أكون حذراً كي لا أقول

شيئاً قد يجعلها تبتعد عني. من الممكن أن يقتلني هذا قبل أن يقتلني مرضي.

أرتعش ... أمر يقع لي كثيراً حتى عندما تكون الشمس دافئة. تنهض ليا وتذهب إلى الخزانة كي تأتي ببطانية إضافية. أنا لست مؤمناً بالرب ... على الأقل، لست مؤمناً على طريقة أمي التي ظلت على إيمانها حتى بعد كل ما خسرته. لكن، لحظة تضع ليا البطانية على ساقي الضامرتين وتمد يدها تحت رأسي كي تعدل وسائدي، تسقط آخر أشعة ضياء بعد الظهر على الحذاء الصغير المستقر على أعلى رف من رفوف الخزانة.

«انظري إلى هذا!».

تلتفت ليا كي ترى ما أنظر إليه.

«ألا تناولينني هذا الحذاء الصغير، الحذاء ذا الدمية الموضوعة فيه؟»

تنهض ليا وتنزل الحذاء عن الرف. يتبعه أثر من غبار وهي تناولني إياه. رأس الدمية مائل جانباً والزرّان اللذان هما عيناها مرتخيان.

«كان هذا حذاء أختي روثي. ألم يخبرك أحد بأمر روثي؟»

تومئ برأسها. «الأخت الصغرى. تلك التي اختفت». تقول هذا كأنها تقرر واقعة، كأنها تقرأ شيئاً في واحد من كتب التاريخ، أمر بعيد عنها كل البعد ولا أثر له في قلبها. أظن أنك لا تستطيع حب شخص لم يكن في حياتك أبداً. فبالنسبة إلى ليا، ليست روثي إلا فتاة صغيرة في صورة غير واضحة ملتقطة قبل زمن طويل، قبل حتى أن تكون ليا فكرة في ذهن أي إنسان.

«صحيح ... تلك التي اختفت». أمر بيدي على جلد الحذاء الناعم لكثرة ما عليه من غبار ... «هل قالوا لك إنني كنت آخر من رآها؟». أستنشق نفساً عميقاً فأحس أنني غصصت به. أسعل سعالاً شديداً، أو... أسعل بأشد ما أستطيع الآن.

«لا. قالت لي عمتي ماي إنها اختفت عندما كنتم صغاراً، اختفت في ولاية مين. ويقول كيجو إنها لا تزال هناك». تتناول ليا منديلاً من علبة المناديل إلى جانب فراشي وتمسح اللعاب الذي سال من طرف فمي.

أهمس لها، «ماما لم تتخل عن الأمل أبداً».

«وهل تخليت أنت عنه؟ هل تظن أنها لا تزال هناك؟».

«هكذا كنت أظن. لكني ما عدت أدري. لا تظني ما سأقوله الآن أمراً غريباً، لكني مشتاق إليها، مشتاق إليها حتى في هذه اللحظة، حتى بعد هذه السنين كلها».

«لا أرى هذا غريباً».

أناولها الحذاء فتعيده إلى موضعه على الرف.

«هل أخبرك عمك بن أنه يظن نفسه قد رآها ذات مرة، في بوسطن؟»

«لا. هل تظن أنه رآها فعلاً؟»

«لا يزال حتى اليوم يعتقد أن هذا صحيح. اسأليه، وسوف يخبرك».

«لماذا لا تخبرني أنت؟»

لم نعد نذهب إلى ولاية مين بعد موت تشارلي، لم نعد نذهب إلى حقول التوت. لم يذهب أي منا في الصيف الذي تلا ذلك؛

والأرض التي كان بابا يديرها انتقلت إدارتها إلى خوان. كتب السيد إليس رسالة إلى بابا طالباً أن نعود، لكن ماما لم تقبل أبداً. لقد انتزع ذلك المكان اثنين من أطفالها. لا تريد المغامرة بأكثر من ذلك. إن شئت الصدق، فأظن أن تركنا تلك الحقول خلف ظهورنا كان راحة لنا. بلغت السادسة عشرة فبدأت أقوم بعمل تشارلي في طلاء البيوت في المدينة، وعملت ماي عند موقف التاكسي حيث صارت تبيع البطاطس المقلية والهامبرغر. يشتريها رجال ينادونها «سكواو»[1]* ويضحكون. تتجاهلهم غالباً، لكنها تبصق في قهوتهم أحياناً.

كبرنا وصغرت أسرتنا. بقيت مع ماي نرقب أبانا وأمنا يشيخان، نرقب كتفا ماما تتهدلان أكثر فأكثر، ونرقب يدا بابا تعاني عندما يعمل في فأسه. فضلاً عن طلاء البيوت، عملت في المطحنة خلال الشتاء، أعمل من مطلع الشمس حتى مغربها. وفي الربيع، قبل أن يغدو الطقس دافئاً بما يكفي لطلاء البيوت، كنت أترك العمل في المطحنة وأستوقف سيارة ذاهبة إلى ولاية مين كي أبحث عن روثي. أمضيت على هذا النحو بضع سنين، لكنها كانت سنيناً كثيرة أمضيتها في العيش بمفردي، ثم أعود إلى البيت عندما يطردونني لأنني نسيت دفع الإيجار أو لأنني كسرت النافذة بعد أن خرجت ونسيت مفاتيحي في البيت. كانت هذه الأمور الصغيرة تغذي غضبي منذ موت تشارلي. عندما لا تعمل ماي، تمضي وقتها في مغازلة كل رجل تصادفه. على الأقل،

(1) * سكواو: كلمة تعني امرأة أو فتاة من السكان الأصليين.

كانت تعيش بمفردها في شقة في المدينة فيها فئران وفيها حمّام غزاه العفن، لكنها كانت شقتها. ما كان أي منا قادراً على العثور على شخص يحبه، أو على شخص يبقى معه، على الأقل. بدا لنا أن لعنة قد حلت بنا.

كان بن قد عاد معنا إلى ديارنا. كان جالساً معي في صندوق السيارة الصغيرة ممسكاً بيدي. ظل كي يعمل قليلاً في المطحنة مع بابا. لكن هذا العمل لم يرق له فاستلم راتبه الأخير وفوقه بضعة دولارات من بابا وعاد إلى بوسطن مع بعض أصدقائه. أعجبته بوسطن كثيراً فقرر أن يبقى هناك. أظن أن بقاءه كان بسبب فتاة نيبموك[1]* التقاها هناك في واحدة من تلك المظاهرات الاحتجاجية. خساراتنا روثي وتشارلي من غير أن يبالي أحد غيرنا بالأمر هو ما جعل بن يهتم بالسياسة حيناً من الزمن. فخلال صيف بأسره في سنة 1979، عاش مع تلك الفتاة في خيمة عند واحدة من البرك في بوسطن. كان مع جماعة كبيرة من هنود آخرين من جانبي الحدود يطالبون البيض بأن يفوا بنصيبهم من الاتفاق.

أحب أخي، لكنني لا أزال أظن أن ما فعله كان فيه قدر من القسوة. ففي ليلة هادئة قبيل نهاية شهر سبتمبر، عندما كنت قد عدت كي أعيش في البيت، تماماً عندما بدأ الهواء يبرد ومضت الشمس إلى مغيبها، توقفت شاحنة صغيرة أمام الممر المفضي إلى بيتنا وقفز منها بن. كانت ماما في الخارج تقتلع الجزرات

(1) * نيبموك واحدة من جماعات الشعوب الأصلية في نيو إنجلاند.

الباقية في الحديقة، فكانت أول من رآه. وكنت خلف البيت أقطّع الحطب عندما نادتني كي آتي. لا تزال ماما تتعامل مع عودة أي واحد من أطفالها إلى البيت كأنه شيء مقدس، حادثة سماوية. أتيت ملتفاً حول زاوية البيت فرأيتها ممسكة رأسه بين كفيها. كانت تتمتم بصلاة. قربت رأسه من شفتيها وظلت كذلك وهي توبخه لأن رسائله كانت أقل مما ينبغي.

وبعد أن تركته ماما، عانقته. كان عناقاً سريعاً، لكنه شديد.

«تسرني رؤيتك، يا بن».

«وأنا تسرني رؤيتك، يا جو. تبدو قامتك كأنها ازدادت طولاً».

«لم أزدد طولاً، لكني كبرت».

رفع يده وعبث بشعري، ثم سرنا صوب البيت، ثلاثتنا.

سألته ماما، «كم ستبقى عندنا؟»

«لست متأكداً. لقد التقيت فتاة، يا ماما. فتاة لطيفة، اسمها نينا. وهي في انتظار عودتي».

«عليك أن تكتب إليها، أن تجعلها تأتي. فلتأت عندما يصير التفاح جاهزاً للقطاف. دائماً، يكون ذلك وقتاً جيداً للقاء الناس».

كان عشاؤنا تلك الليلة هادئاً. نظر بابا إلى ما بقي من أسرته. كانت نظرة رضا. وما كان في الغرفة من صوت مسموع غير احتكاك السكاكين والشوكات بصحوننا، وشرب الماء، والريح التي تعبث بستائر النافذة فوق المغسلة. كانت لحظة لطيفة؛ وكانت لحظة عابرة. حاول بن مرتين أن يقول شيئاً وهو يأكل. حاول مرتين، لكنه ترك الكلمات تموت على شفتيه. أحس غثياناً كلما نظرت إليه ورأيته يهم بالكلام ويتوقف ... كأنني شربت زجاجة

حليب فاسد. كنا نثرثر عن وصول قاطفي التفاح، وكانت ماما قد همت بالوقوف كي ترفع الصحون عن الطاولة عندما خرجت تلك الكلمات من فمه، أخيراً.

«رأيت روثي».

حل هدوء شديد، حل سريعاً إلى حد جعلني أسمع صوت ابتلاعي لقمتي. التففنا جميعاً ونظرنا إلى بن.

«أنا متأكد. رأيتها سائرة في بوسطن مع سيدة بيضاء. حاولت اللحاق بها لكنني أضعتها في الزحام. ركضت خلفهما، لكن المكان كان غاصاً بالناس. كنت أبحث عنها طيلة الوقت، يا ماما. لم أتوقف عن البحث. لكننا كنا نبحث في ولاية مين، وهي كانت في بوسطن. كنت أرجو أن أعثر عليها وأن أعود بها إلى البيت. أردت أن أعود بها إليك. أردت أن أخبرك بنفسي، يا ماما. كنتِ محقة طيلة الوقت. هي حية؛ وقد رأيتها. لا تزال تشبهك، يا ماما. أقسم على هذا». كان بن كأنه يهذي.

تنحنح بابا. وبحركة هادئة، وضع شوكته على الطاولة إلى جانب صحنه. «يا بن ...».

قاطعته ماما. «هل كانت في صحة حسنة؟ كيف كان مظهرها؟». مدت ماي يدها كي تمسك يد ماما، لكنها أبعدتها. ظلت عيناها متعلقتين ببن. «إذاً ... تكلم، يا بن!».

«بدت لي في صحة جيدة. نحيلة قليلاً، لكنها معافاة».

تنحنح بابا من جديد. «بن ... لا يمكنك أن تكون واثقاً من أنها روثي».

«أنا واثق من أنها روثي».

نظرت إلى أمي ... عيناها مبتلتان، ممتلئتان أملاً، محدقتان في ابنها الأكبر، تصليان من أجل ابنتها الصغرى. يظل الأمر أمراً رائعاً إلى أن لا يعود رائعاً. ذلك الحزن الذي أفلحت ماما في ترويضه عند ضياع روثي وبعد موت تشارلي كان منذراً بأن يتحرر من قيوده، هناك تماماً، في تلك اللحظة، على طاولة المطبخ. علمت هذا، وعلمته ماي، وعلمه بابا، لكن بن لم يستطع رؤيته. لم يستطع رؤية السلام الذي كان يحطمه. ظن أنه يفعل شيئاً حسناً؛ ولا يزال على ظنه حتى اليوم. أما أنا، فقد غضبت من بن غضباً شديداً. أتى غضبي سريعاً، تجمع أسفل بطني ... دافئاً، متحركاً. الغضب نفسه الذي بدأ يستولي على حواسي بعد وقت قصير من موت تشارلي ظهر من جديد، ظهر خبيثاً، شديد الحرارة.

«أظن أنها عرفتني أيضاً. رأيتها في مظاهرة عند جامايكا بلين. كانت ملابسها أنيقة فعلاً. لا أظنها كانت هناك للمشاركة في الاحتجاج. أظن أنها مرت بالمكان مصادفة. كنت جالساً على الأرض أمام الخيمة أتحدث مع نينا عن احتمال سفرنا إلى واشنطن بالقطار أو بسيارة نستوقفها في الطريق كي ننضم إلى الناس الذي يتظاهرون عبر البلاد. وعندها رأيتها. حدقت فيها تحديقاً شديداً لا بد أنها قد شعرت به. وعندما نظرت إلي، أيقنت من أنها روثي».

توقف بن عن الكلام كي يلتقط أنفاسه. كان يتكلم سريعاً، وكان شديد الحماسة إلى حد جعل أنفاسه تتقطع. مدت ماي يدها كي تمسك يد ماما، لكنها أبعدتها من جديد. استندت بأصابعها إلى

حافة الطاولة.

«عندما بدأت تسير مسرعة، مبتعدة عني، ناديت باسمها فالتفتت إلي. أقسم أن هذا ما حدث. هذه حقيقة مثلها مثل حقيقة جلوسي الآن هنا. كانت هي روثي».

سمعت صوتي يخرج من فمي متكسراً، «هل كلمتها؟»

«لا. المرأة التي كانت معها أمسكت بذراعها وانطلقت سائرة بها في الزحام. لقد فقدت أثرها؛ لكنها كانت روثي، يا ماما. وسوف أعود كي أحاول العثور عليها».

«لا أصدقك». حاولت أن أظل هادئاً، لكني كنت أزداد غضباً مع مضي بن في كلامه، أزداد غضباً مع محاولته إقناعنا. كان غضبي يزداد كلما صارت أمي أكثر اقتناعاً بما يقول. أردت أن تكون روثي حية مثلما هم جميعاً أحياء، بل ربما أكثر. أردت تصديق بن، أردت تصديقه فعلاً؛ لكن، لماذا يفعل هذا من غير أن يعود بها إلى البيت؟ لماذا يقول لنا إنه رآها لكنه لا يعود بها إلى البيت كي نستطيع رؤيتها بدورنا؟

قالت أمي عابسة، «جو، أمسك لسانك!».

«أنت لا تصدقين كلامه، أليس كذلك؟» كان صوتي يزداد علواً مع كل كلمة أنطقها ... «إن كانت روثي حية، وإن كنت قد رأيتها، فقد كان عليك أن تبذل جهداً أكبر كي تعيدها. أنت كاذب، يا بن». كانت ساقي تختلج تحت الطاولة وقبضتا يدي مشددتين إلى جانبي صحني الفارغ.

«جو ... انهض وابتعد عن هذه الطاولة الآن قبل أن ينفجر غضبي عليك!». الآن، صارت ماما واقفة، منحنية فوق صحنها،

يداها مبسوطتان إلى جواره. كان غضبي يرتد منعكساً إلي ... «ابتعد عن هذه الطاولة!». كانت شفتاها متقلصتين، مرتدتين إلى الداخل، وحل محلها خط دقيق وردي اللون.

نهضت واقفاً. نهضت سريعاً من غير أن أدفع بالكرسي إلى الخلف. انقلبت كأسي وسال الماء في كل اتجاه. سقطت الكرسي واصطدمت بالجدار صدمة شديدة، لكني ما كنت مباليا بهذا. كنت في حاجة إلى الخروج من البيت قبل أن أسدد لكمة إلى أخي.

«جو، أقسم أنني ...».

لكني لم أسمع تتمة كلامه لأنني اندفعت خارجاً من باب البيت وصفقته من خلفي. راحت قدماي تضربان التراب، وثار الغبار من خلفي. رددت الأرض وقع أقدامي فسرى الصدى في عمودي الفقري. لم أدر أين كنت ذاهباً، لكني ما أردت شيئاً غير أن أبتعد عن أخي. بدأ غروب الشمس، وسوف تحل الظلمة عما قريب، لكني سأتابع سيري إلى أن يزول هذا الأمر عني، مهما يكن هذا الأمر. كان الغضب يحب أن يتسلل إلي ويغزوني. أعظم الأمور التي يمكن أن تثير غضب رجل من الرجال ما كانت تعنيني أو تضايقني، لكن أمراً صغيراً، أمراً لا يستحق غضبي، كان قادراً على إثارته. وكان الغضب يأتيني سريعاً، يأتيني سريعاً فلا يتسنى لي وقت لكبح جماحه. التقطت حجراً وقذفته بأشد ما أستطيع مستهدفاً شجرة عند نهاية الممر، ثم انعطفت صوب سكة القطار وسرت صوب المدينة. مررت بالحقل الذي خيّم فيه قاطفو التفاح، ومررت بالشجرة التي كان يقال لي إنهم كانوا

يستخدمونها لمراقبة مولد أطفال الميكماو،[1]* ومررت بالبركة الضحلة مياهها الساكنة تعكس سماء الغسق. حشرات تسير على الماء رافعة رؤوسها مخالفة كل ما أعرفه عن حقائق العالم. لم أبلغ مكاناً أستطيع أن أرى منه أضواء المدينة عند تقاطع الطريق الرئيسية وسكة القطار حتى كان الظلام كان قد حل. أحسست غضبي يذوب ويزول عني. وبدأت أفكر كيف أعتذر من ماما، بدأت أفكر في الكلمات التي سأقولها لها وفي ترتيب قولها. تركت سكة القطار وسرت على الطريق. لم يرني سائق الشاحنة. سمعت زعيق إطاراتها، ورأيت التماعة نور، ثم حلت علي ظلمة.

«حكت لي ماما عن الحادثة التي وقعت لك». كانت ليا جالسة على الفراش الآخر متصالبة الساقين. كان المساء قد بدأ تسلله في النافذة التي خلفها، وعلمت أنها ستذهب بعد قليل.

«هل أخبرتك بهذا؟»

«أخبرتني. قالت إنك كدت تموت».

«أظن هذا. لكن الحقيقة أنني لم أكن منتبهاً إلى شيء». حاولت أن أضحك، لكن الضحكة أتت أشبه بعطسة واهية ... «لكني أحس اليوم أنني أحسن حالاً. ألا تساعدينني في الخروج إلى الشرفة؟»

«بالتأكيد».

بعد أن صرنا جالسين على كرسيين في الخارج، كل منا ملتف ببطانية في مواجهة هواء الأمسية البارد، وبيننا فنجانان من شاي

(1) * الميكماو: جماعة من السكان الأصليين.

النعناع، رحت أحاول تذكر الحادثة. حاولت تذكر ذلك الوقت، لكني كل شيء جاءني مشوشاً. أول ذكرى لي بعد الحادثة كانت استيقاظي في غرفة مظلمة، استيقاظي على رائحة المواد المعقمة وعلى همهمة الأجهزة الطبية. تذكرت كيف كنت مستيقظاً، لكن عيني تأبيان أن تنفتحا وكأن على أجفانهما مادة لاصقة تمنعني من فتحهما. أحسست الإعياء الذي يأتي بعد نوم طويل عميق، ذلك النوم الذي يتغلغل في نقي العظم عندما يكف الجسد عن صراعه من أجل تولي مقاليد الأمور ويرضخ مستسلماً لذلك العنصر الموجود على الجانب الآخر.

«هل تألمت كثيراً؟»

أجفلني سماع صوتها. كنت أحاول التركيز من أجل تذكر أمر مضى عليه أكثر من ثلاثين عاماً فكدت أنسى أنها جالسة معي.

«أظنني كنت متألماً. يصعب تذكر التفاصيل بعد هذه السنين كلها. ثمة أمور واضحة تماماً، وثمة أمور أخرى غير موجودة في ذاكرتي، حتى تلك الأمور التي يتذكرها الآخرون جيداً. مرت سنين طويلة منذ ذلك الوقت، ووقعت فيها أمور كثيرة ملأت ذاكرتي».

أومأت برأسها وناولتني فنجان الشاي. ثنت أصابعي كي تصير محيطة بالفنجان كي أحس حرارته وكي تتأكد من أنني قادر على حمله. تأتيني أيام أكون فيها ضعيفاً جداً فلا أستطيع أن أحمل أي شيء. عندما تمر بي تلك الأيام، أحس أنني أسوأ من شيء لا نفع فيه.

«أتذكر أنهم كانوا يسألونني عن اليوم الذي نحن فيه. لم أستطع تذكر شيء غير أنه كان يوم عودة بن إلى البيت. ظلوا يطرحون علي السؤال نفسه كل يوم عند استيقاظي في المستشفى. كنت هنا أول الأمر، في المستشفى نفسه الذي ولدتك أمك فيه؛ لكنهم نقلوني إلى هاليفاكس كي أتعلم كيف أستخدم أطرافي من جديد ... وانظري إلي الآن». التفت إليها وابتسمت. أردت أن يكون ذلك نكتة، لكن الناس يصعب عليهم أحياناً أن يروا نكتة في الموت، وذلك خاصة عندما يكونون جالسين على مسافة قدمين منه.

«تبدو لي في حالٍ حسنة».

التفتنا معاً عندما انعطفت سيارة المازدا الزرقاء المألوفة ودخلت الممر المفضي إلى البيت. جيفري يقودها. أوقف السيارة، لكنه لم ينزل منها. أومأت له برأسي لكنه ظل جالساً هناك منتظراً ليا.

«ألا تريد أن أساعدك في الدخول قبل ذهابي؟»

«لا. أظنني سأجلس هنا بعض الوقت. ستدخلني ماي عندما تعود من عملها. أو سيدخلني بن ... إذا تذكر أنني جالس هنا في الخارج». كانت تلك نكتة أخرى. هذه المرة، أفلحت في سرقة ابتسامة منها. «هل أراك الأسبوع القادم؟»

«بكل تأكيد». انحنت فوقي وقبلتني على خدي، ثم تناولت حقيبة يدها ... «استمتع بعشائك!».

لوحت لي من المقعد الأمامي عندما بدأت السيارة تراجعها؛ ثم ذهبت. عدت وحيداً من جديد مثلما كنت وحيداً ليلة استيقظت في المستشفى ... مشوشاً، عاجزاً عن الحركة.

كان الوقت نهاراً عندما استيقظت ثاني مرة، وكان أبي جالساً على كرسي إلى جانب فراشي ويقلب عدداً من مجلة ريدرز دايجست صارت حوافه بنية لقدمه وكثرة استخدامه. انفتحت عيناي هذه المرة لكني لم أستطع الكلام. كان في فمي أنبوب. سعلت عندما حاولت الكلام وجعلني ألم السعال أطبق عيني في مواجهة ضوء النهار. عندها، انضمت إلى طنين الأجهزة الطبية أصوات بشر، بعضها مألوف وبعضها غير مألوف.

«جو، هل تعلم أين أنت؟»

صوت مختلف: «جو، هل تعلم ما وقع لك؟»

صوت مألوف: «جو، استيقظ يا ولدي! أمك تريدك أن تكون بخير».

فتحت عيني فرأيت وجوهاً لا أعرفها، وجوه أشخاص يبدلون أنبوباً بأنبوب يضغطون على مفاتيح ويقيسون درجة حرارتي. لم يحدث لي يوماً أن مستني هذه الأيدي كلها دفعة واحدة. لم يعجبني هذا. حاولت أن أتحرك مبتعداً عنهم، لكن جسدي لم يطعني. حاولت أن أعثر على أبي، لكن واحدة من عيني بدت كأنها غائرة في مكانها. اكتشفت في اليوم التالي أن محجر عيني قد انكسر وأن التورم جعلها شبه مغمضة. علمت أيضاً أن ثمة كسراً في جمجمتي حيث اصطدم رأسي بإسفلت الطريق، وكذلك كسر في الحوض نتيجة الصدمة، ومعصم مكسور، وعشرة أضلاع مكسورة من أصل اثني عشر ضلعاً في الجانب الأيسر. تضررت رئتي، وكان محتملاً أن يكون قد أصابني أذى في العمود الفقري، لكن الأطباء كانوا غير قادرين على إجراء الفحوصات اللازمة

لذلك قبل أن يزول التورم.

«أنت شاب محظوظ».

حاولت أن أسعل لحظة ظهر لي وجه أبي. مزعجة رؤية شخص بهذه القوة يبدو في حالة ذعر شديد. ظننت أول الأمر أنه غاضب مني، لكنه قال لي في وقت لاحق إن ذلك كان خوفاً ... كان أبي خائفاً علي. بقدر ما كنا نحاول إبعاد الألم عن ماما، لم يفكر واحد منا، لم يفكر أبداً، في ما عاناه بابا لفقدان أطفاله ... إلى أن وقعت تلك الحادثة، إلى أن نظرت إليه بعيني المحمرة المزرقة فرأيت ألمه، رأيت قلقه.

«لن أتركك، يا جو. فقط سأذهب إلى البيت كي أجلب أمك. أخذتها إلى البيت كي تغفو قليلاً. لكنك تعلم مثلما أعلم أنها لن تسامحني أبداً إذا لم أذهب الآن إلى إحضارها».

أحسست دفء يده على يدي الباردة قبل أن ينهض كي يذهب. لا بد أنني نمت من جديد لأنني فتحت عيني بعد ذلك فرأيت أمي جالسة على كرسي إلى جانب سريري، صنّارتا الحياكة تعملان على إيقاع جهاز مراقبة أداء القلب.

ستة أسابيع أمضيتها في المستشفى المحلي. صور الأشعة السينية، وجبائر العظام المكسورة والقطبات الجراحية التي أزالوها. صار التنفس سهلاً عليّ، وكانت أمي تلازمني من مطلع الشمس حتى مغربها. كانت تقرأ لي في أي كتاب تجده في غرفة الانتظار، في أي كتاب تركته أسر أخرى ساهرة على مرضاها. وعندما بدأت أستجمع بعضاً من قواي، وبدأ جلدي يعود إلى سمرته بعد ما كان فيه من ألوان حمراء وصفراء وقرمزية، أحببت

أمـي تذكيـري بـأن الغضـب الـذي نبـت فـي قلبـي منـذ مـوت تشـارلي هـو مـا فعـل هـذا بـي. راحـت تكلـم غضبـي كأنـه كيـان قائـم بذاتـه، كأنـه شـيء ينبغـي هجرانـه، ينبغـي طـرده مثلمـا يُطرد مسـتأجر سـيء. عندمـا قـرر الأطبـاء أننـي سـأنجو، عـاد بابـا وبـن إلـى الغابـات كـي يقـودا رجـالاً أثريـاء فـي رحـلات الصيـد. صـارا يرسـلان مربـى التـوت البـري ولحـم الوعـل المقـدد، يرسـلان ذلـك مـن مطبـخ عمتـي ليندي.

قـال لـي أبـي وهـو ينـاول أمـي ذلـك اللحـم، «طلبـت منـي عمتـك إخبـارك بـأن مـن الأفضـل لـك أن تحسّـن مسـلكك وأن تذهـب عمـا قريـب كـي تزورهـا».

قـال بـن مازحـاً، «سـتكون خطيئـة إن نجـوت مـن هـذا كـي تحتضنـك عمتـك فتخنقـك».

حـاولـت أن أضحـك، لكـن جسـدي كان غيـر مسـتعد لهـذا. كشّـرت. التفتـت ماما وصفعـت بـن علـى سـاقه.

تبـع بـن ومـاي سـيارة الإسـعاف عندمـا نقلونـي إلـى مركـز إعـادة تأهيـل فـي المدينـة كـي أتعلـم المشـي مـن جديـد. فبعـد زوال التـورم، صـار الأطبـاء قادريـن علـى رؤيـة الأذيـة التـي أصابـت عمـودي الفقـري. صحيـح أنهـا لـم تكـن شـديدة مثلمـا توقعـوا، لكنهـا لـم تكـن أمـراً حسـناً.

قـال لـي الطبيـب الجديـد، «علينـا أن نجعـل جسـدك ودماغـك يعمـلان معـاً مـن جديـد. وهـذا فـي حاجـة إلـى تمريـن».

نزعـت مـاي البطانيـة الرماديـة الكالحـة التـي كانـت علـى سـرير إعـادة التأهيـل واسـتبدلت بهـا بطانيـة أفغانيـة ملونـة أتـت بهـا مـن غرفتـي فـي البيـت. بعـد ذلـك، حملنـي بـن مـن الكرسـي المتحـرك

ووضعني على السرير. كانت إعادة التأهيل مؤلمة، مزعجة، عانيت الوحدة خلالها. لكني سرت خارجاً بعد ستة أشهر، سرت ومعي وصفة للأدوية المسكنة مدة سنة كاملة وعرج بسيط في خطوتي ... لكني خرجت من ذلك المكان سائراً على قدمي ... هذا هو الجزء المهم.

لم يعد بن إلى نينا، ولم يعد إلى بوسطن. ظل في البيت من أجلي. إنني مدين لبشر كثيرين جداً. عليّ ديون لأشخاص كثيرين جداً، ديون أعلم أنني لن أستطيع سدادها. هذا ما يثقل على قلبي. لقد أعطاني الناس وقتهم وحبهم، أعطاني الناس أجسادهم وأسرارهم. وكان ما أعطيته قليلاً جداً. أرسلت نينا بضع بطاقات بريدية، لكن تلك البطاقات تباعدت شيئاً فشيئاً إلى أن انقطعت. ما كان مسموحاً لي أن أعمل خلال الصيف الذي أعقب الحادثة. كان هذا قراراً اتخذته أمي وحدها، وحدها تماماً، يوم عودتي إلى البيت. كان علي أن أبقى هادئاً، ساكناً، إلى أن تقرر بنفسها أنني صرت مستعداً للخروج إلى العالم من جديد. وما كان لأي شيء يقوله أي طبيب من الأطباء أن يجعلها تحيد عن قرارها. في ذلك الصيف، كنت أمضي مع بن وقتاً طويلاً عند موقد النار الذي في الخارج. كان يعرّج على البيت في طريق عودته من مزرعة جديدة يعمل فيها طيلة النهار، ستة أيام في الأسبوع. يأتي فنتناول زجاجة بيرة ونخرج كي نجلس ونرقب ألسنة اللهب. تنضم إلينا ماي بعض الأحيان، لكنها كانت قد بدأت تخرج مع رجل أبيض اسمه جيمس. كان شريكاً في متجر العدد والأدوات في المدينة. وفي عطلة نهاية الأسبوع، تكون لديه

مشروبات منزلية مهربة من كل نوع. لم يكن جيمس يجلس معنا عند النار حتى بعد أن تزوجا. وكانت ماي تقول إنه غير قادر على التعامل مع عدد كبير من الهنود في وقت واحد. كثرتنا تجعله متوتراً. حاولت ماي أن تجعل من الأمر نكتة، لكني لم أستطع تقبله أبداً.

تناول بن جرعة من زجاجة البيرة. قال: «لا تغضب من جيمس كثيراً. إنه غبي، وأختنا تحب الأغبياء. عليك أن تضبط غضبك. لا نريد أن تخرج مسرعاً فتدهسك شاحنة». رفع بن علبة البيرة كأنه يشرب نخباً، وضحك لنكته ... «المرة الماضية، كدت تجعل نوبة قلبية تصيب السيد ريتشاردسون وأتلفت شاحنته الصغيرة حتى لم يعد لها نفع».

كان السيد ريتشاردسون صاحب ثلاث محطات وقود؛ وكان روحاً تعسة. في طريق عودته إلى البيت بعد عشاء متأخر، صدمني بشاحنته الصغيرة عندما خطوت إلى الشارع خارجاً من الظلام. كان يزورني في المستشفى، ثم عرض علي عملاً بعد أن تحسنت صحتي.

لقد ألفت الهدوء الآن؛ وأما في ذلك الوقت، فكان لا يزال يزعجني. بعض الأحيان، كنت مستعداً لقول أي شيء كي أكسر الصمت.

«قل لي الحقيقة، يا بن. هل تعتقد حقاً أنها كانت روثي؟».

ظل بن صامتاً. أظنه كان يحاول تقرير ما إذا كانت نوبة غضب جديدة ستصيبني. قال، «لعلها لم تكن روثي، يا جو. لعلها لم تكن روثي. وأما إن كنت تسألني عما أنا مقتنع به، فسوف أقول

لك إنني سأذهب إلى قبري مقتنعاً بأنني رأيت روثي ذلك اليوم. حركتُها لما التفتت بعد أن ناديتها باسمها، وكيف حدقت بي تلك العينان اللتان ورثتهما عن ماما، كيف حدقتا بي لحظة واحدة. نعم، يا جو! أنا واثق من أنها روثي». كنا جالسين في الظلام والنار تفرقع أمامنا والنجوم من فوقنا. تحرك حيوان في مكان قريب بين الأشجار.

«إذاً، سوف أحاول تصديقك».

مد بن يده وربت على كتفي. «إذاً، ماذا سنفعل في هذا الشأن؟».

«تعلم أن ماما لم تجتاز تلك الحدود، لذا أظن أن هذه مهمتنا».

قررنا في تلك اللحظة، قررنا هناك أننا لن نتخلى عن روثي. هي موجودة هناك، وسوف نعثر عليها. سيذهب بن إلى بوسطن كلما استطاع كي يبحث عنها هناك. وعندما تتحسن صحتي، سأذهب أيضاً. سنتسكع على مقربة من الحديقة التي رآها بن فيها، ونتسوق من المتجر القريب، ونشرب في البارات. اتفقنا على أمر آخر أيضاً، اتفقنا على ألا نقول لماما شيء عن خطتنا. لا نريد لآمالها أن تكبر الآن. فبعد حادثتي، بعد أن كادت تفقد ثالث أطفالها، صارت ممتنعة عن التطرق إلى ذكر ما رآه بن. إن كان لديها أمل في العثور على روثي، فهي لم تعبر عن ذلك الأمل. سخّرت طاقتها كلها من أجل إبقائي حياً.

برد ما كان بقاياً في فنجان الشاي بالنعناع، وبدأت أحس برودة هواء الخريف، لكني غير راغب في الدخول. أود البقاء جالساً أنظر إلى النجوم. أود أن أرقبها تتحرك في السماء

وتختفي خلف الأشجار. أسندت رأسي إلى ظهر كرسي الحديقة، وكانت عيناي متجهتين صوب السماء عندما عاد بن إلى البيت. لقد ترك العمل في المطحنة منذ زمن بعيد، وترك تلك الرحلات في الغابات. صرنا الآن كباراً، وصارت لنا آلامنا وأوجاعنا التي لا تسمح لنا بجني المال مثلما كنا نجنيه. بدلاً من ذلك، صار بن يعمل قيّماً على الكنيسة، ينظفها ويقفلها. أيام الثلاثاء، يصل إلى البيت قرابة الساعة الثامنة بعد انتهاء درس الإنجيل المخصص للرجال. كانت ماما وماي قد تناولتا طعامهما وتركتا على طاولة المطبخ صحنين من أجلنا، صحنين عليهما ورق مشمّع ومنشفة صغيرة لوقايتهما من الحشرات. أكاد أستطيع سماع أخبار التلفزيون عبر النافذة المفتوحة. يخرج بن ويشعل ناراً من غير أن يسألني عن سبب بقائي جالساً في الخارج. ما إن أبدأ الإحساس بدفء النار حتى يخرج حاملاً صحنينا مع علبتي بيرة. لم أذق البيرة منذ سنين.

يفتح بن علبة ويضعها على جذع الشجرة الذي إلى جانبي. «أظنها لم تعد الآن ضارة لك». كان واضحاً أن ماي قالت له أن يأتيني بالبيرة. الفحص الأخير الذي أجروه لي كان كالحاً. أسابيع أو، ربما شهر واحد. ما عاد لديهم أمل في أن يجعل الرب الرحيم صحتي أفضل مما هي.

«أظنها لا تضرني. لم تبق أمامي ليالي كثيرة مثل هذه الليلة كي أستمتع بها. لعل من الأفضل لي أن أستفيد منها». أمد يدي بحركة بطيئة كي أتناول علبة البيرة. العلبة ثقيلة ترتجف يدي لثقلها. ينسكب قليل منها على البطانية قبل أن تبلغ شفتي. باردة،

لكن طعمها مر يترك إحساساً قطنياً جافاً في حلقي. يضع بن صحن اللحم الذي برد في حضني ويناولني ملعقة. لا يسقط من فمي إلا قدر قليل جداً يسرع بن إلى مسحه.

«كيف كانت زيارتك مع ليا؟»

«جيدة. جيدة. إنها فتاة عظيمة. يبدو أمراً غير منصف أن تقول للناس إنني شقيقها».

أجبته، «لو لم تكن راغبة في قول ذلك لما قالته».

«أظن أن علي أن أكون غاضباً منك لأنك لم تخبرني عنها طول تلك السنين».

«كنا نجهل مكان وجودك معظم الوقت. ثم إن كورا طلبت منا ألا نفعل ذلك. كان تصرفك سيئاً عندما تركتنا نعاني بعد ما جرى. كان ذلك أقل ما استطعنا فعله من أجلها. لم تتأخر ماي عن إخبارك عندما استطاعت. لم تكن أختنا يوماً ممن يجيدون حفظ الأسرار. كان في وسعك أن تعود إلى البيت وقتها».

همستُ لحظة نهض بن كي يدخل البيت، «كدت أعود».

عاد حاملاً علبة بيرة ثالثة. ارتخى لساني بفعل الكحول والأدوية المسكنة. أقول له، «إن كانت روثي لا تزال هناك، فأنا أود رؤيتها قبل أن أموت».

«وأنا أيضاً، يا جو. وأنا أيضاً».

- 8 -

نورما

غريب أمر الزواج! في العالم بشر كثيرون؛ وأنت تقرر الالتزام بقية حياتك كلها بشخص واحد فقط، تقرر أن تكرس له بقية طاقتك العاطفية. تفترض أن الصلة الغامضة التي تربطك بالآخر سوف تبقى على حالها. صلة لا سبيل إلى الركون إليها، صلة لعلها تتجلى في ذلك المكان الأسطوري نفسه الذي تأتي منه القصص والحكايات، مكان يسمح لك بأن تعلّق ما بك من ريبة، بأن تضعه جانباً. يفترض الزواج أن كلاً منكما سوف ينثني وينحني ويتلاءم مع الآخر. يفترض أن رغائبكما ستظل على الدوام مشتركة لأنكما وضعتما في الإصبع حلقة ذهبية. يصح هذا عند بشر كثيرين. أحسد أولئك الناس القادرين على التنقيب عميقاً للعثور على ذلك الشيء الذي مكّنهم في الأصل من أن يكونوا مقتنعين بقدرتهم على قضاء بقية حياتهم ينامون في سرير واحد ويجلسون إلى طاولة واحدة متقابلين يوماً بعد يوم، يبنون أسرة، يصنعون ذكريات ... ذكريات حسنة وذكريات غير حسنة. تعتبرني خالتي جون شديدة الميل إلى التهكم. لكن إحساسي لم يكن طيلة الوقت هكذا. كنت أكثر من مستعدة لأن أضع جانباً كل ما بي من عدم تصديق، لأن أضعه جانباً من أجل مارك، ثم حدث أمر. عادت تلك الأشباح، أشباح الماضي القديم، فسكنتني، وما كان مارك جاهزاً لما سأفعله كي أخلص نفسي منها. لست ألومه.

أقمنا حفل زفاف صغيراً في حديقة بيت خالتي جون. حضر

أبـي وأمـي زفافنـا وبـاركا زواجنـا ... باركـه أبـي أكثـر ممـا باركتـه أمـي. ليس المحاسب طبيباً، ولا محامياً. لكنها مهنة محترمة إلى حد كافٍ. أقنعتني خالتي جون بأن أتغاضى عن الأمر وبأن أكون شاكرة لأنه أعجبهما. هكذا صرت زوجة في شهر أغسطس من سنة 1983. كنت لا أزال باحثة عن عمل؛ وأراد أبي وأمي أن ننتقل للعيش على مقربة منهما. خالتي جون وأليس وديريزيه أردن أن نبقى في بوسطن. مارك لم تكن لديه مشكلة في مكان عيشنا لأن في وسعه أن يعثر على وظيفة في أي مكان. لذا، رحت أتقدم إلى كل وظيفة شاغرة في المنطقة الممتدة على مقربة من الحدود بين كندا وولاية مين لكن الحظ لم يحالفني إلا أواسط شهر سبتمبر عندما داهمت نوبة قلبية معلم لغة إنجليزية في مدرسة صغيرة قريبة من أوغستا فمات وهو يتابع الأخبار، مات في كرسيه. تلقيت المكالمة الهاتفية فحزمت حقيبتي. أقمت عند واحدة من صديقات خالتي جون ريثما أعثر على شقة لي. ومع حلول عيد الميلاد، عثر مارك على وظيفة وعدنا إلى العيش في ولاية مين. كان أبي وأمي مسرورين بهذا.

استقرت حياتنا على نهج ثابت. العمل، والبيت، والذهاب أحياناً إلى دعوة عشاء أو إلى حفلة شواء. نتناول طعام العشاء في الخارج أيام الجمعة. صارت لنا مجموعة أصدقاء صغيرة في أوغستا ... بضعة أشخاص من زملاء مارك في العمل وبضعة أشخاص من زملائي. كانت أمي تلح علي في الذهاب إلى الكنيسة كي ألتقي أشخاصاً «جيدين» مع أنها كانت ترفض شرح كلمة «جيدين»، أو لعلها كانت غير قادرة على شرحها. كنا نذهب

إلى الكنيسة في طفولتي أو ... على الأقل، كانت ماما تذهب إلى الكنيسة. وعندما بلغت الرابعة عشرة رجوتها أن تسمح لي بأن أبقى نائمة أيام الأحد. نصير أنا وأبي رفيقين أيام العطلة فقط. وبعد مغادرتي البيت، صارت الكنيسة طفلة ثانية لأمي، صارت تجد فيها راحة كبيرة ... إلى أن لم تعد تجد فيها راحة. كانت تحضر دروس الإنجيل في أمسيات الثلاثاء، وتذهب إلى نادي الخياطة والتطريز الذي يجتمع في قبو الكنيسة بعد ظهر يوم الأربعاء، وتعلم الأطفال في مدرسة يوم الأحد. ومع بلوغها الخامسة والخمسين، بدأت تذهب إلى «السن الذهبية». كانت تلك مجموعة من الكهول ممن يعدون السندويتشات والبسكويت ويشربون الشاي الخفيف ويشكون عقوق أبنائهم وبناتهم ... ويقرؤون الإنجيل أحياناً. بل إنها انضمت إلى جوقة الكنيسة. امرأة لا تكاد تتكلم أمام الناس، امرأة ظلت مختبئة في بيتها الشطر الأعظم من حياتها صارت تغني أمام الناس. أمر غريب بعض الشيء، لكني كنت فخورة بها.

«لكنك معلمة، يا نورما».

«أعلم هذا يا أمي».

«إذاً، فكري كم ستكونين بارعة في التعليم في مدرسة الأحد، أو في تعليم مجموعة الشباب». ناولتني أمي وعاء الفاصولياء الخضراء الذي يتصاعد منه البخار فوضعته وسط الطاولة.

«لا أظن هذا». يدور بيننا هذا الحديث نفسه بعد ظهر كل يوم أحد عندما نكون عاكفتين معاً على إعداد العشاء في بيت طفولتي. حلت محل صورتي السنوية في المدرسة صورة لي

ولمـارك، صـورة زفافنـا، ومعنـا أبـي وأمـي واقفيـن إلـى جانبينـا.

«فكري في الأمر أكثر قليلاً!».

«الحقيقـة، يـا أمـي، أننـي سـأكون أشـد انشـغالاً خـلال الفتـرة المقبلـة».

كانـت يداهـا تغسـلان الأطبـاق وظهرهـا فـي اتجاهـي. «لا يجـوز أبـداً أن تفضلـي مشـاغلك علـى خدمـة الـرب، يـا نورمـا».

«مامـا، ألا تسـتطيعين الكـف عـن هـذا لحظـة واحـدة؟ لـدي مـا أريـد إخبـارك بـه».

مسحت يديها بمنشفة المطبخ واستندت إلى المجلى.

استنشـقت نفسـاً عميقـاً، ثـم قلـت، «سـيكون لدينـا طفـل، أنـا ومـارك».

ظلت واقفة أمامي، يداها ممسكتان بالمنشفة ... ظلت صامتة.

«أمـي!؟». عبـرت المطبـخ الصغيـر عندمـا رأيـت أنهـا قـد بـدأت تبكـي. احتضنتهـا بيـن ذراعـي. يداهـا لا تـزالان مدفونتيـن فـي المنشـفة.

«أمي! هل أنت بخير؟»

«أوه ... أنا سعيدة جداً. فوجئت قليلاً، لكني سعيدة جداً».

«لا بـأس ... جيـد. لـم أكـن قـادرة علـى تأجيـل إخبـارك بهـذا دقيقـة واحـدة». ابتسـمت لهـا وأفلتهـا مـن بيـن يـدي.

رمت المنشفة على طاولة المطبخ وضعت ذراعيها على ذراعي. نظـرت إلـي. «أنـا فـي غاية السـعادة».

أدركت أنها سعيدة، سعيدة في مكان عميق داخلها، لكن رأيت فـي عينيهـا مـا بـدا لـي شيئاً أشبه بالخوف.

«لا بأس، يا أمي. الجنين بخير».

سمحت لنفسها بأن تبتسم. «لا بأس ... أظن أنني سأصير جدة. من فضلك، قولي لي إنني علمت بالأمر قبل خالتك جون».
ابتسمت لي ابتسامة كبيرة، ثم عانقتني.

«صحيح، أنت أول من يعلم».

مسحت بضع دمعات صغيرة ظهرت في زاويتي عينيها، ثم عادت إلى غسل الأطباق.

«أتظنين الجنين صبياً أم بنتاً؟» كان مارك جالساً على الأريكة، إلى جانبي، يده تداعب بطني المنتفخة. كنا في البيت من أجل عشاء يوم الأحد؛ وكان ذلك بعد شهور من إخبار أمي بأمر الجنين وتركها تخبر أبي بنفسها.

«قلت لك من قبل إنها بنت».

«كيف لك أن تكوني واثقة؟»

«المرأة تعرف ... فقط هكذا». مددت يدي إلى الوعاء المستقر في حضنه وتناولت بضع حبات عنب. وضعت واحدة في فمي ورحت أديرها بلساني. عندما عضضت عليها آخر الأمر، تفجرت عصارتها حلوة، باردة. التفت صوب مارك وقذفت ببذرة العنب في شعره.

«شيء لطيف، يا نورما. آمل أن تعلمي ابنتنا، أو ابننا، هذا السلوك الحسن». التقط البذرة التي في شعره وقذف بها في الوعاء.

«ابنتنا». ابتسمت وقذفته ببذرة جديدة، لكني أخطأت الهدف فسقطت البذرة على كتفه. «هل أنت ذاهب معي إلى موعد الطبيب غداً؟».

«أظـن أنـك قـادرة علـى تدبـر الأمـر بمفـردك، يـا مامـا» غمـز لـي بعينـه ... «عنـدي اجتمـاع. بعـد ذلـك، سـأدعوك إلـى عشـاء فـي الخـارج».

لا تبعـد عيـادة الطبيـب عـن المدرسـة إلا بضعـة دقائـق. وصلـت عنـد السـاعة الثالثـة وخمـس وأربعيـن دقيقـة، علـى موعـدي تمامـاً. أتذكـر كيـف قـرأت المـرأة اسـمي ومنحتنـي ابتسـامة مخصصـة للنسـاء الحوامـل. ابتسـامة نصـف حلـوة تـكاد تكـون ابتسـامة تعاطـف.

«نورما ... كيف حالك؟»

«جيـدة. متعبـة قليـلاً. حرقـة فـي بلعومـي. أحـس أننـي ثقيلـة بعـض الشـيء». ضحكـت تلـك الضحكـة المرتبكـة التـي تأتينـي عندمـا أكـون فـي غرفـة واحـدة مـع شـخص فـي رداء الطبيـب الأبيـض، شـخص رآنـي عاريـة.

«هذا أمر متوقع. كيف هي حركة الجنين؟»

لـن أكـون أبـداً واثقـة مـن الأمـر، لكنـي أظـن أن القشـعريرة سـرت فـي عمـودي الفقـري عنـد تلـك اللحظـة، وجـف لسـاني، وغـزت العتمـة أطـراف مجـال رؤيتـي، وصـار عالمـي صغيـراً جـداً. «الحقيقـة أن الحركـة كانـت قليـلاً جـداً فـي اليوميـن الأخيريـن».

رفـع رأسـه عـن الملاحظـات التـي كان يسـجلها. «لا بـأس ... فلنقيسـك الآن ونصغـي إلـى نبضـات القلـب».

آخـر مـا أتذكـره تذكـراً واضحـاً كان ذلـك الصمـت ... الطبيـب يتنفـس مـن بيـن أسـنانه، وهمهمـة أحاديـث النـاس السـائرين فـي الممـر واليديـن الممسـكتين سـماعة الطبيـب تنتقـلان إلـى بطنـي العاريـة، يديـن باردتيـن، باحثتيـن. دبـت الحيـاة فـي كل شـعرة مـن

شعرات جسدي. توتر جلدي وأطبقت الغرفة علي. خشخشة الملاءة الورقية تحتي كانت في أذني أشبه بهدير الرعد.

«نورما، أين زوجك؟» وضع السماعة حول رقبته، ثم أمسك بيدي وساعدني في النزول عن سرير الفحص والجلوس على الكرسي. شددت قميصي على بطني الساكنة.

«في عمله».

«لعل من الأفضل أن تتصلي به».

«لماذا؟ ما المشكلة؟»

«سوف أرسلك إلى مكان قريب، إلى المستشفى من أجل صورة بالذبذبات فوق الصوتية. في غضون ذلك، ألا تعطيني رقم هاتفه في العمل؟ ذكّريني، كم أسبوعاً صار عمر حملك؟»

أعطيته رقم مارك في مكتبه، ثم أجبته: «ثلاثة وثلاثون، ثلاثة وأربعون أسبوعاً».

ممرضته نفسها، تلك المرأة التي كانت قد ابتسمت لي قبل قليل، سارت معي إلى المستشفى. ظلت طيلة الوقت ممسكة بذراعي عند المرفق. ظلت تكلمني طيلة تلك الرحلة القصيرة، لكني لم أسمع من كلامها شيئاً. دخلنا الباب، ومررنا بقسم الطوارئ، ثم دخلنا غرفة باردة. آلة رمادية اللون، قاتمة، صلبة، كانت إلى جانب السرير. قبل أن أستطيع استيعاب كل ما هو محيط بي، بدأ أحدهم يضع على بطني مادة هلامية باردة. امرأة قاسية الوجه مرت على بطني بأداة غريبة بدت لي أشبه بكرة مزيل الراحة. ومن جديد، كان الهدوء كثيراً جداً. أتذكر تفكيري في أن العالم يمكن أن يتشظى ويصير مليون قطعة إذا استنشقت نفساً عميقاً.

ما جرى في الأيام القليلة التي تلت ذلك صار مشوشاً في ذهني، بل كان على الدوام مشوشاً. كل شيء متناثر، كل شيء قاتم ... مع نتف صغيرة من ضياء باهت. شذرات ضئيلة من أصوات ومن ألوان. يسعدني أنني لا أتذكر الأمر كله. وأظن أن عقلي سمح لي بهذا، سمح لي بأن أسدل عليه ظلاماً كي احتفظ برشدي. وضعوني في غرفة، وحدي، غرفة أنوارها خافتة من أجل راحتي. لا أعلم كم بقيت في تلك الغرفة وحيدة، لكن الزمن بدا لي ساعات كثيرة. كنت أمر بيدي على بطني وأغني لطفلي. «مارك!».

دخل الغرفة وتوقف على مسافة خمسة أقدام من السرير. وجهه متطاول أكبر سناً مما كان في وقت سابق من ذلك اليوم.

«نورما، حبيبتي ... يريد الطبيب أن يكلمنا».

لم أنتبه إلى الطبيب الواقف خلفه. كان انتباهي كله مركزاً على الشخص الذي أعرفه، على الشخص الذي لعله مذعور مثلي.

قال الطبيب هامساً مع أن الغرفة ما كان فيها أحد غيرنا، «نورما، مارك ... يؤسفني أن الجنين لم يعد حياً».

تقدم مني مارك وأمسك بيدي في حين رحت أحدق في الطبيب منتظرة أن ينهي كلامه، منتظرة أن يقول لي كيف سيعيدون الحياة إلى جنيني. منتظرة أن يشرح لي معنى هذه الكلمة التي نطقها وهو يكلمني عن ابنتي. ابنتي حية، موجودة في أحلامي، موجودة في الرسائل التي كتبتها إليها ... دمها دمي ... غنيت لها، وأحببتها.

«علينا أن نعطيك مادة محرّضة من أجل إخراج الجنين».

إخراج الجنين! ولادة ابنتي! ابنتي الميتة!

لا أذكر شيئاً بعد ذلك غير أنني صرت في غرفة أخرى أنظر إلى إبرة تخترق أعماق جلدي عند انثناءة البطن. لم أحس وخزتها، ولم أحس تدفق السائل في عروقي، ولم أحس كيف ثبتت الممرضة قدمي. لا أستطيع تذكر الألم مع أنني واثقة من أنني تألمت. أسمع أن ثمة مادة يفرزها جسد المرأة عندما تلد فتساعدها في نسيان الألم كي تستطيع الالتفات إلى مولودها. لا أدري ما يحدث عندما يكون الجنين ميتاً. أين تذهب تلك المادة الكيميائية؟ وما الغاية منها؟ بعد هذه السنين كلها، لا أزال قادرة على إغماض عيني ورؤية مارك ينظر إلي، على رأسه قبعة زرقاء من قبعات المستشفى ... لا أزال أستطيع رؤية الدمعة التي تدحرجت من عينه. سقطت دمعته على شفتي. أتذكر ملوحتها. أتساءل ... ماذا يتذكر؟

عندما أتت إلى هذا العالم، أتت وسط الصمت ... خمسة باوندات وأونصتان. كنت قد حملتها داخل جسدي، غنيت لها، زينت لها غرفتها، اشتريت لها ملابس. ملابس أنيقة صغيرة جداً. وكنت قد وضعت مصباح سفينة نوح على طاولة الزينة التي حملت تلك الملابس الصغيرة. وقد رقّ طبعي. كتبت لها رسائل في دفتر يوميات صغير أصفر ... رسائل تمنيت أن نقرأها معاً عندما تكبر، بعد أن تنقضي السنين التي تراني فيها إحراجاً لها وقبل أن تأتي السنين التي تتركني فيها كي تصير شخصاً قائماً بذاته. وأنا أقسم، أقسم لنفسي ولمارك، أنني كنت سأمنحها حباً كله ضياء. لن يكون في حبي لها أي ثقل، الحب الذي كنت عازمة

عليه. كانت هي الشيء الذي ينقصني، ذلك الجزء مني الذي بدا على الدوام فارغاً. أملت أن أملأه بها، بضحكها وصيحاتها.

لكن، في النهاية، لم أستطع حتى أن أحملها. طلبوا مني ذلك، لكني أغمضت عيني. أغمضت عيني إغماضاً شديداً جعل تلك النجوم تتراقص في الظلمة. لم أستطع احتمال فكرة أن يكون للشبح الذي في خيالي وجه، وجه قد يكون شبيهاً بوجهي. لذا، أخذوها وذهبوا بها. أعطوني شيئاً كي يساعدني على النوم فتمنيت أن يجعلني أنام إلى الأبد. لكني لم أنم إلى الأبد.

عندما استيقظت، عدت إلى كابوسي. «لم أخطئ في شيء. أكلت كما ينبغي. وكنت أمشي دائماً». أحرقتني عيناي، وكان مارك يمسح أنفي بمنديل. كنت لا أكاد أستطيع التقاط أنفاسي. بدأ انتفاخ بطني يزول، صار خالياً حقاً وصدقاً. وبين شهيق وشهيق، كنت أحاول الشرح، أحاول الدفاع عن نفسي في أمر لا يستوجب دفاعاً، في أمر لم يلمني مارك عليه، لم يلمني أبداً. «كنت أتناول الفيتامينات. كنت أستريح كما قالوا لي أن أستريح».

«ششششش، يا نورما. الذنب ليس ذنبك. هذا أمر يحدث أحياناً». طوق كتفي بذراعه وشدني إليه. أرحت رأسي على صدره. شممت فيه رائحة الكولونيا التي يستخدمها دائماً، رائحة نظيفة مألوفة. حتى هذا اليوم، أشم رائحة تلك الكولونيا على شخص لا أعرفه فترميني عائدة بي إلى يوم فقدت طفلتي. الرائحة قادرة على تجاوز المنطق، على تخطي الزمن. وضعوها في تابوت ما كان ينبغي أبداً أن يكون تابوتاً. بعد أن دفناها بشهر، قال لي مارك إنهم ألبسوها الفستان الأصفر الصغير الذي اشتريته لها

والسترة التي حاكتها لها أمي ولفوها بلحاف صغير من صنع مجموعة الحياكة في الكنيسة. أصدقه عندما يقول لي هذا لأنني رفضت أن أنظر. دُفنت طفلتي سارة على طرف مقبرة بعيدة عن بيتنا ميلاً واحداً، وبعد سنين، وضعتُ أبي وأمي إلى جوارها.

أنا أعلّم الكلمات ... كيف نرتبها معاً كي تخلق خوفاً أو جمالاً أو إثارة. أعلّم كيف يستطيع صف طويل من كلمات منظومة معاً أن يأخذك في سفينة تجوب المحيط بحثاً عن حوت، كيف تجلس إلى جوار ساحرة تحكي قصة الرجل الأبيض، تأتي به إلى حيز الوجود. أعلّم كلمات قادرة على أخذك إلى أماكن لا وجود لها إلا في المخيلة، قادرة على جعلك تقابل أشخاصاً في غاية الغرابة، أشخاصاً لافتين إلى حد لا يمكن معه أن يكونوا حقيقيين، لكنهم حقيقيون على الورق. لهذا أجد غريباً أن ما من وجود لكلمة من أجل الأم التي تفقد طفلاً. إن فقد الأطفال أهلهم فهم يتامى. إن فقد الزوج زوجته، فهو أرمل. لكن ما من كلمة من أجل الأم التي تفقد طفلها. صرت مؤمنة بأن الأمر كبير جداً، فظيع جداً، طاغٍ أكثر مما تحتمله الكلمات. لا تقدر أية كلمة على وصف ذلك الشعور. لذا ... نتركه غير منطوق.

صمتُ ولادتها وموتها ظل يلاحقنا. أتى الصمت معنا إلى البيت، أتى معنا بالسيارة. تعلق بملابسي. تعلق بشعري. تغلغل تحت أظافري. سكن صورة مارك. صار واقفاً بيننا. ومن جديد، جعلني صامتة. سمحت لي مديرة المدرسة بالاستراحة طيلة المدة الباقية من تلك السنة. قالت إنني أستطيع العودة إلى عملي في شهر أغسطس. وهكذا بقيت في البيت، بقيت لا أريد

شيئاً غير الصمت. كنت أجلس ساعات طويلة، أجلس على كرسي عند النافذة. أنظر فقط. لا راديو، ولا تلفزيون ... لا شيء غير الصمت. لا أدخل الغرفة التي أعددتها لها. أغلق الباب وأمر بها على أطراف أصابعي في طريقي إلى الحمام. وجبات العشاء لا يُسمع فيها شيء غير الصمت واصطدام شوكتينا بصحنينا. تحمل مارك هذا الثقل خلال تلك الأسابيع الأولى. وأظنني افترضت أنني سوف أستيقظ ذات يوم فيعود كل شيء إلى عادته، يعود الضحك وتعود الثرثرة عند جلوسنا إلى الطاولة، ويعود ذهابنا لتناول العشاء خارج البيت في أمسيات الجمعة. كان الصيف قريباً؛ وستكون لنا رحلات إلى شاطئ البحر، ورحلات شواء. لكن الصمت ازداد استقراراً وازداد عمقاً مع تطاول الأيام وازدياد الدفء في الهواء. أردت أن أكون نفسي التي كانت قبل وجودها، لكني ما عرفت كيف أعود.

ذهبت لقضاء أسبوع عند أبي وأمي، لكن هذا لم يفدني شيئاً. الثقل الذي كان على الدوام حاضراً في ذلك البيت بدا لي الآن غير محتمل أبداً. يداهم أمي صداعها كلما حاولت أن أكلمها في الأمر. ظننت أنها قد تكون قادرة أكثر من أي شخص آخر على مساعدتي في فهم مصيبتي إن لم يكن في تهوينها. فلأول مرة في حياتنا، صار بيننا شيء مشترك، صار بيننا شيء قد يقرب ما بيننا ... في البوح، في الحزن. لكن أمي ما كانت راغبة في الكلام... *لقد قضيت حزني. أنا غير قادرة على فعل المزيد.*

بدلاً من ذلك، صرت أنام كثيراً. صرت أتكور على نفسي في غرفة طفولتي مفتقدة راحة قرب مارك مني. قرأت كتب نانسي

درو، الكتب نفسها التي أحببتها عندما كنت فتاة صغيرة. مددت يدي ذات يوم إلى صف الكتب ذات الكعوب الصفراء فانتبهت إلى دفاتر يومياتي المغلفة بورق بني. تناولت واحداً منها، أخذته عن الرف مثيرة غباراً تراكم عليه عبر السنين. مررت بيدي على أول دفتر أهدتني إياه أليس. مررت بطرف إصبعي على أقواس قزح وعلى القلوب الوردية التي رسمتها بأقلام ملونة، رسمتها بكل عناية. فتحت الدفتر مثلما يفعل محبو الكتب، رفعته إلى أنفي واستنشقت رائحة سنين من البعد والإهمال. وعندما أبعدته عن وجهي، ابتسمت لرؤية خطي الطفولي، تلك الحروف الكبيرة غير القادرة على الاستقرار على السطور. كنت قد رسمت قمراً ذا هالة زرقاء. رسمت سيارة شاحنة صغيرة، سيارة لم تكن لأبي وأمي واحدة مثلها، سيارة مرسومة كيفما اتفق إلى جانب بيت ذي نوافذ معوجّة، بيت مرسوم مثلما يرسم الأطفال البيوت. خطوط متعرجة سوداء تمثل طيوراً. لا شيء غير عادي في هذا فكل شيء مألوف تماماً؛ لكن أحسست غرابة عندما قرأت كلماتي محاولةً العثور على معنى لها. ولأول مرة منذ زمن طويل، فكرت في تلك الأحلام، في ذلك التشوش الذي كان قبل أن تستقر الذكريات في عقلي. البيت الذي ما كان بيتي؛ والأم التي ما كانت أمي؛ سمعت صوت خطوات أمي مقتربة في الممر؛ ولسبب لا أفهمه، أغلقت الدفتر سريعاً وأعدته إلى مكانه على الرف. فتحت أمي الباب من غير أن تقرعه، فتحته مثلما تفتحه دائماً.

«غداؤك جاهز». جالت عيناها في الغرفة فأحسست في داخلي ذلك الشيء نفسه الذي كنت أحسه في طفولتي ... توجس من أنها ستوبخني لأمر فعلته.

«أنـا آتيـة». سـرت خلفهـا فـي الممـر، سـرت إلـى سندويتشـات سـلطة البيـض وشـرائح البطاطـس المقليـة.

أحسسـت انفراجاً يوم السـبت التالـي عندمـا توقفت سيارة مارك فـي الممـر الـذي أمـام البيـت. أتـى كـي يأخذنـي. «فلنسـافر فتـرة مـن الزمـن، يـا نورمـا!». كان هـذا أواخـر شـهر يونيـو، وكنـا جالسـين فـي شـرفة بيتنـا الخلفيـة نرقـب غـروب الشـمس.

كانـت إجابتـي مفاجئـة، «الحقيقـة أن هـذه فكـرة لطيفـة». كانـت مفاجئـة حتـى لـي.

كان مـارك يتوقـع اعتراضـاً مـن جانبـي فارتـاح عندمـا وافقـت علـى فكرتـه. نهـض عـن كرسـيه وأتـى إلـي وقبّلنـي. طالـت قبلتـه وهـو يزيـح عنـي البطانيـة التـي وضعتهـا علـى كتفـي طلبـاً للـدفء. مارسـنا الحـب تلـك الليلـة ... أول مـرة بعـد فقْدِنـا إياهـا. كان شـديد اللطـف معـي، أشـد لطفـاً مـن أيـة مـرة قبـل ذلـك. خشـي أن أنهـار. لكنـي بقيـت متماسـكة. وفـي الصبـاح التالـي، أحسسـت شـيئاً مـن العـودة إلـى أحوالنـا الطبيعيـة. ثمـة جـروح لا يمكـن أن تُشـفى. ثمـة جـروح لا تندمـل أبـداً. لكـن الابتسـامة تصيـر أكثـر سـهولة كلمـا تقـادم العهـد علـى الإصابـة.

«أين نذهب؟». كان يسكب القهوة، وكنت أحمّص بعض الخبز.

«لا أدري. اختـر أنـت. أريـد أن أبتعـد فحسـب». أضفـت الزبـدة إلـى الخبـز المحمـص ووضعتـه علـى الطاولـة بيننـا.

«واحـد مـن زملائـي فـي المكتـب لديـه بيـت صغيـر فـي نوفـا سكوشـا. تبـدو صـور بيتـه لطيفـة. غـروب الشـمس علـى الميـاه، والمـزارع، وبضعـة متاحـف لطيفـة. مـن الممكـن أن نذهـب بالعبـارة مـن بـار هاربـر».

«يبدو لي هذا حسناً».

«لا بأس. سآخذ إجازة من عملي، ثم نذهب».

كانت في صوته فرحة جعلتني أبتسم. ذلك الصباح، بعد وجبة الإفطار، ذهبنا بالسيارة إلى بار هاربر كي نمضي بعض الوقت خارج البيت. أتينا بمجموعة نشرات عن نوفا سكوشا. وخلال الأسبوعين التاليين، ملأت وقتي بالتخطيط لتلك الرحلة عندما يكون مارك بعمله، بالاتصال مع فنادق صغيرة لحجز غرف فيها، بوضع خطة لكل يوم من الأيام. ولأول مرة منذ أيام المدرسة الثانوية، عدت إلى كتابة يومياتي. كان ذلك بعد اتصالي مع خالتي جون ومع أليس.

«نحن على الخط معاً، يا طفلتي. ما الجديد؟»

«لا شيء. أردت إخباركما بأننا، أنا ومارك، ذاهبان إلى نوفا سكوشا في عطلة قصيرة. نحن في حاجة إلى قدر من صفاء الذهن».

بدأت أليس تقول، «سيكون هذا لطيفاً ...».

«سيكون لطيفاً. واحد من أصدقاء مارك لديه بيت هناك. سنقيم فيه بضعة أيام. سنرى المناظر الطبيعية، الصور التي في النشرات تبدو جميلة».

قالت أليس بصوتها الذي يشيع الهدوء في نفسي، «احرصي على تدوين كل شيء. الحسن وغير الحسن ... الأشياء الحسنة خاصة».

سافرنا أواسط شهر يوليو. وضعت حوائجنا في السيارة بينما كان مارك يتفقد الأبواب والنوافذ ويعطي الجيران مفاتيح

البيت كي يسقوا النباتات ويضعوا ما يأتينا بالبريد على الطاولة. ستكون هذه الرحلة أبعد رحلة لي حتى الآن. لقد ذهب مارك في طفولته إلى أريزونا وكاليفورنيا، لكني لم أتجاوز كثيراً الطريق رقم 95 بين مين وماساشوستس. ما كان في سفرنا إلى بار هاربر أي شيء متميز. توقفنا بضع مرات بسبب أشغال على الطريق السريعة، لكننا وصلنا قبل وقت طويل من موعد انطلاق العبارة. جربت ركوب الزوارق من قبل ... زوارق صغيرة وزوارق سياحية في ميناء بوسطن ... لكني لم أصعد من قبل إلى سفينة كبيرة كهذه العبّارة ولم تغب الأرض عن نظري. عندما خرجت من السيارة في بطن السفينة، هاجمت أنفي روائح الماء المالح ووقود السيارات. ومع إغلاق باب العبّارة، أحسست شيئاً غريباً في تلك المصابيح الصفراء الخافتة وفي الأصداء المعدنية في مكان وقوف السيارات في العبّارة، أحسست شيئاً يكاد يكون مخيفاً. استنشقت نفساً عميقاً لحظة بلوغنا أعلى السلم، لحظة خروجنا إلى النور.

كان يوماً جميلاً ... سماء زرقاء وبحر هادئ. استغرقت الرحلة أكثر قليلاً من ست ساعات. تناولنا وجبة طعام وبضع كؤوس من الشراب، ثم خرجنا من المطعم. أدهشني اتساع المحيط مع أننا لم نبتعد عن اليابسة كثيراً. ما أكثر الزرقة! كل شيء أزرق عدا الأفق، خط رمادي رقيق فاصل بين الماء والسماء. عندما تكون على الشاطئ، تكون قدماك في الماء لكن الأرض قريبة من خلفك. لديك نقطة استناد. وأما هنا، فنقاط الاستناد غائبة كلها. لا بد لنا من وضع ثقتنا في الطاقم لضمان ألا نضيع في تلك الزرقة كلها.

ذهب مارك في جولة في السفينة وجلست على واحد من المقاعد عند الموقد الزائف في ردهة المسافرين. ليتني أستطيع القول إنني قرأت في كتابي! بدلاً من ذلك، رحت أرقب الناس وأتساءل عن حياتهم. من أين هم آتون؟ ماذا أكلوا على الإفطار؟ ما الأشباح التي تسكن أحلامهم؟ نظرت إلى رجل وامرأة كهلين يتناولان مأكولات طرية ويشربان شاياً أسود. منذ متى هما معاً؟ كم طفلاً لديهما؟ أيكونان عائدين إلى موطنهما أم مسافرين منه؟ شاب جالس وحيداً يقرأ كتاباً ويبدو متوتراً. حاولت استراق النظر كي أعرف ما يقرأه، لكن غلاف الكتاب كان مطوياً إلى الخلف. هممت بالكف عن فضولي وبفتح الكتاب الذي اشتريته كي أقرأه خلال العطلة، لكنني رأيت رجلاً وامرأة في سن الشباب يدفعان عربة أطفال أمامهما. طفل رضيع عمره شهر أو شهران كان نائماً تحت بطانية وردية اللون. أحسست حرارة الدموع حتى قبل أن تظهر. أحسست بكائي يتجمع في حلقي ويشق طريقه إلى عيني. وعندما عاد مارك، عندما عاد بابتسامة ملء وجهه، عندما عاد متحمساً لإخباري عما رآه في السفينة، وجدني في أسوأ حال. لقد تركت المناديل في السيارة وما عادت بي طاقة كي أنهض وأبحث هنا عن منديل. كنت أمسح دموعي بكم ثوبي.

«نورما، يا إلهي! ماذا جرى؟»

قلت بصوت باكٍ، «لا شيء». وما كنت كاذبة ... إنه لا شيء.

«لا بد أن يكون ثمة شيء جعلك تبكين». ذهب إلى البار وأتاني بعدد من المناديل. ناولني إياها.

«أمر لا معنى له».

«جرّبيني». جلس إلى جانبي، جلس على الأرض ووضع يده على ركبتي.

«رأيت رجلاً وامرأة معهما طفل صغير. لست أدري. بدأت أبكي. رأيتهما سعيدين».

لم يقل شيئاً. ظل جالساً معي إلى أن جفت دموعي. بعض الأحيان، أنسى أنه يتألم أيضاً. حاولت أن أمسح الحزن عني؛ حاولت أن أستبدل بدموعي ابتسامة؛ حاولت أن أبتلع الغصة التي في حلقي. لكن مارك لم يقتنع بشيء من هذا كله. ظل يشدني إليه إلى أن تركته يحتضنني.

كانت بقية الرحلة سلسة. عندما رست السفينة في يارموث، كانت السماء لا تزال على زرقتها مع أن الهواء صار أبرد قليلاً. ومع خروجنا من السفينة بالسيارة ودخولنا بلداً جديداً، قال لي مارك، «لا أظنك ستبكين كلما رأينا طفلاً صغيراً».

التفت إليه فرأيته مبتسماً.

«هل يعقل أن تسخر مني الآن؟». كانت حرارة الاستياء واضحة في صوتي.

أجابني متلعثماً، «لا، لا، لا».

«الأمر ليس في يدي، يا مارك. لقد فقدت طفلتي ... فماذا تريد مني؟ سامحني إذا لم أستطع أن أكون المرأة الظريفة السعيدة التي تريد أن أكونها».

«لا، يا نورما. الأمر ليس هكذا. وأنا آسف. كنت أحاول المزاح فقط».

«ظريف جداً، يا مارك. ظريف جداً!».

أسمعهم يقولون إن الكلام بهذه الطريقة يمكن أن يخفف عن نفس الإنسان. وقد خفف عن نفسي. خفف عن نفسي لحظة واحدة. عندما توقفنا في محطة الوقود الواقعة بعد مرسى العبّارة، خرج مارك من السيارة من غير أن يقول لي شيئاً فحل محل غضبي إحساس بالذنب. خرجت من السيارة ولحقت به. كان عند صندوق المحاسبة فتناولت قطعتي شوكولاته ووضعتهما على طاولة البيع أمامه. همست في أذنه، «آسفة». ابتسم مارك، لكنها لم تكن ابتسامة كاملة.

نظر إلى الرجل الواقف خلف صندوق المحاسبة. «هل بطاقتك الهندية معك؟»(1)*

نظرت خلفي كي أرى الشخص الذي يكلمه الرجل.

«أنت، يا سيدتي ... هل تريدين استخدام بطاقتك الهندية؟»

«آسفة ... بل إنني لا أعلم معنى ما تقول».

«أوه، وأنا آسف أيضاً. ظننتك هندية».

نظرت إلى جلدي الذي زاده شهر يوليو سمرة. «من أصل إيطالي، هكذا قيل لي».

«مثلما تقولين».

أخذ الرجل المال من مارك، ثم خرجنا عائدين إلى السيارة.

قلت وأنا أنزع غلاف واحدة من قطعتي الشوكولاتة. «كان هذا أمراً غريباً».

«أنت سمراء، وتزدادين سمرة في الصيف».

---

(1) * بطاقة يستطيع السكان الأصليون في كندا الحصول عليها كي يستحقوا تخفيضات ضريبية وبضع تسهيلات أخرى.

رفعت قطعة الشوكولاتةإلى فمه كي يأخذ منها قضمة، ثم تحركنا خارجين من محطة الوقود.

«لا أظنه أراد إساءة بكلامه».

كانت نوفا سكوشا جميلة. أمضينا أسبوعين في التجول بالسيارة ورؤية المناظر. توقفنا في ديغبي كي نجرّب الاسكالوب ذا الشهرة العالمية، ثم مضينا عبر وادي نابوليس ذي المزارع الساحرة والتاريخ الغني. زرنا حصوناً قديمة أعيد ترميمها، حصوناً كانت في ما مضى ذات أهمية استراتيجية بالنسبة إلى الفرنسيين والإنجليز الذين تقاتلوا عليها سنين طويلة قبل أن يستولي عليها الإنجليز كلها. مررنا ببلدات صغيرة فيها سحر فيكتوري موروث من ماضيها الاستعماري، وفيها بساتين تفاح وحقول ذرة ممتدة من غير نهاية. ما كنا متعجلين. أقمنا في بيت صديق مارك في بلدة صغيرة اسمها كينغزبورت ورأينا كيف يتقدم المد أميالاً، ثم تتراجع المياه. أهل نوفا سكوشا شديدو الاعتزاز بالمد العالي الذي لديهم، وهم محقون في اعتزازهم هذا ... تلك الكمية الكبيرة من المياه تتدفق داخلة الخليج، خارجة منه، مرتين كل يوم. أظن أن تلك البلدة كانت محطتي المفضلة بهوائها المالح ومأكولاتها المحلية الطازجة. أكلنا خضراوات، وأكلنا فطيرة فراولة. دعانا واحد من الجيران في كينغزبورت إلى «لقاء الفراولة» المحلي حيث دفع كل منا خمسة دولارات مقابل وجبة من لحوم متنوعة مع خضار طازجة مطهوة بالحليب والزبدة؛ وكانت الحلوى فطائر بالفراولة. وللمرء أيضاً أن يشرب قدر ما يحب شربه من قهوة وشاي. كان الناس متحفظين، لكنهم ودودون.

أحسست في ذلك المكان ألفة غريبة؛ ليست ألفة مع الناس بقدر ما هي ألفة مع المناظر الطبيعية. كانت ألفة مع الأشجار التي تحف بالطرقات، مع البلدات الصغيرة بمبانيها الإدارية الكبيرة المبنية من الآجر. كان ذلك شيئاً لم أستطع تحديده. قال لي مارك في لحظة مزاح: لا بد أنك كنت من أهل هذه المنطقة في حياتك السابقة. ضحكنا؛ ولعلي كنت أصدق ما قال لو أنني من المؤمنين بهذه الأمور. ذات مساء، قبيل نهاية إقامتنا، سرت وقت الجزر على امتداد شاطئ رملي ورحت أتنفس هواء البحر المالح. جلست أرقب السماء تتحول من الأزرق إلى الوردي إلى الأرجواني، ألوان كأنها منبثقة من الغيوم. سحرني غناء طيور بحرية صغيرة.

سلم من خشب صاعد من الشاطئ إلى الجروف التي فوقه. كان وقت الجزر فجلست على درجات السلم أرقب بزوغ القمر وصعوده فوق المنبسطات الطينية. أمواج تطاول الشاطئ وتهمس لي مع اقترابها مني. كنت أسمع أصوات أطفال يلعبون في مكان في الأسفل، عند الشاطئ. لكن القمر لما يرتفع بعد كي يلقي عليهم ضياء يجعلني أراهم. كنت أنظر معجبة إلى القمر يزداد علواً، لكن حضور الأطفال جعل الهواء من حولي بارداً. بدأ النسيم العليل يقرص ذراعي حيث كان الجلد عارياً؛ وكان الأطفال يضحكون. نظرت إلى الأسفل فرأيت خيالات الجروف متفاوتة الارتفاع، ورأيت الأشجار التي أرهقتها الريح، لكنني لم أر أطفالاً. هدأت الأصوات الشبحية مع اكتمال ضياء القمر. لعلهم توقفوا عن اللعب كي ينظروا إلى القمر معجبين به مثلما كنت معجبة،

أو لعل أمهاتهم نادينهم إلى البيوت كي يناموا. لعلهم تلك الأشباح التي وجدت الناس في هذا المكان مولعين بالحديث عنها. مكان تتناقل فيه الأجيال قصص الأشباح وتصدقها تصديقاً تاماً. لم أدر أين ذهب أولئك الأطفال، لكني فهمت الرسالة التي حملوها إلي. علا القمر فوق المياه وطفا سابحاً مع المد فطوقت نفسي بذراعي وبكيت. لقد عاشت أمي مع أشباح أطفالها الذين ماتوا، الذين فقدتهم حتى قبل أن يتكونوا فعلاً. وأنا عشت في ذلك البيت حيث تسود الأشباح. وهناك، على شاطئ معتم شديد البعد عن موطني، لكني أحسسته مألوفاً لي، فهمت أمي وفهمت الأشباح التي كانت تسكنها، وفهمت أنني غير قادرة على أن آتي إلى هذا العالم بطفل وأنا عارفة أنني سأفعل مثلما فعلت أمي. سوف أرى شقيقتهم التي ماتت، سوف أراها في ملامح وجوههم الصغيرة. سوف أخنقهم بالحب الذي لم أستطع تقديمه إلى صغيرتي سارة. استنشقت هواء البحر المالح وأشحت عن القمر بوجهي. ومع اقتراب الأرض التي في الأعلى مع كل خطوة أخطوها، حلت عليّ خفة، حلت عليّ خفة تكاد تكون انفراجاً. أدركت ما ينبغي عليّ فعله وابتسمت على الرغم من معرفتي أنني سأكسر قلب مارك، ابتسمت ابتسامة حقيقية ... أول ابتسامة حقيقية منذ أمد بعيد.

وجدنا مدينة هاليفاكس ساحرة بباراتها وأغانيها البحرية التي بدا لنا أن كلماتها معروفة لكل امرئ هناك. بالغنا قليلاً في الشرب ورقصنا حتى طلوع الشمس. غادرنا الفندق بعد ساعات قليلة من ذهابنا للنوم.

«يبدو لي أنك تمضين وقتاً طيباً». ناولني مارك قرصاً مسكناً من أجل صداعي، من أجل الصداع الذي يضاهي صداع أمي.

«أنا سعيدة». ابتلعت القرص مع رشفة قهوة.

«يسرني هذا. ألديك ما تودين قوله لي؟»

«ماذا تعني؟»

«ماذا تغير؟»

«لا شيء».

«لا شيء؟!»

«لا شيء». استدرت وجلست في السيارة المستأجرة. وضعت نظارتي الشمسية وغطيت بها عيني كي لا تشيا بأمري.

كان الساحل الجنوبي رائع الجمال. على امتداد الساحل، قرى صيادين صغيرة ومنارات كتلك التي على البطاقات البريدية. أظن أن ثمة ما ينبغي أن يقال عن هواء البحر المالح. أعلم أنه موجود لدينا في ولاية مين. لكن ابتعادك عما تعرفه، ضياعك في هواء البحر المالح الشمالي البارد، أمر نافع للروح. مارك أحس هذا أيضاً. سرنا متماسكي اليدين، وراقبنا غروب الشمس، ومارسنا الحب فكان مثل أول مرة لنا. كانت تلك نهاية حسنة ... بقدر ما يمكن أن تكون النهايات حسنة.

ومع دخولنا السفينة العبّارة في يارموث، عندما كنا على أهبة الإبحار إلى بار هاربر، أخبرت مارك. كنا لا نزال جالسين في السيارة منتظرين الإذن بالخروج منها كي نصعد إلى الأعلى. أضافت الإنارة الغريبة شيئاً إلى الحديث الذي لم أكن أعتزم بدءه.

«مارك ...».

التفت إلي منتظراً أن أقول شيئاً.

«أحبك».

«وأنا أيضاً أحبك».

«أنا آسفة لأنني كنت ... لأنني كنت بعيدة منذ طفلتنا».

مد يده وأمسك بيدي. «لا بأس عليك. كان ذلك قاسياً، لكن في وسعنا أن نحاول مرة ثانية». مال صوبي وقبل خدي فابتعدت عنه.

«هذه هي المشكلة».

«مشكلة ماذا؟»

«لا أريد المحاولة مرة أخرى».

«أنت لا تزالين حزينة. انتظري حيناً من الزمن، وسوف نرى».

«لا، يا مارك. أنا جادة. عشت حياتي كلها مع أشباح أطفال ماتوا، ورأيت الثمن الذي يستتبعه ذلك. امتصوا الحب من كل غرفة؛ وجعلوا العالم صامتاً، مخيفاً. لن أفعل بنفسي هذا. لن أفعل بك هذا».

أفلت مارك يدي فسقطت عائدة إلى حجري. قبضت يداه على عجلة القيادة كأنه يريد الانطلاق بالسيارة خارجاً من العبارة ... لكن، لا سبيل إلى الخروج.

«ليس لك أن تقرري هذه الأمور بمفردك. كانت لدينا خطة».

«الخطط تتغير».

رجل في بدلة عمل ملوثة بالشحوم وسترة عاكسة للضوء أشار إلى أن في وسعنا أن نخرج من السيارات. خرج مارك من السيارة

وصفق بابها من خلفه ثم اختفى صاعداً السلم قبل أن أستطيع اللحاق به.

حزنت على مارك ... حزنت عليه. في حياتي كلها، لم أعرف إحساساً على ذلك القدر من السوء. ينبغي أن يكون هذا معلوماً. أردت أن أكلمه، أن أشرح له، لكنه ذهب وضاع في أحشاء السفينة. وددت أن أبكي، وددت أن أقف على سطح السفينة مع مارك وأن أصرخ في قلب ريح المحيط. أردت أن أترك الريح تحمل حزني وغضبي، تحمله إلى الأزرق. سوف يضيع هناك، وسوف أكون حرة. لكن مارك كان قد مضى بعيداً ... في الظلمة.

اهتزت السفينة ومضت مبتعدة عن المرسى فصعدتُ السلم وذهبت إلى البار. كان أكثر من في السفينة من الأسر المسافرة معاً، وكنت الوحيدة التي جلست على واحد من الكراسي العالية عند البار.

«نبيذ، من فضلك. أبيض».

سألتني عاملة البار، «ست أونصات، أم تسع؟». كان لها شعر أشقر داكن اللون عند جذوره؛ وكان لها مظهر من كانت نحيلة ذات يوم.

«تسع أونصات، من فضلك».

كان النبيذ ذا لذعة حامضية أحسستها خلف أذني. تنهدت وابتلعته. فوجئت عاملة البار عندما طلبت كأساً ثانية، ثم ثالثة.

سألتني عندما نقرت على طاولة البار ودفعت بالكأس صوبها مستعدة لكأس رابعة، «هل أنت على ما يرام، سيدتي؟»

«على أحسن ما يرام. أنا بخير تماماً. ابنتي ماتت؛ وأظن أنني قد خرّبت زواجي». سمعت كلماتي تخرج من فمي غاضبة، متلعثمة بفعل الشراب. لحظة خروجها من فمي، وددت أن أستطيع استرجاعها. «آسفة، إنني آسفة. إنني أبالغ».

«ما رأيك في كأس ماء؟»

«لا. أريد كأس نبيذ أخرى. سأظل هادئة ولن أزعج أحداً. أعدك بهذا».

انزلقت عن الكرسي قليلاً. ولحظة مددت يدي كي أثبت نفسي، أحسست يداً على وسطي تعيدني إلى الكرسي. «أريد كأس نبيذ».

«أعطها كأساً أخرى. أنا سأهتم بها. وسوف آخذ كأس بيرة». جالس مارك إلى جانبي.

«مثلما تريد، إذا تقيأت فسوف تكون مسؤولاً عن التنظيف». غمزت له بعينها فتمنيت أن أسدد لها لكمة.

لم أكلمه، تركته جالساً هناك، صامتاً، حزيناً. ساعدني مارك في النزول عن الكرسي عندما حان وقت الذهاب. أسندني أثناء سيرنا نازلين درجات السلم وساعدني في الجلوس في السيارة. ومع انطلاق السيارة بنا خارجة من العبّارة بعد بضعة أيام من أسعد أيام حياتي، علمت أن ما من شيء سيظل على حاله وأنني المذنبة في ذلك. لا وقت لدي للندم، وليست لدي القوة النفسية اللازمة له. أرى العالم سائراً مثلما هو مراد له. أحياناً، أجد صعوبة في العثور على معنى في الأشياء التي وقعت لي، لكنني أفترض أن الكون يعلم ما يفعله. قد يكون من واجبي أن أحمل

هـذا الأسـى، هـذا الأسـى الـذي قـد لا تكون امـرأة غيري قويـة بالقدر الكافـي لـحملـه. فقـدت طفلتي وتركت زواجـي يتهـاوى كـي يجـد أحـدٌ غيـري سـعادة فـي هـذه الأشـيـاء. كانـت أمـي تقـول دائمـاً إن الـرب لا يعطينـا أكثـر ممـا نسـتطيع تدبـره. صـحيـح أننـي غيـر مؤمنـة بالـرب الـذي كان يمنحهـا تلـك الراحـة كلهـا، لكنـي أفهـم معنـى ذلـك. فـي تلـك اللحظـة، عنـد تلـك النقطـة فـي حياتـي، كنـت فـي حاجـة إلـى التصالـح مـع القـرارات التـي اتخذتهـا وإلـى أن أخـطّ لنفسـي دربـاً أخـرى فـي الحيـاة.

- 9 -

جو

ما كانت تحسن صحتي سهلاً. يؤلمني جانبي الأيمن كله منذ لحظة استيقاظي صباحاً إلى أن أضع رأسي على الوسادة ليلاً. وحتى في ذلك الوقت، كان الألم يسكن نومي، يتسلل إلى أحلامي، فيحولها إلى كوابيس كلها زعيق مكابح وأصوات أجهزة طبية في المستشفى. كان ألماً عميقاً جداً، ألماً لا تقدر أية كمية من الأدوية والتمرينات على إزالته. فمهما تناولت من أقراص ومهما شربت من أقداح الويسكي التي تقدمها إلي عمتي ليندي، أظل مقتنعاً بأن الألم سيسكنني طيلة ما بقي من حياتي. كنت على ثقة تامة من هذا الأمر ... ثقة جعلتني أفعل كل ما في وسعي كي أبرهن على صحته. أمر حسن أن يكون الرجل صاحب تصميم، أمر حسنٌ معظم الأحيان. لكن رجلاً في نفسه مرارة إزاء الحياة في سن الرابعة والعشرين، رجلاً مصمماً على إبقاء تلك المرارة متلظية، ليس أمراً حسناً على الإطلاق. وقد جعل الألم غضبي أسرع اشتعالاً. حاولت ماما طرد الألم مني بحبها، وحاول بابا وبن إبعاده عني بأن يأخذانني إلى الغابة، وحاولت ماي أن تلعنه حتى يزول، لكن ذلك كله كان من غير جدوى. كنت مصمماً على ترك ألمي وغضبي يدمرانني.

في الشهور التي أعقبت الحادثة، وحدي في غرفتي الصغيرة في مركز إعادة التأهيل في هاليفاكس، وما من شيء يؤنس وحدتي غير كتب فائحة برائحة عفونة، كنت في حاجة ماسة

إلى من ألقي باللوم عليه. قررت أن يكون السيد ريتشادسون ذلك الشخص. إنه الروح المسكينة التي كانت تقود السيارة عائدة إلى البيت لتناول العشاء عندما خطوت خارجاً من الظلمة وصرت أمام مقدمة السيارة.

قالت لي ماما، «ما من سبب يجعلك غاضباً عليه». كانت جالسة إلى جوار سريري في المستشفى، وكانت تخرج الخبز من علبة مرغرين قديمة ... «كيف كان منتظراً منه أن يراك؟»

«كان عليه أن ينظر أمامه».

«ليلة يوم سبت؟! أينظر متوقعاً خروج صبي من الظلمة؟ هل كان منتظراً منه أن يعلم أنك ستقفز أمام سيارته؟». ووضعت الخبز على طاولة المستشفى الضيقة وقرّبتها مني قبل أن تضع عليها المربى. «هذا لذيذ ... كُل!».

كان الخبز لا يزال دافئاً. سال المربى على حافة قطعة الخبز وتجمع عند أسفلها. استخدمت إصبعي كي أحمل بعضاً منه إلى فمي فسقطت نقطة على ذقني. همت ماما بأن تمسحها فضربت يدها مبعداً إياها عني.

«هذه آخر مرة تفعل هذا». مدت يدها من جديد كي تمسح عن ذقني تلك النقطة البنية اللزجة فتركتها تفعل ذلك. قالت لي، «أنت لست محطماً إلى درجة تجعلني أتركك تفلت بفعلتك، بضربك أمك».

في الأيام الطيبة عندما بدأت التمرينات تفلح في تخفيف الألم وزال برد الشتاء فصرت قادراً على الخروج والجلوس في الشمس، أصبحت قادراً على العثور في نفسي على شيء من

الصفح عن السيد ريتشاردسون. لم يطالبني بهذا، وما كان لي حق في إعطائه، لكني عثرت عليه ... في الأيام الحسنة. وأما في الأيام السيئة، عندما ينقلب الطقس ضدي ويتساقط الثلج ويغوص البرد في عظامي ... مع أن البرد كان محبوساً في الخارج وكنت محبوساً في الداخل ... في تلك الأيام عندما تؤلمني التمرينات أكثر مما تفيدني وتصير الأقراص المسكنة غير كافية ... في تلك الأيام الثقيلة، يتقيّح غضبي وينمو. وكلما طال زمن رقادي في السرير في هاليفاكس ناظراً إلى قدميّ اللتين ترفضان فعل ما أريد، وكلما طال بقائي على نار ظروفي هذه، كلما ازددت غضباً. لعل ذلك الرجل في ذلك المتجر في ولاية مين قبل تلك السنين كلها كان مصيباً فيما قال! لعل ثمة أمراً في دمنا، نحن الهنود. أو ... لعل هذا مقتصر عليّ وحدي!

أمضيت في مركز إعادة التأهيل ستة شهور، ستة شهور طويلة منتظراً أن يتعلم جسدي من جديد تلك الأمور كلها التي أريد منه فعلها. اشتقت إلى صيد الغزلان مع بابا، واشتقت إلى أعياد الميلاد. ثم أتى الشتاء فأجبر أسرتي على ملازمة البيت، ذلك البيت الذي كان على مسافة ثلاث ساعات في الأجواء الحسنة. كانت الشمس قد بدأت تعود إلى العالم عندما تحسن وضعي إلى حد يسمح لي بمغادرة المركز مستعيناً على السير بعكاز، متيبساً، متألماً طيلة ساعات النهار. رحت أسترق جرعات من ويسكي بابا كي يظل الألم محتملاً.

كانت ماي واقفة فوقي، يدها على خصرها، «تظل جالساً هنا ساعات طويلة كأنك خرقة. سوف تتيبس كلك إذا لم تتحرك سريعاً».

«اتركيني وشأني، يا ماي. أنا متعب». دفنت نفسي في الكرسي وحاولت تفادي النظر إليها، حاولت النظر عبر نافذة غرفة المعيشة الكبيرة، لكنها لم تتحرك.

«يقول الطبيب إن عليك أن تمارس التمرينات. حرّك مؤخرتك وسر حتى نهاية الممر، ثم ارجع. لا تظنني غير منتبهة إلى أنك تختلس الويسكي، لأنني منتبهة».

«اتركيني وشأني، يا ماي. لست في حاجة إلى محاضراتك الآن».

«كف عن هذا! كف عن أسفك على نفسك!».

حاولتُ أن تتفاداها عيناي لكنها تحركت معهما حاجبة الرؤية عني. مدت يدها كي تساعدني في النهوض عن الكرسي، لكني ضربتها مبعداً إياها عني. اتضح لي أنني كنت مكروباً في البيت مثلما كنت مكروباً في مركز التأهيل. لم تفلح أصوات البيت وروائحه المألوفة في تحسين مزاجي. حافظت على كوني ألماً وإزعاجاً لمن يحبونني.

«يعجبك أن تعثر على الخطأ في كل شخص، إلا في نفسك».

كان الموقد يشيع دفئاً في تلك الأمسية الباردة من أمسيات شهر أبريل. جلست ماي إلى جانبي وكان جذع الشجرة العتيق بيننا.

«كفي عن هذا، يا ماي! أنت لا تعلمين شيئاً».

«لن أكف عن شيء؛ وأنا أعلم أكثر مما تعلم. يبدو لي أن تلك الحادثة قد أفقدتك عقلك. أنت تلوم الرجل المسكين مع أنك أنت الذي قفزت أمامه. لعلك جعلته يفقد صوابه ... ذلك الرجل العجوز. هذا أسوأ نوع من أنواع رثاء الذات ... أن تلوم شخصاً آخر على ما فعلته أنت».

«انقلعي عني، يا ماي!».

ضحكت ساخرة، «أوه، أنت تلعب الآن دور رجل كبير!».

كان توجيه الشتائم إلى ماي أشبه برمي البنزين على النار.

«أنت تمضي الوقت كله في التحسر على نفسك بدلاً من أن تحاول التحسن. وأنت تريد منا جميعاً أن نسايرك في هذا. أنت تؤذي ماما. هي لن تقول لك هذا، لكنك تؤذيها».

«أنا لا أؤذي ماما».

«إنها مذعورة، يا جو ... مذعورة لظنها أنها ستفقد واحداً آخر من أطفالها. وأنت تفعل كل ما تستطيع فعله كي تغذي ذلك الذعر. تظل جالساً هنا ولا تؤدي تمريناتك. وجهك كئيب كأنه وجه مومياء ميتة».

«المومياءات ميتة كلها، يا غبية».

ضحكت ساخرة. «تظن نفسك ذكياً جداً مع أنك لا تفعل شيئاً غير الجلوس هنا، لا تفعل شيئاً غير أن تظل غبياً. لا تفعل شيئاً كي تصير أحسن حالاً. وأنت ترفض حتى أن تتحدث عن مسؤوليتك عما ما جرى».

أحسست كيف دبت الحرارة في وجهي، كيف قفز قلبي من صدري إلى حلقي متوعداً بأن يخرج من فمي.

«أشعر بالذنب، يا ماي». لم تكن كلماتي صراخاً، لكنها كانت قريبة من ذلك.

«عليك أن تحس هذا».

«كنتُ آخر من رأى روثي. أنا الذي أضاعها. أحس ذنباً، يا ماي. لا تقولي لي إنني أحس ذنباً. قد لا يكون إحساسي حيث ينبغي أن يكون، لكني أحس ذنباً».

ظلت ماي صامتة لحظة. كانت تنظر إلى يديها وهما تلفان سيجارة. نار الموقد تفرقع وتبصق اللهب في حين كانت ماي تمر على حافة الورق بلسانها، ثم تلفه كي يستقر التبغ في موضعه. استنشقتْ نفساً عميقاً قبل أن تنطق بالحقيقة، بحقيقتي.

«أنت تحمل هذا كأنه نوع من وسام ... كأنه يجعلك شخصاً ذا خصوصية، أو شيئاً من هذا القبيل». أشارت إلي بسيجارتها التي لم تشعلها بعد ... «ليست لك خصوصية لأنك كنت آخر من رآها. تماماً مثلما ليست لك خصوصية لأنك كنت هناك عندما مات تشارلي». توقفت عن الكلام كأنها تحاول التفكير في شيء آخر تقوله ... «ليست لك خصوصية بسبب هذه الأشياء، يا جو. لم تكن أكثر من أشياء حدثت عندما كنت هناك».

«يا ماي ...». رفعت يدها كي تسكتني، فأطبقت فمي. ألقت بالسيجارة التي لفتها في النار، ألقتها من غير أن تدخنها.

«كونك آخر شخص رأى روثي ذنبٌ لا يحق لك أن تحمله كله وحدك. لكل منا نصيب منه. ثم إن اعتقادك أنك ذا خصوصية لا يفعل شيئاً غير جعل الأمر أشد سوءاً بالنسبة إلى بقيتنا. لست ذا خصوصية، يا جو. لقد سئمت السير على رؤوس أصابعي عندما أكون قريبة منك وكأنك سوف تتحطم. اكبر ... اللعنة عليك».

تُكتسب الحكمة اكتساباً. هذا ما أسمعه. أظن أن هذا صحيح، على الأرجح. لكن ماي حكيمة بالفطرة. حكمتها غير مغلفة بكلمات منتقاة أو مدوّنة في كتب. ما من شيء أنيق في حكمتها بل هي ملقاة في العالم بحوافها الحادة كلها. لكن لها أثرها. لعلها لم يكن لها أثر في تلك الليلة بعينها. في تلك الليلة، آويت

إلى فراشي غاضباً على ماي، ولم أستطع نوماً. رقدت مستيقظاً، أغلي غضباً، رقدت في هذا السرير الذي أنا راقد فيه الآن بعد عشرات السنين. كفت ماي عن الكلام معي، لكني ما كنت مستعداً لمنحها رضا أن تكون من يقول الكلمة الأخيرة. بعد بضعة أسابيع من ذلك، وجدنا نفسينا وحيدين من جديد على مقربة من الموقد الذي في الخارج نفسه؛ وكان بابا وماما قد ذهبا كي يناما. كانت الأقراص المسكنة قد نفدت؛ وكان ظهري متشنجاً فلم أستطع النهوض. حاولت لكني سقطت على الكرسي، حاولت مرتين. جلسنا صامتين وهدير الطريق السريعة البعيدة عنا نصف ميل تمازجه أصوات ضفادع الأشجار وفرقعة النار التي تخبو، التي تتحول بطيئاً إلى رماد. نهضت ماي واقفة عندما بدأت الجمرات تصير سوداء اللون، وأتت إلي. أحاطت وسطي بذراعها وأنهضتني عن الكرسي. بقيت مستنداً إليها كي أحفظ توازني وهي تقودني إلى فراشي.

قلت لها وهي تساعدني في الاستلقاء على السرير، «إنني آسف، يا ماي».

انحنت كي تخلع الحذاء من قدمي. «لا تكن آسفاً. كن نافعاً!».

تلك الليلة، عندما كنت أحاول العثور على وضعية مريحة في فراشي، قررتُ أن ماي قد تكون محقة ... مع أنني لا يمكن أبداً أن أقول لها هذا. إذا لم أستطع أن أعود مثلما كنت قبل الحادثة، فلا أقل من أن أعمل بنصيحتها وأكون نافعاً. لذا، صرت أذهب إلى الغابة مع بابا وبن. وبعد ثلاثة شهور، عندما عرّج علينا السيد ريتشاردسون وكرر عرضه بأن أعمل عنده، قبلت ذلك العرض.

ثمة شيء في رائحة البنزين لا يزال يعود بي إلى زمن مضى، يعود بي إلى ذلك المكان. يعود بي إلى زمن عرفت فيه ذلك النوع من المسرة الذي كان موجوداً قبل اختفاء روثي. تلك الأيام، عندما كانت الأسرة كاملة وكان الغضب هاجعاً. أستطيع سماع تكّات الأعداد الدوارة على مقياس مضخة الوقود؛ وأستطيع الإحساس بالسخام المتجمع ثخيناً، داكناً، على مفاتيح آلة صندوق المحاسبة. رجال يبدلون زيت السيارات، ويضغطون على تلك المفاتيح. العمال الدائمون الذين يبقون زمناً طويلاً جداً، يبقون كي يثرثروا جالسين على كراسي البلاستيك المتشققة ودخان سجائرهم المنسية متصاعد من منفضة السجائر ... شدة انشغالهم بالكلام تنسيهم سجائرهم. بدأت عملي أواخر الخريف مع أول البرد. وقد ظل البرد مقيماً طيلة الشتاء. البابان الكبيران اللذان ينفتحان في كل حين كي تخرج سيارة وتدخل سيارة غيرها، كانا يوفران للشتاء منزلاً. تجدني جالساً على كرسي عالية من الاثنين حتى الجمعة، من الثانية بعد الظهر حتى التاسعة ليلاً.

كان لا يزال بي نزوع إلى ثورات الغضب تلك. حوادث صغيرة جداً لا يمكن أن يلقي إليها أحد بالاً كانت قادرة على جعل دمي حاراً، فوّاراً. رجل في سن الكهولة يحب أن يحكي قصصاً وفيه شيء من الصمم كان يترك سيارته، يتركها على الدوام، متوقفة عند مضخات الوقود ويترك سيارات الآخرين تنتظر. وفي يوم من أيام شهر نوفمبر، كثرت السيارات المنتظرة خلفه حتى بلغت الشارع العام، لكنه ظل واقفاً يحكي لي قصة سمعتها منه مليون مرة. سرت متجاوزاً إياه، وصعدت إلى سيارته وشغّلتها.

انطلقت بسيارة أولدز موبايل، سيارته، انطلاقة عنيفة جعلت عجلاتها تنزلق على الأرض سريعاً ففاح المكان كله برائحة المطاط المحروق. أوقفت السيارة على العشب، وصفقت بابها ثم ركلته وعدت فجلست على الكرسي العالية. صمت الجميع وظلوا محدقين فينا دقيقة إلى أن استدار الكهل وانصرف. اعتباراً من تلك اللحظة، كف عن التلكؤ في الصباحات.

في تلك الفترة، بدأت كورا العمل معنا، من السابعة صباحاً حتى الثانية بعد الظهر. تكون على أهبة الانصراف لحظة وصولي تماماً. لم يمض زمن طويل قبل أن أبدأ المجيء أبكر قليلاً مما هو مطلوب مني ... فقط كي أستطيع أن أكلمها، أن أنظر إليها وهي تنزل عن الكرسي العالية وتحصي النقود التي في الصندوق. كانت قصيرة القامة، وكان شعرها ضارباً إلى الحمرة. تكبرني كورا نحو عشر سنين؛ وكانت تبدو لي أشبه بشخصية من شخصيات قصص الأطفال ... نمش متناثر على أنفها وعلى وجنتيها، وشفتان ممتلئتان تطليهما كل يوم بلون وردي. وبالطبع، كنت أعرفها. بلدتنا ليست كبيرة إلى حد يمكن معه أن يكون أي شخص غريباً عنك تماماً. لكني لم أكلمها قبل ذلك أبداً. احتفلنا بعيد ميلادها الرابع والثلاثين بعد ظهر يوم بارد من شهر ديسمبر، قبيل عيد الميلاد. رأيتها تأخذ آخر قطعة من الحلوى وتأخذ البطاقة المالية التي ساهمنا فيها جميعاً هدية لها فحاولتُ بأفضل ما أستطيع أن أكون شخصاً ساحراً.

سألتها، «هل أعجبتك الحلوى؟»

«نعم، إنها جيدة».

مكتبة
t.me/soramnqraa

«كانت لذيذة».

«كانت لذيذة».

انتظرت كورا لحظة، ولعلها أرادت رؤية إن كنت سأقول شيئاً آخر. لكن الهواء هجر رئتي وهجرتْهما كل كلمة أعرفها. في حياتي كلها، لم أكن بارعاً في الكلام؛ لكني تفوقت على نفسي بذلك الصمت الغريب يومها وكل يوم بعده على امتداد بضعة شهور.

ومع مجيء الصيف، كانت أقداح عمتي ليندي، أقداح الويسكي التي أشربها خلسة، قد صارت لترات من أرخص ويسكي أستطيع العثور عليه. كان طعمه فظيعاً، وكان حارقاً عندما أبتلعه. لكني أتناول بضع جرعات منه فأصير قادراً على أن أثني ساقيّ من غير أن أزفر ألماً. أصير قادراً على أن أجثو كي ألتقط شيئاً سقط على الأرض ثم أنهض من جديد. ليس منصفاً أن يكون المرء شاباً وأن يكون ضعيفاً. لا إنصاف في هذا؛ لا إنصاف فيه أبداً. الأقراص المسكنة انتهت منذ أمد بعيد؛ وبعض الأحيان، أصير غير قادر على احتمال الألم. كان ألمي يبدو كأنه يشع من عظامي فيسمم عضلاتي كلها. لكن، حتى في ذلك الضباب المستمر الناتج إما عن الألم أو عن الكحول، كنت أتوقف دائماً عندما تأتي كورا وتدخل الباب. أسعفني سُكري بعد ظهر يوم من الأيام فعثرت على قدر من الجرأة.

«هل تحبين أن تأتي معي إلى البيت؟ نتناول مساء السبت طعاماً مطهواً على النار. وقد أتى أخي بن في زيارة قصيرة».

«هل تطلب مني أن أخرج معك في موعد؟». انثنت زاوية

فمها وعلته ابتسامة صغيرة. مالت برأسها جانباً. انسدل شعرها الأحمر فوق عينيها ... «كم بلغ عمرك ... إحدى وعشرين، اثنتين وعشرين عاماً؟»

قلت متلعثماً، «أنا في الخامسة والعشرين. أكاد أصير في السادسة والعشرين».

«لا بأس ... أنت لست صغيراً، يا جو. ماذا سنفعل في موعدنا هذا؟ ... على افتراض أنني موافقة».

لم أدر... أصادقة هي أم تعابثني؟

قلت، «لا أدري على وجه التحديد. نجلس مع أسرتي من حول النار، ونتناول الطعام، ونشرب بضع كؤوس من البيرة».

«وماذا يقول أهل البلدة إذا علموا أنني أمضي وقتي مع واحد منكم، أنتم الإنجون؟»(1)*

ما عاد أحد يدعونا بهذا اللقب، على الأقل ليس أمام الناس. وأما في تلك الأيام، فما كان أحد ليتوقف عنده. التعالي علينا أمر شائع في البلدات الصغيرة، أمر لا يعبأ بأن يلتمس لنفسه أعذاراً.

«سيقولون إنك فتاة محظوظة».

«إذاً، أنا آتية». ابتسمتْ ابتسامة كبيرة هذه المرة ... نمشها منتشر على أنفها الدقيق.

«ما رأيك أن آتي لآخذك؟ يوم السبت، قرابة الساعة الرابعة».

«رأيي أن هذا جيد. لكن عليك أن تعيدني إلى البيت. لذا، لن تتناول شيئاً من تلك الجرأة الذهبية التي أراك تسترقها».

(1) * Injun: كلمة كانت مستخدمة في بعض نواحي كندا للإشارة إلى السكان الهنود الأصليين.

«أقبل هذا. من غير ويسكي. على أية حال، لن أكون في حاجة إليه لأنني معك».

ضحكت كورا، ثم حملت حقيبة يدها وخرجت من واحد من البابين الكبيرين. أتى الميكانيكي روجر وربت على ظهري.

قال لي، «أحسنت صنعاً، يا جو. امرأة أكبر منك. ستعرف كيف تروّضك».

تزوجنا ليلة رأس السنة الجديدة وكان ذلك في الكنيسة المعمدانية. أمي المسكينة كانت سعادتها بأنني حي كبيرة إلى حد جعلها تقبل بشعائر كورا المعمدانية. وأنا لم أكن يوماً شديد الولع بالكنيسة. كنت مؤمناً بالرب بحكم العادة، لا أكثر. لهذا، لم أر أهمية للمكان الذي يتم زفافنا فيه. لكن الأمر كان مهماً بالنسبة إلى كورا. كانت الكنيسة مزينةً بأغصان صنوبر قطعها بابا وبن وبغصينات صفصاف بري جمعتها كورا وشقيقاتها من الخنادق المحاذية للطرقات. كانت كورا قد اشترت ثوب زفافها من متجر للملابس المستعملة. ساعدتها أمها في ضبط مقاسه.

قبو الكنيسة بارد قليلاً، فائحٌ بروائح الغبار والقهوة وفطائر الكنيسة، تلك الفطائر الحلوة الصغيرة بيتية الصنع المغلفة بجوز الهند المحلى والكراميل الذي تثير حلاوته الغثيان. ما كان في أسرة كورا من يتناول الكحول، وذلك بحسب تعاليم مذهبهم. لذا، صرنا ننسل إلى الخارج بضع دقائق، أنا وبابا وبن، كي نرفع أنخاباً ونشرب ويسكي ممتازاً اشتراه بابا لهذه المناسبة.

«نعم، يا جو ... أنا مسرور لأجلك». رفع بابا كأسه الصغيرة تحت مصباح الكنيسة الخارجي. وكانت شواهد القبور منتصبة من خلفه، رزينة.

ربت بن على ظهري. «هذا أمر حسن، يا صاحبي ... أن تعثر على واحدة ظريفة مثلها كي تستطيع أن تحتملك».

«أشكرك. كورا شخص جيد. لا أزال غير قادر تماماً على تصديق أنها قبلت الزواج مني». نقلت ثقل جسدي إلى ساقي اليسرى كي ترتاح اليمنى قليلاً. لا يزال البرد يقرصني عند مواضع كسوري.

«لا أحد منا قادر على تصديق هذا». أغلقت ماي الباب من خلفها وأحكمت لف وشاحها عليها، لكن ليس قبل أن تمد يدها وتتناول زجاجة الويسكي. شربت جرعة كبيرة من السائل الداكن. قالت، «دافئ»، وحاولت إخفاء سعالها.

«ماي ... ألا تتغيرين أبداً؟». مد بابا يده وجذبها إليه كي يعانقها. وفي الداخل، بدأ أحدهم يعزف البيانو.

«أظن أن الوقت قد حان كي أدخل وأرقص مع زوجتي». أمسكت بالزجاجة ورفعتها كي أتناول منها جرعة أخيرة ثم أعدتها إلى بابا.

صار قبو الكنيسة دافئاً ... همهمة الأحاديث الدائرة وضحكات هادئة. وكان فيه رقص. أستعيد ذلك اليوم الآن فأرى أن أسعد لحظة في حياتي كلها كانت في قبو كنيسة في شهر ديسمبر.

«تعال وارقص معي!». أمسكتني كورا من يدي وجرّتني إلى وسط الصالة. راقصتها محتضناً إياها في حين شغّلت أمها، في لحظة غير معمدانية أبداً، أغنية حب من شريط تسجيل.

انتقلنا أول يوم من أيام السنة الجديدة إلى شقة في البلدة، شقة في الطابق الثاني بغرفة نوم واحدة. بدأت كورا عملها

نادلة في المطعم الصيني الجديد وتركت محطة الوقود. كانت تجلب طعاماً صينياً من أجل العشاء، وكنت أجري إصلاحات على سيارتي وأضاجع امرأة أحببتها أكثر مما أحببت نفسي. ما كان لدينا حمام ... لا شيء أكثر من حوض استحمام ذي قوائم أربع. وقد تعلمت أن أستمتع بالحمام، أن أستمتع به خاصة عندما تنضم كورا إلي. كنا نذهب إلى بيت أهلي ليالي السبت لتناول العشاء ولعب الورق، ونذهب إلى بيت أهلها في أمسيات أيام الأحد، بعد الكنيسة، كي نتعشى ونتجاذب أطراف الحديث.

«أنت تلعب مع الشيطان عندما تلعب الورق يوم الأحد». قالت لي هذا عندما اقترحت لعب الورق بعد ظهر يوم أحد إذ أضجرتني تلك الأحاديث عن أقارب ماتوا منذ أمد بعيد وعما يتناقله الناس في الكنيسة من نمائم. بعد ذلك، صرت أمضي الشطر الأكبر من أمسيات أيام الأحد مع والدها وشقيقها في كوخ إلى جانب بيتهم نبني شيئاً أو نصلح شيئاً في ذلك الصمت الذي يأتي من رجال صرت نسيباً لهم لكن من غير دافع إلى معرفتهم معرفة حسنة. وفي بعض الأحيان، أمسيات أيام الجمعة، كنت أخرج مع بضعة فتيان من أيام المدرسة ممن لا أزال على صلة بهم. عدت إلى البيت مترنحاً بضع مرات، وكنت أجد صعوبة في صعود السلم إلى شقتنا. وقعت بيننا أول مشاجرة حقيقية عندما لم أستطع صعود السلم مهما حاولت، فوجدتني كورا صبيحة يوم سبت نائماً عند أول السلم. وجدتني عند خروجها كي تذهب إلى عملها.

«لا يجوز أن تظلي غاضبة مني. كانت تلك مرة واحدة؛ وكنت هنا طيلة الوقت». كنت جالساً إلى طاولة المطبخ، أمامي فنجان قهوة من غير حليب وزجاجة أسبرين.

«قلقت عليك. ألا تفهم هذا؟ لم أنم طيلة الليلة الماضية».

«ليس ذنبي أنك لم تستطيعي النوم».

«لم أنم لأنني كنت قلقة عليك، يا غبي».

فاجأتني هذه الكلمة لأنها نادراً ما تتلفظ بالشتائم. «أنت أناني».

«يا كورا ... هذا ليس إلا قضاء بعض الوقت الممتع مع الأصدقاء. لن أعدك بأنه لن يتكرر كثيراً».

تناولت حقيبة يدها عن الطاولة الصغيرة وصفقت باب الشقة من خلفها. ابتلعت الأسبرين وتحاملت على نفسي كي أذهب إلى الفراش مرتدياً ملابسي كلها فائحاً برائحة الشراب.

كثرت أيام الجمعة التي أشرب فيها أكثر مما ينبغي. لو كان مكاني رجل أذكى مني لرأى أنني أفسد أفضل شيء في حياتي. لكني قادر على الاعتراف بثقة تامة أنني لست ذلك الذكي. أو ... لعلي لست إلا واحداً من أولئك الناس الذين لا يسعدهم إلا أن يكونوا غير سعداء. لعلي أجد في بؤسي ما يرضيني. كان من شأن هذه المعرفة أن تنفعني عندما كنت شاباً أبلهاً. أليست مأساة أننا لا نفهم هذه الأمور إلا عندما نصير أكبر سناً من أن نستطيع الانتفاع بها؟

قال أبي وهو يدخل مكان عملي، «سوف تخسر تلك الفتاة، يا جو. أقول لك هذا. من الأفضل لك أن تنتبه إلى نفسك». توقف عند آلة بيع العلكة منتظراً أن تنتهي سيدة تقود سيارة بويك من تسديد حسابها وتنصرف. صرنا آخر الأمر وحيدين فلم يتمهل كي يغلف كلماته بالسكر. «يعلم الجميع أنك تكثر الشرب».

«على الجميع أن يهتموا بشؤونهم الخاصة. أنا بخير، يا بابا. أشرب قليلاً هنا وقليلاً هناك كي أخفف الألم». تظاهرت بأنني أحصي المال الذي في الصندوق. أطرقت برأسي وأشغلت يدي.

«تشرب قليلاً ...!؟ لعلك لم تنس أنني على معرفة بجاك الذي يعمل في متجر الكحول. إنه يخبرني عن هذا القليل هنا والقليل هناك».

لم يحدث يوماً أن غضبت من أبي. أستاء منه أحياناً، لكني لا أغضب أبداً. ثم إنني لم أرد يوماً أن أغضب منه؛ وكنت شاكراً عندما توقف أحدهم لشراء البنزين. سرت صوب مضخات البنزين متجاوزاً إياه ولم أنظر في وجهه. ذهب بعد أن قال ما أراد قوله. بحق الرب ... لو كنت رجلاً، أي نوع من الرجال، لأصغيت إليه.

كان آخر يوم لي مع كورا يوم جمعة. وكان قد مضى على زواجنا سنة ونصف سنة. صحيح أن كل شخص غيري كان قادراً على رؤية ما أفعله بزواجي، لكني كنت أعمى فلم أر شيئاً. ثم لم يأت يوم السبت إلا صرت مدركاً تمام الإدراك. لا يمكن ألا أكون مدركاً لأنني تركت الدليل على جسد كورا.

كان الظلام مخيماً فلم أستطع العثور على المفتاح الذي ينير مصباح السلم. صعدت الدرجات الأولى متعثراً، لكني فقدت توازني وسقطت إلى الخلف. كنت راقداً في الأسفل أتساءل إن كنت قد كسرت مزيداً من عظامي عندما أضيء المصباح. رفعت رأسي فرأيت كورا أعلى السلم، متدثرة بثوبها. وجهها من غير تعبير.

قلت متلعثماً، «تعالي وساعديني كي أنهض واقفاً!».

«انهض بنفسك». استدارت ودخلت الشقة. أحسست أن أصابع يدي اليسرى بدأت تتورم، لكني كنت غير قادر على الإحساس بأي أمر آخر.

«بحق السماء، يا كورا ... تعالي وساعديني، عليك اللعنة». كنت مدركاً أنني أوقظ بصياحي جيراننا في الطابق الأول، لكني لم أبال بشيء من هذا. ومن خلال الضباب الذي لف رأسي، رأيت كورا تعود إلى أعلى السلم. رمت لي بطانية، ثم أطفأت النور. تلك البادرة البسيطة كان علي أن أفهم منها أنها قد تكون لا تزال مهتمة بأمري، لكنها لم تفعل شيئاً غير أن أطلقت شرارة غضبي. ثمة حالة صحو تأتي مع الغضب. وقد جعلتني تلك الحالة أنهض واقفاً وأصعد السلم وأدخل باب الشقة. خطوت في المطبخ متعثراً. كانت كورا عند المغسلة تملأ كأس ماء. هدوؤها الذي أملتْ أمي المسكينة أن ينتقل إليّ بعضٌ منه أدى إلى ازدياد غضبي.

«ماذا، يا كورا؟ بحق الجحيم! كيف تتركينني في الظلام؟»

«نحن في الصيف. لن تموت». لم تنظر إلي. سارت متجاوزة إياي حاملة بيدها كأس الماء، عيناها متجهتان صوب باب غرفة النوم. عند هذه اللحظة، تصير ذاكرتي مشوشة. لا لأنني لا أتذكر، بل لأنني لا أريد التذكر. لم أفعل في حياتي كلها، بما في ذلك فقدان روثي وترك تشارلي مع أبناء جونسون، شيئاً يجعلني نادماً، يجعلني متقززاً من نفسي، مثل ما فعلته بعد ذلك.

بسطت ذراعي وضربت يدها فطارت كأس الماء في الهواء. سقطت على أرضية اللينيوم وتحطمت. صرخت كورا فزاد الخوف

الـذي ظهـر فـي وجههـا مـن شـدة غضبـي. مـددت يـدي مـن جديـد وأمسـكتها مـن معصمهـا قبـل أن يتسـنى لهـا وقـت كـي تبتعـد. بيـدي الأخـرى التـي تكـوّرت قبضتهـا سـددت إلـى وجههـا لكمـة مباشـرة. كان الـدم علـى يـدي دافئـاً عندمـا ضربتهـا مـرة أخـرى، ثـم مـرة ثالثـة. سـمعت صـوت انكسـار عظـم أنفهـا وأحسسـت الجلـد علـى مفاصـل أصابعـي ينفتـح عنـد اصطدامـه بأسـنانها الأماميـة. تركـت يدهـا فسـقطتْ علـى الأرض. إحـدى يديهـا علـى وجههـا والأخـرى علـى الأرض كـي ترفـع نفسـها قليـلاً لأن شـظايا الزجـاج جرحـت ركبتيهـا ويديهـا. توقفـتُ واسـتندت إلـى طاولـة المطبـخ كـي لا أقـع. لـو صرخـت، لـو قاومتـي، فلعلـي كنـت أسـتطيع التعامـل مـع ذلـك؛ لكنهـا لـم تفعـل شـيئاً مـن هـذا. ظلـت جالسـة، جاثيـة علـى الأرض، دمهـا متدفـق مـن أنفهـا ومـن فمهـا، ومـن حولهـا شـظايا الزجـاج المكسـور ... وبكـت. بكـت مـن غيـر صـوت. لـم تنظـر إلـي. لكنـي نظـرت إليهـا. كنـت أرقبهـا كمـن يتابـع فيلمـاً. نحـن لسـنا هكـذا. وهـذا ليـس شـيئاً يمكـن أن أفعلـه. هـذا غيـر حقيقـي.

«كـورا؟!». كان جارنـا فـي الطابـق السـفلي واقفـاً ببـاب الشـقة المفتـوح. وفـي وجهـه، رأيـت نفسـي علـى حقيقتـي.

التفت كورا ونظـرت إليـه. وأنـا ... أسـرعت متجاوزاً إياه ونزلـت درجـات السـلم راكضـاً. تعثـرت وأخطـأت الدرجتيـن الأخيرتيـن. جريـت خارجـاً إلـى ليل أغسـطس الدافـئ. اتجهـت إلـى سـكة القطـار. لـم أصـل إلـى بيـت أهلـي. توقفـت عنـد البركـة وتقيـأت. تقيـأت حتـى لـم يبـق شـيء غيـر طعـم حامضـي يحـرق حلقـي. بعـد ذلـك، شـربت مـن مـاء البركـة البـارد القـذر، ثـم تقيأتـه. انطرحـت علـى الأرض

ودفنت غضبي في التراب. بكيت إلى فقدت الوعي. وعندما صحوت، كانت السماء قد بدأت يزداد نورها إلى حد استطعت معه رؤية معصمي المتورم، استطعت رؤية الدم الباقي على يدي. غسلت يدي في البركة، لكني لم أستطع فعل شيء لإزالة بقع الدم عن ملابسي. خلعت قميصي ورميت به في الماء.

كان أبي وأمي لا يزالان نائمين عندما تسللت إلى البيت وأخذت واحداً من قمصان أبي المتسخة في سلة الغسيل. كانت محفظته على الطاولة فأخذت ستة وعشرين دولاراً كانت فيها وأخذت مفاتيح الشاحنة الصغيرة القديمة. لم أترك لهم رسالة. ما كان عندي شيء أقوله. لم يبلغوا الشرطة بأمر السيارة المفقودة ولم يحاولوا البحث عني. ولا أستطيع القول إنني ألومهم. لو كنت مكانهم لفعلت مثلما فعلوا. تلك الشقوق التي كنت أحفرها في حياتي وفي زواجي صارت الآن زلزالاً من صنع يدي، زلزالاً أشد تدميراً من أن أقدر على إصلاح شيء. لم يبق لي غير الرحيل.

- 10 -

نورما

سرت في البيت الذي سكنته مع مارك فترددت أصداء خطواتي. ما من أثر يشير إلى الحياة التي عشناها غير هذه المسامير التي كانت تحمل لوحات وهذه الرفوف التي صارت الآن خالية يتجمع الغبار عليها. أطباقٌ أُخذت من مكانها في الخزانة وصارت الآن على طاولة المطبخ مستعدة لأن تُغلف وتُرفع بعيداً. ظلال تحوم حرة على الأرض العارية ... ما عاد على الأرض شيء يمنعها أو يقيدها. يحل سلام بعد فوضى التبدلات. ثمة قبول غريب وإقرار صامت بأن التغير قد حدث، بأن الوقت قد حان للإبحار عبر ذلك الزمن الغريب الذي في الوسط ... قبل الوداع الأخير. مارك وأنا كان لنا حب، وما كان لنا مستقبل. أدرك كل منا هذا على الرغم من قسوته. فهمه كل منا. وما كنا في عجلة من أمرنا لجعل الأمر رسمياً ... سنصل في وقت لاحق إلى توقيع الأوراق. أردنا أن يسير كل منا بخطوات هادئة صوب الحياة التي يصنعها لنفسه.

انتقل مارك عائداً إلى بوسطن بعد أسابيع قليلة من عودتنا إلى بيتنا. لا يزال غير متأكد، ولا يزال مستغرباً قراري. كانت صعبة رؤية حيرته تنقلب سخطاً.

«ليس من حقك أن تتخذي هذه القرارات من جانبك». كان واقفاً في الممر في طريقه إلى غرفة النوم الاحتياطية.

«لا أدري كيف أشرح لك هذا الأمر، يا مارك. لكني غير قادرة».

«نحن قادران معاً، يا نورما. نحن. لماذا تفترضين دائماً أنك وحدك؟»

كان هذا يتكرر دائماً إلى أن ما عاد يتكرر. وما كنت قادرة على فعل شيء غير السير مبتعدة أغمغم باعتذاراتي وأبكي حتى أنام. ما كنت أدري كيف أعبر عن الأمر بالكلمات، كيف يجعله يفهم أن القرار قد اتُخذ من خارجي. في مكان ما في أصداء الزمن قرر الكون أن سعادة من نوع بعينه ما كانت من نصيبي. سيكون عليّ أن أبحث عن فرحتي في مكان آخر.

آخر الأمر، أخذ مارك ما أراد أخذه ... ملابسه، وخاتم الزفاف الذي كان لجدّته، وبضع لوحات جمعناها خلال زواجنا الذي استمر سنين، ثم رحل. نظرت إلى العلبة التي وضعنا فيها تذكارات زفافنا. لا يزال كل شيء فيها على حاله لم تمسه يد. لا يزال باقياً كي أراه وأحزن، كي أتصرف به. سجلُّ الضيوف فُتح على ذلك اليوم ثم لم يُفتح بعده. بطاقات الدعوة الزائدة ملفوفة بشريط أحمر. ولكن، لا حق لي في أن ينكسر قلبي. لذا، أغلقت العلبة ووضعتها مع بقية العلب المكوّمة استعداداً لأن تُنقل إلى المرحلة الثانية من مراحل حياتي. لا تزال العلبة عندي مركونة بعيداً في أعماق الخزانة التي في الغرفة الاحتياطية.

كدت أفرغ من حزم حوائجي عندما دخلت الممر أمام البيت سيارة فيها خالتي جون مع أليس. جاءتا من غير سابق إنذار. كانتا ذاهبتين إلى كوخ استأجرتاه عند المحيط؛ وكان بيتي في

طريقهما. لم أكن قد أخبرت أحداً بانفصالنا وبطلاقنا الوشيك. لم أستطع تخيل أنهم سيقبلون حججي، ولم أكن يوماً من الأيام بارعة في الكذب. بدا لي أن عدم إخبار أحد سيكون أسهل شيء ... الانتظار إلى أن يكون ذلك ضرورياً. فوجئت خالتي وأليس، بالطبع فوجئتا. مارك وأنا كنا سعيدين دائماً. وما كان معنا أحد يشهد على فداحة ثقل الحزن بعد موت سارة. ذلك الحزن الذي ظل زمناً طويلاً بعد نظرات التعاطف، بعد أن نُظفت أطباق الطعام التي كانت تأتينا وأعيدت إلى أصحابها.

اقترحت خالتي جون أن تذهب كي تجلب طعاماً بحيث نستطيع بعدها أن نجلس معاً ونخترع قصة تستطيع أمي قبولها. ومع ذهابها، أمسكتني أليس من يدي وسارت بي في البيت. عري الجدران جعل الغرف تبدو أصغر حجماً. جعل الضياء أكثر سطوعاً.

حكيت لها كل شيء.

قالت أليس نصف هامسة، «أوه، يا عزيزتي، لا!».

«ظننت أنك ستفهمينني، أنك ستقفين في صفي».

«لا حاجة إلى قول هذا، يا نورما. أنا أريد ما تريدين». أتت كي تجلس إلى جانبي على الأريكة، وأزاحت صندوق ألبومات الصور، وضعته على الأرض ... «لا يجوز أن تتركي ماضي أمك يقرر مستقبلك. أنتما شخصان مختلفان جداً».

«هل نحن مختلفتان؟»

«أنتما مختلفتان، بالطبع. لديك قوة هادئة ليست موجودة عندها. في مقدورك أن تحتملي كل ما ترميك الحياة به، وأن تردي الضربة».

«ربما ... لكني لا أريد أن أكون مضطرة إلى أن أرد الضربات. لماذا الألم إذا كنت قادرة أصلاً على تفاديه؟»

«ألا تشتاقين إلى مارك؟ أليس هذا مؤلماً؟»

«بالطبع؛ هذا مؤلم. لكنه ليس مثل فقداني طفلتي. لا أستطيع المرور بتلك المعاناة مرة أخرى. لعل أمي أقوى مما تظنين. قد أكون أنا الضعيفة بين الاثنتين».

ظلت أليس صامتة في حين رحت أحدق من النافذة، أرقب نحلة تنتقل من زهرة ليلك ميتة إلى زهرة ليلك ميتة أخرى مفتشة عن الرحيق الذي ما عاد موجوداً منذ أمد طويل. كنت أحب شجيرة الليلك هذه أيام الربيع عندما تتفجر لوناً بنفسجياً وتغزو البيت رائحتها الحلوة؛ وكنت أحسد مالكي البيت الجدد لقدرتهم على فتح النافذة واستنشاق ذلك العبير، تماماً مثلما فعلت طيلة السنين الثلاث التي انقضت.

«هل تعلمين أنهم كانوا يستخدمون الليلك في الجنازات كي تغطي رائحته على رائحة الجثة؟».

أشحت بوجهي عن النافذة، ونظرت إلى أليس. «هل تحاولين تغيير الموضوع؟»

«أتعبني الكلام. لن أتكلم بعد الآن إلا في أمور سعيدة».

«هل تعتبرين رائحة الجثث أمراً سعيداً؟»

رحنا نضحك، كلتانا. بدأت أحس الثقل ينجلي عني.

عادت خالتي جون بطعام صيني كافٍ لعشرة أشخاص. جلسنا على الأرض مع بدء اختباء الشمس خلف شجيرة الليلك. سكبنا الأرز، وأكلنا النودلز، واقترحت خالتي جون أن نخترع كذبة.

قالت بين لقمتين، «سنقول لهما إن مارك يخونك، أو إنه عاجز جنسياً». راحت تضحك، وظننت أليس ستغص بلقمتها. لكنهما أفلحتا في تمالك نفسيهما. انتظرت إلى أن مسحتا دموعهما، إلى أن التقطتا أنفاسهما.

«خالتي جون ... الأولى فيها قسوة على مارك. وأظن أن الثانية قد تصيب أمي بنوبة صداع، نوبة قد لا تُشفى منها أبداً».

«أظنك محقة. لكن، أليس طريفاً كيف تظنين أنها لن تصيبها نوبة صداع عندما تقولين لها الحقيقة؟». أكلت خالتي جون آخر ما كان باقياً من الأرز المقلي قبل أن نرفع البقايا وننظف الأرض. بعد ذلك، ساعدتاني في حزم بقية أمتعتي كي تكون جاهزة عندما يأتي العمال لنقلها في الصباح.

قبل خسارتنا ابنتنا، أنا ومارك، كنا نستأجر كوخاً عند البحيرة في منطقة ريفية في ولاية مين ونمضي فيه أسبوعين من كل صيف. وعندما بيع بيتنا، أخذت حصتي، نصف الربح المتواضع، وجعلتها دفعة أولى لشراء ذلك الكوخ. هناك، أكون قادرة على الابتعاد عن كل شيء. فعندما أجلس على شرفته، أرقب غروب الشمس على الماء، أحس أن كل شيء في العالم صار على ما يرام. وفي الليل، تكون الظلمة شبه تامة في ما خلا نجوم الليل، رؤوس دبابيس صغيرة من نورٍ تثقب ذلك السواد. وكان المكان هادئاً، هادئاً جداً. الأصوات الوحيدة فيه آتية من الطبيعة نفسها: عبث الريح بأوراق الأشجار، وصوت عارض لحيوان ماضٍ في الغابة، وصياح طائر ليلي. فكرت في أن السلام الذي يعم ذلك المكان يمكن أن يخفف الخيبة التي كنت موقنة من أنها

ستصيب أبي وأمي عندما أخبرهما بأمر مارك. لهذا، دعوتهما مع أليس وخالتي جون كي يمضوا جميعاً عطلة نهاية الأسبوع. سنأكل معاً ونسهر عند النار. ستتذمر أمي من لسعة البرد في شهر أكتوبر، وسيجلس أبي صامتاً يرشف الويسكي. ستثير خالتي جون ضيق أمي، وستهدئ أليس الجميع.

كانت الرحلة إلى البحيرة هادئة. أحب أن أشغل الراديو وأفتح النوافذ عند قيادة السيارة. إن في هذا شيئاً تأملياً يرخي ما بي من توتر. في طريقي، اشتريت مأكولات ومواد تنظيف. انطلقت في وقت مبكر حتى يتسنى وقت لتنظيف الكوخ تنظيفاً مقبولاً بحيث لا تحس أمي حاجة إلى قضاء عطلة نهاية الأسبوع كلها في ترتيب المكان وتنظيفه. وعند بلدة بانغور، تركت الطريق السريعة العابرة للولايات وسرت في الطريق رقم 9. إذا تابعت السير مسافة كافية، فإن الطريق تؤدي إلى كندا؛ لكني انعطفت في الطريق المفضية إلى ماتشياس ومضيت صوب طريق البحيرة. أحب البرية في هذا الجزء من ولاية مين ... الأشجار التي تتحلل في برك الماء، ولون حقول التوت البري عند المرور بها. وثمة حزن أيضاً، بيوت مهجورة وحقول أحرقتها الشمس في الخريف. منظر طبيعي منعزل، غير مستأنس، مع لمحات نادرة من الألوان.

أوقفت السيارة وكانت البحيرة متلألئة في ضياء الشمس الساطع. لم أستعجل إنزال أمتعتي من السيارة. كنت في حاجة إلى وضع قدمي في الماء. رفعت أطراف فستاني وسرت في الماء حتى ركبتي. حجارة حادة تحت قدمي، ومويجات تصطدم بساقي أو تتجاوزني ماضية صوب الشاطئ. خلف شبه الجزيرة الصغيرة

الناتئة داخل البحيرة، ذلك المكان الذي يتيح لي خصوصية أحبها، سمعت أطفالاً يتصايحون. من الممكن أحياناً أن يمر بالمكان زورق تجذيف. وأما في عامة الأحوال، فالمكان لا يفسد وحدته شيء. في الصيف، إن استيقظت في وقت مبكر، أحب أن أسير داخلة البحيرة عارية، وأحب أن أستلقي على صفحة الماء، أحب أن أرقب الضباب الرقيق متصاعداً من فوقي وأذناي تحت سطح الماء كي أستطيع سماع همهمات الطبيعة الخافتة في الأسفل. وأما في هذا اليوم، فقد اكتفيت بالوقوف هناك، وجهي في ضياء الشمس. وقفت ناسية أنني سأكون بعد قليل مضطرة إلى تفسير غياب مارك.

رائحة مواد التنظيف منبعثة من النوافذ المفتوحة، وكل شيء في غاية النظافة عندما وصلت سيارة أبي وأمي. خرج أبي من السيارة وتمطى. حملت أمي ما أتت به من لحوم باردة وسلطة بطاطا، فضلاً عن حقيبتها. لم يفرغا من إنزال أمتعتهما قبل أن تتوقف خلفهما سيارة خالتي جون وأليس. معانقات كثيرة، بعضها متيبس وبعضها ناعم.

سألتني أمي عند خروجها من الكوخ بعد انتهائها من تفقد نظافته، «أين مارك؟». سرني أنني نجحت في اجتياز امتحان النظافة.

قلت لها، «ذهب إلى بوسطن في عطلة نهاية الأسبوع».

رمقتني خالتي جون بنظرة، لكنني أشحت بوجهي عنها. لقد قررت الانتظار إلى أن يجلسوا من حول النار ويبدأ شرب الويسكي. عندها أخبرهم. كان البراد في الكوخ غاصاً بالطعام، وعلى

طاولة المطبخ كمية كبيرة من الخبز والمعجنات والمارشميلو كي نتناوله في وقت لاحق. أمضينا النهار في الطهو والأكل ... نتكلم ونضحك. بل إن أمي ضحكت حتى عندما انزلقت خالتي جون وهي تحاول الصعود إلى الزورق الصغير فسقطت في الماء ثم نهضت مبتلة متلعثمة. لم يلحق بها أذى، ولم أستطع منع نفسي من الضحك بدوري عندما رأيتها تنظر حانقةً إلى أمي التي اثنت على نفسها من شدة الضحك، يداها على بطنها ودموعها جارية على خديها.

قالت خالتي جون، «تضحكين من كل قلبك على حسابي!»، ثم عانقت أختها، احتضنتها بقوة ولم تتركها إلا بعد أن صارت مبتلة مبهورة الأنفاس.

قالت أمي، «لم أضحك هكذا منذ سنين. لم يذهب سفرنا سدى». رأيتها من قبل سعيدة هكذا. أمر لا يشبهها أن تُسلم نفسها للبهجة. أحسست وخزة ذنب عندما تذكرت النبأ الذي لا بد لي من إبلاغهما به. اهتم أبي بأمر الشواء، في حين جلستُ إلى طاولة النزهة مع أمي. صبت خالتي جون وأليس شاياً مثلجاً في زجاجة حافظة للحرارة وذهبتا في نزهة في الدرب التي تمضي متعرجة في الغابات وتلتف من حول البحيرة. كان الطعام جاهزاً عندما عادتا متوردتين حماسةً.

ومع هبوط الليل وهدأة البحيرة وتسلل القمر عالياً فوق الأشجار، علمت أن وقت إخبارهم قد حان. كانت أمي تسألني عن مارك، كيف تسير أعماله وكيف هي أحواله. كذبت عندما رأيتها آخر مرة فقلت لها إنه مصاب بالأنفلونزا. سألتني إن كنت مستعدة لمحاولة

الحمل من جديد. كانت تواقة إلى أن تصير جدة. غمغمتُ بكلمات غير مترابطة وحوّلت نظري عن وجهها المترقب. كنا جالسين من حول النار، وكان خمستنا في حالة ثمل خفيف. تراخت أحاديثنا، وأتى صياح طائر مائي من جهة البحيرة.

«أنا ومارك انفصلنا، وسوف يتم الطلاق. هو في بوسطن خلال عطلة نهاية الأسبوع لأنه صار يعيش هناك. وأنا الآن أعيش في شقة لطيفة». تدفق الكلام من فمي كأنه كلمة واحدة طويلة. ضاعت الفواصل بين الكلمات. انبعث صياح الطائر المائي من جديد، لكن العيون كانت متجهة إلي. ضياء النار البرتقالي ترك وجوههم في نصف ظلمة. أحسست خفة في رأسي، وبدت لي وجوههم شريرة في غمرة ذلك التشوش. أليس وخالتي جون تنظران إلى أيديهما، وأمي تنظر إليَ، وأبي ينظر إلى أمي.

قالت لي، «إذاً ...».

قال أبي، «لينور! ...» كان ينتظر ردة فعلها، وبدا مستعداً لأن ينهض واقفاً ويأخذها بعيداً.

«ماذا فعلت؟»

نهض أبي واقفاً، لكني أشرت له بيدي فجلس من جديد.

«أمي ... أنا لم أفعل شيئاً. كان هذا قراراً اتخذناه معاً. أردنا أشياء مختلفة. هذا كل ما في الأمر».

«هل هذا بسبب طفلتك؟»

تسارعت ضربات قلبي. توقعتُ أن تطرح هذا السؤال، لكني أحسست طعنة ألم. تناولت من كأس النبيذ رشفة قبل أن أنظر في عينيها.

«هذا صحيح ... بطريقة من الطرق. أراد مارك أن نحاول من جديد، لكني لم أرد ذلك. لم أرد أن أمر بما مررتِ به قبل أن أولد».

«هل تلقين علي باللائمة؟». مالت إلى الأمام وهي جالسة في كرسيها. بدت كأنها موشكة على السقوط في النار. وضع أبي يده على كتفها ودفعها إلى الخلف.

«لا. بالطبع لا». لم أدر ما أقول لها غير هذا. وحدها أمي يمكن أن تنطلق من حزني كي تجعل الأمر متصلاً بها. لكن ... ألم أتوقع هذا؟ حتى التوقع لا يستطيع دائماً أن يجعلك مستعداً للوجهة التي تتخذها الأمور.

همست أليس عبر النار، «لينور ... أظن أن ما تريد نورما قوله هو أنها غير راغبة في معاناة ما رأتك تعانيه. إنها تتخذ قراراً منطقياً من أجلها». فرقعة النار مدوّية في أذني. نهضت واقفة وسرت صوب الماء. غابت أصواتهم إذ طغت عليها الأصوات الصادرة عن الغابة في الليل. كان القمر شبه مكتمل. لا ينقصه غير جزء صغير جداً. لكن ألقه كان منعكساً على صفحة الماء. من حول القمر حلقة، هالة من زرقة. التفت إليهم فرأيت أليس منحنية، تتكلم. رأيت خالتي جون تنهض وتسكب لنفسها كأساً أخرى. صار أفراد عائلتي كأنهم أطياف. عندما التفتُّ إلى الماء من جديد، غمرتني رائحة نار في البرية ورائحة بطاطس مسلوقة. أقسم أنني سمعت طفلاً يضحك في مكان قريب مني وسمعت همهمة أحاديث الكبار. ليست أصوات عائلتي. أصوات فيها لكنة غير مألوفة، لكني أعرفها. أحسست برودة العشب

على قدمي الصغيرتين وأحسست خشونة قماش فستاني المرقّع. حواف الرقعات حيث خيطت إلى الفستان تحتك بساقي. رأيت يدي الصغيرتين ممسكتين دمية مصنوعة من جوارب قديمة، دمية عيناها زرّان. رفعت رأسي ناظرة إلى القمر، ثم نظرت إلى النار، وأظنني رأيت أمي تلوح إلي بيدها كي أنضم إليها. أو ... لعل الضوء كان يخدعني. أو ... لعله كان حلماً، لعله كان رؤيا مراداً لها أن تأتيني عندما يأتيني النوم، رؤيا محيِّرة، غير مكتملة.

«نورما!». قفزت مجفلة واختفى ذلك الإحساس سريعاً مثلما أتى. كان شيئاً أشبه بحلم يقظة، أو لعله كان ذكرى. أحياناً، يصعب التمييز بين الاثنين. مكتبة سُر مَن قرأ

«هي لا تتعمد أن تكون هكذا». ضم أبي يدي بين يديه ... «تعلمين أنها لا تتعمد أن تكون هكذا».

«لكنها هكذا». كنت مصممة على ألا أبكي.

«من فضلك، أعطها وقتاً!».

«لكنك تفهمني ... ألا تفهمني؟». نظرت في وجهه الذي لا يكاد يبين في ضياء النار الواهي، في ألق انعكاسات القمر.

«أفهمك. وأنا لا ألومك. كانت رؤية معاناة أمك صعبة عليك. كانت صعبة علي أيضاً. ذلك النوع من الأسى يجعل الناس يفعلون أموراً لا يفعلونها عادة. أمر حسن أن تكونا، أنت ومارك، قد استطعتما أن تفترقا صديقين. أمر حسن أنك لم تسمحي بأن يحدث لك ما حدث لها».

كانت خالتي جون وأليس قد حدّثتاهما عن انفصالنا أثناء وقوفي عند البحيرة ضائعة في ذكريات أيقظها ضياء القمر.

قلت، «هل تتذكر أحلامي؟»

أحسست توتراً في يده الممسكة بيدي. ازداد قليلاً ضغط أصابعه على أصابعي.

«أتذكرها. لم أظن أنك تتذكرينها».

«لم أكن أتذكرها حتى هذا اليوم، حتى رأيت هذا القمر».

أفلت يدي وبدأ يعبث بالجلد من حول ظفر إبهامه.

«اعط أمك وقتاً. سوف تستوعب الأمر. ودعينا نمتنع عن ذكر تلك الأحلام». عانقني عناقاً طويلاً، عناقاً شديداً، قبل أن يستدير ويعود إلى النار. ألقيت نظرة إلى القمر نظرة أخيرة، على انعكاساته.

كانت خالتي جون قد أرقدت أمي في الفراش، ثم تبعها أبي. بهدوء، أغلق باب الكوخ من خلفه.

«إن أردت الصدق، فقد جرى الأمر بأفضل مما توقعت. مع أنني أظنها لم تفرغ منك بعد». قالت خالتي جون هذا وهي تضع في النار قطعة حطب جديدة.

«أريد كأس نبيذ أخرى». إحساس طاغٍ استولى عليّ ... شيء لم أستطع تحديده. كل ما عرفته أنني أريد إخماده.

قالت لي وهي تذهب إلى طاولة النزهة كي تفتح زجاجة أخرى، «لن يجعل النبيذ هذا الأمر يتحسن». صبت النبيذ في فنجان قهوة كبير ملأته حتى منتصفه، ثم انحنت وعانقتني نصف عناق ... «دائماً، تبدو الأمور شديدة السوء عند حدوثها. وسوف يعالج الزمن هذا الأمر مثلما يفعل دائماً».

«شكراً». أسندت رأسي إلى رأسها لحظة قبل أن تتركني

وتلتف من حول النار كي تجلس إلى جوار أليس التي أمسكت يد خالتي وأبقتها بين كفيها. سهرنا في الخارج، في الظلام. سهرنا نغذّي النار بالحطب ونشرب النبيذ. بقينا حتى ساعة متأخرة من الليل. بدأت خالتي جون تمزج نبيذي بالماء ... أمرٌ كنت ممتنة له عندما استيقظت في اليوم التالي.

طيلة فترة الصباح، حرصت أمي على تفادي أن تكون معي وحدها. أدركتُ كل منا أن ثمة إمكانية لأن تقول شيئاً تندم عليه إلى الأبد. لهذا، سررت عندما قال لي أبي إنهما لن يبقيا حتى اليوم التالي. كنت في حاجة إلى ذهابهما. الصمت الذي بيننا صار أكثر مما ينبغي. ذلك الصمت غير المعتاد الذي يأتي عندما تبقى أشياء كثيرة لم تقل. مع خروج سيارتهما من فناء البيت وانعطافها صوب الطريق رقم 9، أطلق أبي بوقها كأنه يودعني. كان ما أحسسته انفراجاً.

كان عيد الشكر صامتاً، ومثله كان عيد الميلاد. ثم أتى عيد الفصح فبدأت أمي تكلمني من جديد. وفي الرابع من يوليو[1]*، أتت بضع ضحكات. لم أكن أمضي كل عطلة مع أبي وأمي، لكن هذا ما فعلته تلك السنة. كان ذلك تكفيراً عن تركي إياهما من غير أحفاد. لم تعد أمي إلى ذكر الأمر إلا مرة واحدة، تماماً بعد انتهاء الألعاب النارية، بعد أن كانت قد شربت من الويسكي أكثر مما هو معتاد، ثم أتبعته بكأس من الجلاب بالنعناع.

«تعلمين أنك تستطيعين أن تتبني طفلاً. من الممكن أن تكون

(1) * عيد الاستقلال في الولايات المتحدة.

تنشئة طفل لم تلديه تعويضاً حقيقياً. جانيس هول وزوجها، اللذان يأتيان إلى الكنيسة، تبنيا صبياً صغيراً ظريفاً. لا مشكلة فيه أبداً». كان كلامها غمغمة، وكانت تلوح بكأسها ... «وسوف أتعلم كيف أحب طفلك الصغير».

«أنا بخير. لدي أطفال في المدرسة. هذا يكفيني».

«إذاً، لا بأس. لا تصغي إلى كلام أمك فأنت لم تصغي إلى كلامها يوماً».

كانت ثملة، وقد بدأت تكلمني. لذا، تركت الأمر ولم أجادلها. لقد كنت طفلة مطيعة وأمضيت طفولتي كلها لا أفعل شيئاً غير الإصغاء إلى كلام أمي.

قالت، «لكن عيشك وحيدة ليس طريقة حسنة لأن تكوني سعيدة».

لكني، في نهاية المطاف، كنت سعيدة. كل شيء يستغرق زمناً. ومن الممكن أحياناً أن يكون الأسى شديد الاتساع، وأن يبدو من غير قرار، لكنه يبدأ التراجع آخر الأمر، يبدأ التحول إلى شيء مفيد. صرت أمضي وقتي في العمل مشرفة متطوعة على الأطفال، وفي تدريبات من أجل المشاركة في الماراثون، وكذلك في زيارة خالتي جون وأليس في بوسطن. ثم أتى عيد ميلادي الأربعين فأرغمت نفسي على ترك حياتي المألوفة وسحبت مالاً من حساب التوفير وصعدت إلى طائرة فأمضيت الصيف كله في إيطاليا وفرنسا، أمضيته في قراءة الكتب والتجول في المدن العتيقة. كنت أخرج مع رجال، لكني لم أعثر أبداً على عاطفة كافية لعلاقة حقيقية. وبقدر ما كان الآخرون غير قادرين على

فهم هذا، بقدر ما كنت راضية. فهل أحسست وحدة؟ بالطبع! لكن تلك النوبات من الإحساس بالوحدة كانت تمر سريعاً وكنت أعرف دائماً كيف أجد راحة بصحبة نفسي. قالت لي أليس إن هذه قوة لا يمتلكها بشر كثيرون. إن الحاجة إلى اهتمام الآخرين وضرورة التلاؤم معهم يمكن أن تفضيا إلى حياة بائسة. وقد كنت مدركة أن نصف الأشخاص الذين يعملون معي في التعليم يكتفون بالسير مع الحياة من غير أن يعيشوا حياتهم فعلاً. من هنا، تركتهم يقولون عني ما يشاؤون، وتركت نفسي أقول عنهم ما أشاء.

مات أبي بعد ظهر يوم سبت. كانت أمي قد ذهبت إلى واحد من نشاطات كنيستها ثم عادت فوجدته منكباً على وجهه فوق الجرار الصغير الذي يجز به عشب الحديقة. كان العشب مجزوزاً. لا بد أنه كان يهم بإعادة الجرار إلى مكانه. يريحني التفكير في أن آخر ما فعله أبي كان أمراً جعله يحس قدراً من الرضا. كان يحب جز العشب. مات أبي قبل زمن طويل من موت أمي، قبل زمن طويل من إلقائها حقيبة يدها وتكورها على نفسها وشتمها إياه لأنه تركها. كان ذلك قبل أن تنتبه واحدة من الجارات فتتصل بالإسعاف.

كنت قد دخلت البيت قبل لحظة ووضعت حقيبتي على الطاولة عندما رُن جرس الهاتف. كانت تلك أليس. وكانت خالتي جون قد صارت في طريقها إلى مين بعد أن طلبت من أليس أن تتصل بي. لم يستطع صوت أليس، صوتها المهدئ، أن يقيني ذلك الأسى المفاجئ. انهرت وسقطت على الأرض، ظهري مستند إلى خزائن

المطبخ وأنا غير قادرة على تصديق ما سمعت. كان أبي كبير السن، هذا صحيح، لكنه لا يزال صغيراً جداً على أن يموت ... في ذهني.

شتمت الاثنين معاً، أمي وأبي. لم يجعلاني مستعدة لمواجهة الموت. لم يكن لأبي وأمي خالات أو عمات أو أخوال أو أعمام، لم يكن لهما أبوان وأمّان كي أحزن على موتهم عندما كنت صغيرة. لم ينشأ لدي أي فهم تدريجي للموت كي يعينني على الاستعداد لهذه الصدمة. كان أساي مطلقاً. أعدت سماعة الهاتف إلى مكانها، ثم رفعتها واتصلت بالمدرسة كي أقول لهم إنني لن أذهب إلى عملي في الأيام التالية. بقي لدي من الرشد ما سمح لي بحزم حقيبة صغيرة وبسقاية النبتة الوحيدة في بيتي قبل أن أقفل الباب وأنطلق صوب بيت أبي وأمي. لكنه ما عاد بيت أبي وأمي، صار بيت أمي وحدها.

بقيت بضع دقائق جالسة في السيارة أتأمل عشب الحديقة المجزوز جزاً أنقياً. الجارة نفسها التي اتصلت بالإسعاف لوحت لي من النافذة. كانت الستائر مفتوحة كي تسمح بدخول الضوء. وفي الداخل، شممت رائحة قهوة طازجة.

«أمك في سريرها. صداع». ناولتني قطعة قماش كانت سائرة بها في الممر ... «طلبت مني قطعة قماش باردة».

وضعت حقيبتي عند الباب وأخذت قطعة القماش من يدها. وضعتها تحت ماء الصنبور البارد كي أطرد ما فيها من دفء. «أشكرك على كل شيء. أستطيع تولي الأمر من الآن».

أومأت الجارة برأسها، ثم استدارت وأغلقت الباب من خلفها

بكل هدوء. عصرت قطعة القماش وسرت في الممر. كان باب غرفة أمي موارباً فدخلت من غير صوت، وخلعت حذائي. استلقيت على السرير إلى جوارها ووضعت قطعة القماش بدلاً من القطعة التي صارت دافئة.

همست لها، «أنا هنا، يا أمي».

«نورما ... ماذا أفعل الآن؟» بدأت تنتحب.

تماماً مثلما كانت تفعل في صغري عندما تأتيني تلك الأحلام، ضممتها بين ذراعي وشددتها إلي وبدأت أهدهدها، جسدها النحيل كجسد عصفور. قبّلت جبهتها ومررت بيدي على شعرها. هدهدتها وهدلت لها حتى نامت. وعندما وصلت خالتي جون، كنا لا نزال مستلقيتين في السرير، أمي نائمة نوماً عميقاً، رأسها بين ذراعي. وأنا محدقة في الجدار أرقب استطالة الظلال مع ميل الشمس إلى الغروب في الخارج.

كانت الأيام التي تلت ذلك مشوشة. لقد قرر أبي كل شيء في وصيته. وافق على إقامة قداس على روحه في الكنيسة شريطة أن يعقبه حفل شواء. ترك البيت لأمي وترك لي مبلغاً من المال، مبلغاً كافياً لأن أسدد ديوني وأسافر قليلاً. بل إنه ترك مبلغاً صغيراً لخالتي جون كأنه يشكرها على كل ما فعلته من أجلنا. دُفن في المقبرة إلى جانبي صغيرتي سارة ووالديه الذين ماتا قبل زمن طويل من مولدي. لفت نظري أمر عندما كانوا ينزلونه في القبر وكان أشخاص أكثرهم غرباء عني يرقبون أساي وأسى أمي. اسم والد جدي، ذلك الإيطالي الذي كان من الواضح أنه أورثني سمرته الإيطالية، كان اسماً غير إيطالي أبداً؛ كان اسمه

براون. ما أكثر أكاذيب الناس الذين أحببتهم! ومع انصراف الآخرين تاركين خلفهم حفنات من التراب في القبر ووردة حمراء واحدة وضعتها أمي على قبر أبي، رحت أنظر إلى شواهد قبور أفراد عائلتنا ممتدة في صف منتظم. أسماء موحية كلها بتاريخ من جلود بيضاء شاحبة.

«هل تودين إلقاء التراب على التابوت؟»

كنت قد صرت وحدي عندما ناولني المسؤول عن الدفن دلواً معدنياً صغيراً فيه تراب. وضعت يدي في الدلو وجمعت حفنة تراب نثرتها على تابوت أبي ونسيت كل ما كان يجول في ذهني من أفكار عن أسلافي.

لم تبك أمي في الجنازة. وفّرت بكاءها كله إلى أن صرنا في السيارة عائدين إلى البيت. توقفت أليس في الطريق كي أرجع إلى المقعد الخلفي وأجلس مع أمي وخالتي جون. أمسكت كل منا بإحدى يدي أمي وهي تذرف دموع الأسى. كان أساها ضخماً، وكانت رؤيته ثقيلة مع أنها بدت شديدة الصغر، شديدة الهشاشة، بدت ممتلئة مشاعر كنت أظنها مفتقرة إليها.

كان يوماً بارداً بالقياس إلى شهر سبتمبر، لكننا وعدنا بحفل شواء بعد الجنازة. كان مارك قد سمع بالأمر فأتى وحضر الدفن ... وحيداً. كان أمراً لطيفاً أن أراه، لكنه لم يطل البقاء بل اكتفى بمعانقة خالتي جون وأليس وتقديم التعازي لأمي ولي. كان واضحاً لي أن أمي قدّرت له قدومه. كان في البيت ناس كثيرون. وبدت تلك الكثرة من الناس في ذلك البيت الذي لم يكن يرحب بالزوار أبداً أمراً غريباً، أمراً ظهر أثره في تململ أمي وكثرة حركاتها ...

تمسح بقعة رطوبة خلّفتها كأس من الماء، وتزيل الغبار عن رف من الرفوف قبل أن يسنح للغبار وقت كي يتجمع عليه، وتصحح وضع لوحة ليست مائلة على الجدار. تمكنت أخيراً من إجلاسها. أمسكت بمرفقها وأجلستها في كرسي أبي المفضل ووضعت في يدها كأس ويسكي كي يعينها على أن تهدأ قليلاً.

قالت لي وهي تحمل الكتاب الذي تركه أبي على طاولة صغيرة إلى جوار كرسيه، «كان على الدوام شخصاً ذكياً».

«وأنت ذكية أيضاً، يا أمي».

راحت تمر بيدها على غلاف الكتاب، ولم تجبني.

أتيت لها من الطاولة بصحن فيه قطع من الهوت دوغ وسندويتشات على شكل مثلثات وقطع حلوى مربعة تكاد تكون كلها مصنوعة من سكر وجوز هند وكرز. اقترب من الطاولة رجل لا أعرفه وتناول فطيرة بزبدة الفستق. أجفلني عندما بدأ يكلمني.

«أتذكر مرة روى فيها والدك نكتة. بيني وبينك ...» كف عن الكلام ونظر من حوله كأنه موشك على أن يكشف لي عن سر خطير ... «لعلها نكتة ما كان يجدر به أن يحكيها في مكان العمل. لكنك تعرفين والدك. كان والدك رجلاً عظيماً. كان رجلاً ظريفاً». تناول لقمة من فطيرته وأومأ برأسه مشيراً إلى أمي ... «أبلغي والدتك بتعازي». تطاير فتات الفطيرة من فمه أثناء كلامه. في أي ظرف آخر، كان ممكناً أن يجعلني هذا الأمر أن أتقزز منه، وأما في هذه اللحظة ما كانت لدي طاقة للتقزز.

ذكرياتي عن أبي ليست فيها نكات كثيرة، فأكثرها مقتصر على جلوسه في مكتبه كي يقرأ، وعلى خروجه لجز العشب في

الحديقة وشربه الويسكي مع أمي. وإذا بذلت جهداً في التذكر، أستطيع رؤيته عند الشاطئ مع رواية بوليسية في إحدى يديه وزجاجة بيرة في اليد الأخرى؛ أو ربما أراه يشوي اللحم، يتفقد نضج شرائحه ويقلّب البرغر. وأما أن يحكي نكتاً، فهذا أمر لا تستطيع مخيلتي النشطة تصوره. كان يحكي لي قصصاً عندما نخرج معاً لتنظيف المزاريب استعداداً لفصل الشتاء. وكانت تلك هي المهمة الوحيدة التي نؤديها معاً من غير أمي. لعل هذا سبب احتفاظه بقصصه حتى ذلك الوقت. كانت أمي تجلس في الداخل وتنظر إلينا عبر النافذة وتقلق كلما تسلقت السلم كي أساعد أبي.

«هل أخبرتك يوماً عن جدك؟ ذات مرة، أصابه الرصاص في صدره أثناء الحرب العظمى. لا أستطيع تذكر اسم المعركة، لكني أعلم أنه عولج في فرنسا في بلدة صغيرة عند المحيط».

كنت على السلم، إلى جواره. مددت يدي المرتدية قفازاً وجرفت حفنة من أوراق الأشجار ثم رميتها إلى الأرض.

«وهل شُفي؟»

«بالتأكيد. لم يشكُ يوماً في حياته كلها ... أعني أن صحته كانت حسنة».

«أتمنى لو عرفته!».

«وأنا أيضاً. كان شخصاً طريفاً. كان يحكي لنا كيف اعتاد أثناء ملازمته السرير هناك، في فرنسا، أن يصفر للممرضات ثم يتظاهر أنه نائم». ضحك أبي ... «كان رجلاً طيباً». صمت بعد ذلك. يداه على السلم وعيناه مرفوعتان صوب السماء.

سألته، «هل أنت بخير؟»

«أوه، أنا بخير. إنني أتذكر. يُكثر الإنسان من التذكر عندما يصير كبيراً سأحكي لك نكتة: لماذا لا يُسمح للبنطلون بالدخول للمدرسة؟»

رفعت كتفي.

«لأنهم يعلّقونه».[(1)*]

بدأ أبي يضحك. صحيح أنني لم أفهم النكتة، لكنني ضحكت معه. ضحكته جعلتني أضحك.

«كانت هذه واحدة من النكات المفضلة عند جدك».

ليس منصفاً أنني لم أضحك كثيراً مع أبي. كان القسم الأكبر من أحاديثنا مكوناً من شكاواي على أمي ودفاعاته عنها. ليتني ضحكت معه أكثر مما فعلت! أظنه ظلمني لأنه لم يمنحني تلك الفرصة؛ وهذا ما يزعجني قليلاً.

«كلام فارغ! إنها مخيلتك من جديد. أنت تبالغين في التفكير في كل شيء». كانت خالتي جون جالسة إلى الطاولة في بيتنا قبالتي. عادت أليس إلى بوسطن تاركة خالتي جون كي تمضي معنا بضعة أيام ... «كان والدك يحبك ويحب أمك. كل ما في الأمر أنه كان ... شخصاً متحفظاً».

تناولت رشفة شاي وقلت، «من الواضح أنه لم يكن كذلك».

«يقول الناس دائماً عن الميتين أشياء حسنة ... أمام أقاربهم خاصة. لعلهم يختلقون الكلام اختلاقاً».

---

(1) * تسمى عقوبة الطرد المؤقت من المدرسة «التعليق».

«خالتي جون! ...» قلت هذا وأنا أمد يدي لتناول واحدة من قطع الحلوى الباقية. لعقت السكر الملتصق بغلافها.

«الحقيقة أنني عرفت والدك قبل مجيئك إلى العالم بأكثر من عشر سنين. صحيح أنني لم أجده شخصاً متميزاً من حيث طرافته، لكني أعلم أنه كان يحبك». بدا لي كأنها راغبة في قول المزيد لكنها أمسكت لسانها. رأيت شيئاً يحوم من خلف تلك العينين الزرقاوين. كانت أمي قد ذهبت إلى سريرها قائلة إن صداعاً أصابها. وكنت قد نظّفت كل شيء، مع خالتي جون، كي لا تنزعج أمي في الصباح ... أو، على الأقل، كي لا تنزعج أكثر مما تحب أن تنزعج. زوجٌ مات وبيت متسخ ... قد يجعلني هذا أفقد أبي وأمي معاً.

أتساءل دائماً عن الأسرار التي يأخذها الموتى معهم. يكون بعضها أسراراً غير مقصودة، أموراً لم تسنح لهم فرصة لقولها، أموراً من قبيل «آسف» أو «خبأت المال في علبة حذاء وضعتها في أعماق الخزانة». وبعضها أسرار مظلمة من الأفضل أن تظل مدفونة. حتى الناس الذين يشعون سعادة ونوراً لديهم أسرارهم المظلمة. وبعض الأحيان، تصير الكذبة راسخة فتتحول إلى حقيقة، تصير حقيقة مختبئة عميقاً في العقل إلى أن يأتي الموت فيمحوها تاركاً العالم مختلفاً قليلاً. ومن الممكن أن تصير للأسرار وللأكاذيب حياتها الخاصة بها؛ من الممكن تحويرها والتلاعب بها؛ ومن الممكن أن تتفجر خارجة إلى العالم من فم شخص بدأ يفقد عقله.

- 11 -

جو

أنا عائم في العالم بين نوم ويقظة حيث جسدي من غير وزن وحيث العالم من غير لون في تلك اللحظات قبل أن يُفسح نور الواقع الخافت متسعاً لحيوية الأحلام ونضارتها. هناك، حيث يتسلل الصوت عبر النعاس ويبدو العالم القائم من خلف الجفون المغمضة قريباً لكنه بعيد أيضاً. أنا مبحر صوب النوم، لكني أسمع أصواتاً، أسمع صوتين مقتربين من باب غرفتي. صوت أعرفه، صوت ليا. والآخر صوت مألوف إلى حد مؤلم. أرتعش تحت ثلاث بطانيات، لكني لا أرتعش برداً. ينفتح باب الغرفة وتطل ليا برأسها.

«أتيت بشخص يود أن يراك».

«مرحباً، يا جو!». دخلت كورا بعد ابنتها. أتاملها بعينين تركت عليهما الأدوية غشاوتها. لا يزال خصرها نحيلاً وساقاها قصيرتين، متينتين. لا تزال ابتسامتها رقيقة. أضاف إليها الزمن غضوناً من حول فمها وعينيها، وأضاف خيوطاً فضية ظهرت حيث كان شعرها أحمر اللون. يخجلني القول إن أنفها صار معوجّاً قليلاً.

«كورا!». يسقط اسمها من فمي فتتقطع أنفاسي. تطفر حرارة الحرج إلى وجنتي الضامرتين عندما أحاول الانتصاب جالساً. أنا ضعيف. أسقط على وسادتي. تنحني كورا وتمس يدي. أرفع يدي وأضعها برفق فوق يدها. أحس جلدانا معاً. جلدانا اللذان كانا

مشـدودين، فتييـن، عاشـقين. جلدهـا ناعـم ... تلـك النعومـة التـي تأتـي مع التقدم في السـن. ليس رقيقاً كالورق؛ ليس بعد. جلدها ناعم مثل الآيس كريم الذائب. تترك يدانا معاً لحظة واحدة قبل أن تسحب يدها من تحت يدي وتتراجع حتى آخر السرير.

«تسرني رؤيتك». تقول هذا وتدثر قدمي بالبطانيات. يفاجئني إحساسي بالرغبة ... الرغبة نفسها التي أحسستها يوم دخلت محطة الوقود فرأيتها جالسة على الكرسي خلف صندوق المحاسبة، الكرسي التي أجلس عليها. الرغبة عند المحتضرين خدعة قاسية.

يخيم على الغرفة صمت مرتبك. تجلس ليا على السرير الآخر، تصالب ساقيها وتستند إلى الجدار بظهرها. تنظر إلى أمها، وتنظر إلي. تنتظر. كورا تعبث بخيوط صغيرة ناتئة من بطانيتي.

«لم أقل لك أبداً إنني آسف». تخرج الكلمات من فمي على الرغم مما تخلفه من ثقل أحسه. في عقلي، اعتذرت منها ألف مرة. أرقد في الليل صاحياً وأحاول العثور على كلمات قادرة على جعلها تصفح عني. لكني لم أعثر على تلك الكلمات. أعلم هذا الآن. «أنا آسف. لم تستحقي أبداً ما فعلته بك».

«صحيح، لم أستحق ذلك». تضع يديها في حجرها ... «لكن هذا صار ماضياً».

«لا أدري ...» سعلت كي أزيل اللعاب العالق بحلقي ... «سألت نفسي مرات كثيرة، وما من إجابة عندي».

«أولئك الفتيان الذين كنت تعتبرهم أصدقاء لك راحوا يتجولون

في البلدة قائلين إنك لم تستطع الامتناع عن السكر فغلبتك شياطينك الهندية». استنشقت كورا نفساً عميقاً ... «انكسر قلب أبيك لكلامهم. كان يظن أن الناس في هذه المنطقة قد ... قد تغيروا. قلت لهم إن الأمر لا علاقة له بهذا. وإن ما وقع كان نتيجة مزاجك الرديء».

«أشكرك لدفاعك عني».

«لم أكن أدافع عنك، يا جو. كنت أصحح كلامهم. ما فعلته لا يمكن الدفاع عنه».

«لكني أشكرك على أية حال».

كانت ليا جالسة على السرير الآخر تنظر إلى أبويها يتكلمان. كانت تلك أول مرة في حياتها تراهما يتكلمان.

«الأمر الذي لم أستطع فهمه أبداً هو أنك لم تعد إلى موطنك. لم تعد أبداً بعد تلك السنين كلها حتى عندما أخبرتك ماي بمولد ليا، حتى عندما مات أبوك».

«كنت على الدوام مقتنعاً بأن ليا ستكون أحسن حالاً من غيري».

قالت كورا، «أظن أننا لا نعرف هذا. لكن، كان عليك أن تعود إلى موطنك».

«لست مخطئة، يا كورا». أحسست نطقي اسمها بعد هذه السنين كلها أمراً لطيفاً، أمراً فيه ألفة.

تابعت سيري بعد أن سرقت سيارة أبي وكدت أدهس آرتشي جونسون على الطريق السريعة. مررت ببلدات صغيرة أسماؤها مولودة إلى الناحية الأخرى من المحيط. ترورو ولندنديري

وأمهرست. مررت بتفرعات مؤدية إلى الجروف الحمراء التي رسمتها مياه المد العالية. عبرت غابات نيو برونزويك الخضراء ولم أكن أتوقف إلا من أجل الوقود ومن أجل شيء آكله. ما سرقته من مال، والقليل الذي كان في محفظتي، ما كان كافياً لأن يدوم طويلاً. لكن هذا لم يثر قلقي. كانت في ذهني أمور أخرى. لا يزال الدم على بنطلوني. يزداد ضغط قدمي على دواسة الوقود كلما نظرت إليه.

توقفت قبيل وصولي إلى الحدود بين نيو برونزويك وكيبك، توقفت في محطة لوقوف السيارات الشاحنة ودفعت خمسة وعشرين سنتاً كي أستحم وفوقها عشرة سنتات مقابل منشفة وقطعة صابون صغيرة. كانت قطعة الصابون قاسية تخدش أكثر مما تنظف. تركت على جسدي خطوطاً حمراء صغيرة. حاولت غسل الدم عن بنطلوني الجينز، لكنه عاندني وظل شهادة على سوء ما فعلت. بجسد نظيف وبقعة على البنطلون لونها بلون الصدأ، خرجت من منطقة الولايات البحرية ودخلت أرضاً لا أعرفها. مضيت غرباً مثلما يفعل الناس الذين يبحثون عن أمر من الأمور. قدت السيارة عبر كيبك ولم أتوقف إلا مرتين من أجل الوقود ومرة أخرى كي أتبول إلى جانب الطريق. أتجاوز المدن من غير دخولها. قد تكون المدن أماكن ممتازة لأن يضيع المرء فيها، لكنني كنت باحثاً عن ضياع من نوع مختلف. أردت أن أضيّع ذلك الجزء من نفسي الذي استطاع إيذاء امرأة أزعم أنني أحبها. وكنت في حاجة إلى فعل هذا بمفردي.

عند آخر السرير، عدّلت كورا جلستها ثم انحنت فوق ساقي الهزيلتين. «كان في وسعك أن تعود إلى موطنك. كان في وسعك أن تواجه ما فعلت. ربما ما كان لنا أن نظل معاً، لكنك ستكون أباً».

أحس اندفاع الغضب المألوف، أحسه بعيداً لكنه بشع، أحسه لحظة واحدة. خلال تلك اللحظة، خلالها فقط، أود أن أصيح بها: *لو علمت في وقت أبكر أنني صرت أباً، فلعلي كنت أعود!* لكني لا أصيح بها. أغمض عيني وأترك غضبي يذوب، غضبي الذي لا حق لي فيه. ففي آخر المطاف، لم تكن كورا هي التي رحلت، لم تكن هي التي قررت ألا أكون أباً. أنا هو الشخص الوحيد الذي يحق لي أن أغضب منه.

«كدت أعود. مرة واحدة. في مكان من الأماكن في ولاية أونتيريو، وجدني شرطي نائماً في السيارة. ظننته عرف أن السيارة مسروقة وظننته سيجرني منها ويرسلني إلى موطني مقيد اليدين». أتوقف عن الكلام متذكراً كيف قفز قلبي من مكانه عندما نقر الشرطي على النافذة فأيقظني من نوم عميق ... «لكنه كان يتحقق فحسب من أنني حي. قال لي أن أتابع القيادة. وهذا ما فعلت. لم يبلغ أبي الشرطة بسرقة السيارة. لطف منه لا أستحقه».

قالت كورا، «ما أغرب التفكير في ما كان يمكن أن يحدث لو أن والدك أخبرك الشرطة بسرقة السيارة، لو أنهم أعادوك بالفعل».

أرفع رأسي ناظراً إلى ليا فتكتفي بابتسامة هادئة.

«بابا، لماذا لم تعد؟ حتى بعد أن علمت بمولدي؟».

أكاد أبكي لسماع كلمة بابا مع أنها قالتها هامسة كأنها مذعورة. أو لعل هذا ما أحسسته. لم يبد على كورا أنها لاحظت شيئاً، واكتفت ليا بأن تنظر إلي منتظرة إجابتي. صارت الكلمات كثيفة على لساني، صارت ثقيلة وأنا أحاول تجاوز الغصة التي أطبقت على حلقي.

«أردت العودة. حاولت العودة. لكن ما فعلته بأمك وبعائلتي ... لم أكن صالحاً للعودة. ليس هذا لأنني لم أحبك. لحظة أخبرتني ماي بمولدك، أحببتك أكثر من أي شيء آخر في هذا العالم». كففت عن الكلام كي أستنشق نفساً. صار الكلام يرهقني ... «لكن، إن أخطأت من جديد ثم رحلت من جديد لما اشتقت إلي. ليس هذا مثل أمي. لقد عرفتُ روثي. لقد عرفتُ تشارلي. كان أساها على شخصين عرفتهما وأحبتهما. ما كان ممكناً أن أجعلك تأسين عليّ فأنت لا تعرفينني. أقول كلاماً لا معنى له، أليس هذا صحيحاً؟»

رفعت ليا كتفيها وناولتني كأس ماء.

«لهذا، فعلت الشيء الوحيد الذي أعرفه. بقيت بعيداً وصرت أرسل مالاً».

«ليس المال بديلاً عن الأب ولا عن الابنة». ليا حكيمة ... مثل ماي.

«صحيح. أنت محقة. ليس لدي ما أستطيع قوله دفاعاً عن مسلكي غير أنني آسف».

وصلت إلى سولت سينت ماري وكنت لم أتناول شيئاً منذ ثلاثة أيام غير زجاجة بيبسي وشرائح بطاطس. كنت في حاجة

إلى وجبة طعام، إلى شيء حارٍ يملأ البطن. لكني كنت مفلساً. توقفت عند محطة وقود عند أطراف واحدة من البلدات آملاً أن أعثر على من قد يكون في حاجة إلى عامل مؤقت، عمل أكسب منه ما يكفي ثمن وجبة طعام وحمام حار.

رُن الجرس الصغير المعلق فوق الباب عندما دخلت. نصب الرجل المتكئ على طاولة البيع قامته ونظر إلي.

سألته بعد أن شددت ظهري قليلاً واضعاً يدي في جيبي، «هل تعلم بأي عمل أستطيع أداؤه في هذه المنطقة؟»

نظر الرجل إلى ملابسي وإلى وجهي المرهق. «ليس لدينا عمل من أجلك». كشّر قليلاً عندما تناول النقود مني.

«سأعطيك عملاً».

التفت فرأيت رجلاً في سن الكهولة جلده أسمر مثل جلدي لكنه أطول مني قامة، أطول قامة بقدم كاملة. رأيته واقفاً بالباب منتظراً كي يدفع حسابه.

قال لي، «هل تستطيع طلاء بيت؟»

«أستطيع طلاءه».

دار من حولي ودفع للرجل الواقع خلف طاولة البيت. «اتبعني!».

تبعته إلى حيث كانت عند مضخات الوقود سيارة شاحنة صغيرة جديدة من نوع تشيفي زرقاء اللون فيها ريشة مزينة بالخرز معلقة على زجاجها الأمامي. بدت سيارة أبي العتيقة بائسة إلى جانب هذه السيارة. قدت السيارة خلف الرجل فمررنا بمروج مهذبة أنيقة وأكشاك لبيع الآيس الكريم، ثم توقفنا أمام بيت من طابقين أمامه حديقة جميلة، بيت عند آخر الطريق.

ومن خلف ذلك البيت حقول جرداء وأعشاب برية طويلة. نزلت من السيارة فرأيت قشور طلاء أبيض متناثرة على العشب تحت جدران البيت. السقالات منصوبة، لكني لم أر عمال طلاء.

«استأجرت شاباً كي يقوم بهذا العمل. هو شاب من منطقتنا. أزال الطلاء القديم واستلم أجرة الأسبوع الأول، ثم لم أره بعد ذلك». رأيت في كراج البيت حاملاً لبنادق الصيد عليه عدة بنادق، ورأيت دراجة رباعية العجلات وغزالاً معلقاً جاهزاً للسلخ. أشار الرجل إلى علب الطلاء على الأرض. «ما الزمن الذي تظن أنه يلزمك كي تنجز طلاء البيت كله؟»

خرجت ودرت من حول البيت. «وجها طلاء؛ جانب واحد كل يوم. ثمة جانبان أصغر من الجانبين الآخرين. نحن في الصيف، وهذا يعني أنني أستطيع العمل حتى وقت متأخر. ستة أيام، على ما أظن».

«عظيم ... ابدأ العمل غداً». أدخل يده في قفاز جلدي ثخين وتناول سكين السلخ. كان مقبض السكين عريضاً ونصلها أعرض منه. استدار في اتجاه الغزال الذي كان لسانه متدلياً من فمه وعيناه غائمتين.

«كنت أحب أن أستطيع البدء منذ اليوم». إن كانت ثمة عناية إلهية فقد عبرت عن نفسها من خلال قرقعة صادرة عن معدتي. نظر الرجل إلي مضيقاً عينيه ثم ابتسم ابتسامة صغيرة.

«ما رأيك أن أدفع لك أجر اليوم الأول على أن تبدأ العمل غداً صباحاً عند طلوع الشمس». خلع القفاز من يده وأخرج محفظته وناولني خمسة عشر دولاراً. أخذت المال منه وسرت

صوب سيارتي. كنت ممتناً له، لكني لا أريد أن يعلم هذا. لا أحب أن يكون لأحد من الناس هذا النوع من السلطة عليّ.

التفت وصحت من فوق كتفي، «عند طلوع الشمس».

أوقفت السيارة أمام مطعم كنت قد رأيته في طريقي وكدت أفقد إحدى عجلات السيارة عندما سقطت في حفرة في الطريق. بدأ تقاطر الزبائن من أجل وجبة العشاء. كانت في المطعم لافتة تقول «اختر مكانك بنفسك» مع وجه مبتسم عند زاويتها مرسوم بقلم رصاص. أخذت واحدة من البطاقات البريدية الموضوعة على حامل معدني صغير. وعندما أتت النادلة كي تسألني عما أريد طلبه، طلبت منها قلماً. طلبت أيضاً تشيز برغر مع البطاطس المقلية وعلبة بيبسي كولا. قلبت البطاقة على ظهرها كي أكتب.

«ماما وبابا ... أنا آسف جداً». حاولت قول المزيد، لكن الكلمات خبت في هواء المطعم المشبع بروائح الدهون. قلبت البطاقة على وجهها، الصورة إلى أعلى. وتركت اعتذاري وحيداً في الظلام.

الآن، لم يعد للطعام الأثر نفسه الذي كان تلك الأيام. صار لكل شيء مذاقٌ معدني منذ أن بدأت تناول هذه الأدوية التي كانت أول الأمر من أجل معالجتي، ثم صارت مهمتها مقتصرة على إبقائي حياً زمناً أطول قليلاً. أقلعت عن تناولها منذ بضعة أسابيع. لو علمت منذ البداية أن المعالجة ستكون من غير جدوى، لرفضت تلك الحقن كلها، حقن المعالجة الكيميائية، لمجرد أن أستطيع تذوق الأشياء مثلما كنت من قبل. وأما في ذلك اليوم،

فقد وجدت التشيز برغر ألذّ طعام أكلته في حياتي كلها. سال الدهن منه لحظة أخذت القضمة الأولى فأحرق شفتي تاركاً عليها بثرة صغيرة حمراء اللون؛ لكني لم أهتم لذلك. أجهزت على طعامي وأخذت البطاقة وسألت عن مكتب البريد. أرسلت البطاقة، وكانت واحدة من بطاقات كثيرة أرسلتها إلى أهلي بدلاً من ذهابي إليهم. لا تزال ماما تُذكّرني حتى وأنا مستلقٍ هنا، حتى وأنا أحتضر، لا تزال تذكّرني بأنني كسرت قلبها فلم أتصل بها ولم آت إلى البيت كي أراها.

«أطفالي كلهم تركوني. اختفوا، ماتوا، هربوا. أتساءل أحياناً عما فعلت كي أستحق هذا». الآن، بعد أن كبرت أمي، صارت تشرب قليلاً من الويسكي. تحب أن تقول «لا حاجة الآن إلى المحافظة على الكبد بعد أن بدأ كل شيء يتهاوى».

وصلت إلى بيت الرجل مع ظهور الشمس ونهوضها فوق الحقول الواقعة خلف البيت.

قال لي، «تسرني عودتك». رمى سيجارته على الأرض وداسها بحذائه، ثم أشار إلى علب الطلاء.

استغرق طلاء البيت سبعة أيام ونصف يوم. كان الطقس حاراً؛ وكان البعوض مزعجاً. في آخر اليوم الرابع، عندما كنت أغسل رأسي تحت خرطوم الماء، خرج الرجل من البيت حاملاً علبتي بيرة وحاول أن يعطيني واحدة منهما.

«لا، أشكرك. تجعلني البيرة أغضب».

«لا مشكلة. سأشرب الاثنتين. لكن، على الأقل، ألا تستطيع البقاء قليلاً حتى تستحم؟ أستطيع أن أشم رائحتك وأنا جالس في الداخل».

حاولت أن أرفض عرضه، لكنه لم يقبل رفضي. سوف أعترف بأن الماء الحار كان لطيفاً. نظرت إلى بقعة الماء القذر عند قدمي قبل أن تسيل جارية في المصرف. بينما كنت أستحم، أخذ الرجل ثيابي المتسخة التي وضعتها على مقعد المرحاض ووضع مكانها رداء منزلياً. بعد ذلك، وضع ثيابي في الغسالة. تجاهلني عندما صحت معترضاً، فما كان لي خيار غير أن أرتدي ما وضعه وأعقد الحبل على وسطي وأسير خلفه إلى فناء البيت الخلفي حيث كان يشوي الهامبرغر. قدّم الهامبرغر مع شرائح باردة من الخيار غارقة في الخل والملح.

قال لي، «عندك قصة!». ناولني كأس ماء بعد أن أغلقت أزرار القميص القديم الذي قال إنه لم يعد يستخدمه. لبسته فوق التيشيرت النظيف الذي لا يزال دافئاً بعد خروجه من آلة تجفيف الملابس.

«لكل إنسان قصة».

«تبدو أصغر سناً من أن تكون لك أية قصة مهمة».

«لست صغير السن». أظنه أراد سماع المزيد، لكني لم أعطه شيئاً. «أشكرك على هذا كله. سأعود صباحاً».

كان يدفع لي كل يوم أجر اليوم الذي قبله فصرت قادراً على شراء وجبة حارة يوماً ووجبة خفيفة في اليوم الذي يليه. أذهب كل ليلة إلى موقف سيارات مختلف فأسند رأسي إلى نافذة السيارة الخلفية وأطوي ذراعي على صدري. مع هذا، لم يكن نومي غير مريح. يبلغ مني التعب آخر كل يوم مبلغاً يجعلني غير قادر حتى على التفكير في النوم المريح. ثم جاء اليوم الأخير وصارت علب

الطلاء الفارغة مصفوفة في زاوية الكراج وبدا البيت ذو اللون الأزرق الخفيف متألقاً، جديداً، حاول الرجل إعطائي مئة دولار. فَرَدَ تلك الأوراق النقدية من فئة عشرة دولارات على الطاولة كأنه يفتح مروحة.

«لا، يا سيدي! لقد أعطيتني قسماً من المال. اتفقنا على خمسة عشر دولاراً كل يوم».

«الحقيقة أن أداءك كان ممتازاً، وأنك أنجزت العمل».

مددت يدي كي آخذ المال، لكنه أسرع فبسط كفه فوق مروحة النقود تلك. قال، «قلت لي إن لكل امرئ قصة. أريد سماع قصتك».

أحسست شعلة الغضب الصغيرة تتقد وسط صدري.

قال، «شاب يظهر في مكان بعيد جداً عن موطنه». ظلت يده حيث كانت. يدي معلقة فوقها مثل يد طفل يتوسل قطعة حلوى ... «ثمة ما يجعلك غاضباً متقلب الطبع».

«فقدت شقيقتي عندما كنت في السادسة، وتركت أخي يموت عندما كنت في الخامسة عشر، ثم تركت زوجتي نازفة منذ أسبوعين. هذه هي قصتي».

أومأ برأسه بطيئاً قبل أن يرفع يده. أخذت المال ورفضت النظر في عينيه. كان باب الكراج لا يزال مفتوحاً وعلبة بيرة موضوعة إلى جانب كدس علب الطلاء الفارغة. أخذت علبة البيرة ووضعتها على مقعد السيارة إلى جواري، ثم انطلقت مبتعداً عن كل شيء وعن كل شخص عرفته.

أضع يدي على الفراش تحتي وأنقل ثقل جسدي قليلاً محاولاً أن أجد وضعاً أكثر راحة. قلت لها، «مكّنني ذلك المال من متابعة المضي غرباً. وعندما نفد، توقفت وساعدت رجلاً في مزرعة، ساعدته بضعة أيام. سمح لي هذا بالمضي مسافة أكبر».

«أين كنت ذاهباً؟». مالت ليا برأسها جانباً وأسندت خدها إلى راحة يدها.

«لم أدر. تابعت القيادة فحسب».

يقولون إنك تستطيع في البراري متابعة كلبك بعينيك وهو يجري مبتعداً مسافة عشرة أيام كاملة. وأنا أصدق هذا. كانت تلك الأرض ممتدة إلى ما لا نهاية، مستوية، مضجرة إلى أقصى ما يستطيعه مكان من الأماكن. كان ممكناً أن أجتاز منطقة البراري في يوم واحد. لكن، يا إلهي، كان أمراً شديد الصعوبة أن أظل مستيقظاً من غير شيء أنظر إليه مع بضع زجاجات بيرة تتخبط في بطني فأحس رأسي سائباً. كنت قد استهلك المال الذي سرقته من صندوق محاسبة في واحد من المتاجر، استهلكته في الخروج من ولاية أونتيريو، ثم سرقت مرة أخرى على مقربة من وينيبيغ. كانت امرأة مشردة حافية القدمين في يدها دولاران اثنان قد أثارت مشكلة في متجر الكحول فانتهزت الفرصة ودسست تحت إبطي زجاجة ويسكي، واحدة من تلك الزجاجات الكبيرة المغلفة بالنايلون، وخرجت بينما كانت المرأة تشتم الموظف بلغة لم أسمعها من قبل. اشتريت بضع زجاجات مياه غازية من متجر قريب ورحت أشرب من هذه قليلاً ومن هذه قليلاً ... جرعة ويسكي من أجل لذعتها، وقليل من السكر كي يبرّدها.

من غيرما سبب واضح، تركت الطريق السريعة عند سويفت كرنت ومضيت نزولاً صوب الأراضي العشبية الواقعة شمال الحدود مباشرة. طريق ترابية ماضية عبر مساحات من أعشاب طويلة يهجرها لونها الأخضر استعداداً للشتاء. سيقانها الصفراء تتمايل مع الريح ... أمنا الطبيعة تمر بأصابعها في شعرها. بدا لي أن الأفق يزداد بعداً عني مع اقترابي. وغيوم ... تدرجات الرمادي كلها بدأت تظهر عند الخط الفاصل بين الأرض والسماء. ثم راحت تتكوم غيمة فوق غيمة، تتكوم رويداً رويداً فلا أكاد ألاحظها إلى أن انبثق برق مفاجئ في سحابة داكنة أمامي مباشرة. أوقفت السيارة وفتحت بابها كي أستنشق هواء السهوب ... رائحة الهواء التي تأتي قبل العاصفة، تأتي ممتلئة بللاً وكهرباء. كانت الأرض شديدة الاتساع، شديدة الهدوء. وكنت قادراً على تخيل أنني الشخص الوحيد على سطح الأرض.

«بحق الجحيم، ماذا تفعل هنا؟»

ارتعدت لسماعي صوت شخص آخر، وظننت لحظة أن عضلات جسدي كلها خرجت من مواضعها.

«ثمة عاصفة آتية».

استدرت فرأيت امرأة في مثل سني تقريباً. لا شك في أنها هندية. كانت مرتدية بنطلون جينز وتيشيرتاً ذا لون أصفر فاقع. وكانت بين ذراعيها حزمة طويلة من سوق الحشائش. نظرت من حولي باحثاً عن سيارة، لكني لم أر سيارة ... وحدها تلك المرأة في هذا المكان البعيد عن كل شيء؛ امرأة حاملة حزمة حشائش.

سألتها، «من أين أتيت؟»

«أتيت من أمي. مثلما أتيت أنت». غمزت لي بعينها واتكأت على سيارتي. «أريدك أن تعلم فقط أنني قادرة على الجري أسرع منك إن ظننت أن هذه البراري مكان مناسب لارتكاب جريمة ضدي. ثم إنني أخفي في ملابسي سكيناً ممتازة حادة النصل. أستطيع إخراجها قبل أن تصل إلي».

«لا نية لي في إيذاء أي إنسان». كان قلبي قد بدأ يهدأ لحظة انبثاق صاعقة من بين الغيوم أعقبها هدير الرعد. «ما اسمك؟»

جلست الفتاة عند حافة الطريق على مسافة قدمين مني. «أنا لا أفصح عن اسمي لكل شخص غريب ألتقيه. هل يزعجك ألا تعرف اسمي؟»

«لا أظن».

كانت غريبة لكن فيها شيئاً لطيفاً، شيئاً مهدئاً. جلستُ صامتة ترقب الغيوم، جلستُ منتظرة المطر.

قلت لها، «هل تحبين أن تعرفي اسمي؟»

«فقط إذا كنت راغباً في قوله لي».

«اسمي جو».

«جو». رفعت يدها كي تزيح خصلة شعر شاردة وتضعها خلف أذنها ... «إذاً ... ماذا تفعل في هذا المكان النائي في سيارة آتية من الناحية الأخرى من البلاد، يا جو؟». قالت هذا وأشارت إلى لوحة سيارتي.

«كان علي أن أبتعد».

«يعني هذا أنك هارب».

«نحن جميعاً هاربون من أمر من الأمور».

«نعم، نعم ... ألستَ ملك الفلاسفة الهنود؟»

«لا أعلم معنى هذا».

لم تقل شيئاً. ظلت جالسة هناك تنظر إلي وأنا أنظر إلى العشب. قلت كي أكسر الصمت، «هل تحاولين تقييمي؟».

«لا، أبداً. أنا لا أقيّم أحداً. أنا لا أعرفك، يا جو. وأنت تبدو كأنك واحد من أولئك الهنود الذين يمضون بين العشب كي يعثروا على أنفسهم». ضحكت عندما قالت هذا، ثم أضافت، «أفضل من البيض، على ما أظن، فهم يأتون كي يجهزوا على أنفسهم».

برق جديد يشق السماء ومن بعده هدير الرعد العميق.

«آمل ألا يهطل المطر قبل عودتي إلى البيت. حذائي جديد. لا أريد إفساده قبل أن أستهلكه». رفعت ساقها كي تريني حذاء رياضياً جديداً أبيض اللون له رباط أزرق.

على العكس من الرجل الذي طليت بيته، جعلتني هذه الفتاة أحس راحة في الجلوس هنا وسط البرية. ثمة متسع كبير خالٍ كي تفر الأفكار إليه. حاولت كبح جماح أفكاري، لكنها انسابت انسياباً ما إن فتحت فمي. «هل تظنين أن في دمنا مشكلة؟ نحن الهنود، أيكون في دمنا ما يجعلنا سيئين؟»

ضحكت الفتاة وقصف الرعد في اللحظة نفسها فأغرق صوت ضحكتها. كان مشهداً غريباً ... رؤيتها تميل برأسها إلى الخلف وضحكتها الصامتة عند حافة تلك الطريق الترابية والعشب تتسارع اهتزازاته تحت الغيوم الخفيضة القاتمة.

«رائحتك هي الأمر الوحيد السيء في هذه اللحظة. سيفيدك حمام سريع في حل هذه المشكلة. من أين أتيت بفكرة أن في دمنا ذلك الشيء؟»

«عبارة سمعتها ذات مرة... منذ عهد بعيد. ومنذ ذلك الوقت، اتخذت الأمور كلها وجهة خاطئة».

«خاطئة ... كيف؟»

«صار يبدو لي أن الناس يفضلون الابتعاد عني. وبعض الأحيان، كنت أساعدهم في ذلك». رفعتُ يدي كي تراها. كانت رؤية آثار الكدمة الباقية على يدي صعبة في الضياء الخافت. وذلك الجرح حيث اصطدمت قبضتي بأسنان كورا صار الآن خطاً رقيقاً أبيض على جلدي الأسمر.

أمسكت يدي بيديها ونظرت فيها ملياً ثم أعادتها إلى حجري. لم تسألني عن سبب الندوب؛ وما كانت في حاجة إلى سؤالي. بقيت صامتاً ورحنا نرقب الحفر الصغيرة التي تحدثها قطرات المطر الأولى لشدة ثقلها.

«أتعلم ما أفكر فيه، يا جو؟» وضعت يديها إلى جانبيها مستندة إلى الأرض براحتيها مستعدة للنهوض واقفة ... «أظن أننا كلنا نفعل أموراً سيئة، لكن هذا لا يجعلنا دائماً أشخاصاً سيئين». وقفت تنظر إلي من أعلى. ضَيَّعت السماء الداكنة من فوقها تفاصيل وجهها.

«لعل حظك كان سيئاً؛ لكن ما من شيء سيء فينا. لقد اجتزنا صعوبات كبيرة جداً، إن كنت لم تنس هذا. كل واحد منا ظل حياً حتى اليوم آتٍ من أمر سيء لحق بالعائلة التي أتت قبله. كونك على قيد الحياة معجزة عجيبة. إذاً، كفانا كلاماً على أن في دمنا مشكلة. اعرف أخطاءك واعترف بها. أصلحها وتابع سيرك. نحن مدينون بهذا لمن لم يفلحوا في النجاة». نفضت الغبار عن

ملابسها وانحنت كي ترفع حزمة العشب التي كانت معها ... «هل توصلني بسيارتك؟»

انفتحت أبواب السماء لحظة صرنا في السيارة. وضع صوت المطر على سقف السيارة وصوت الحصى تحت عجلاتها نهاية لحديثنا فوجهتني الفتاة إلى آخر الطريق الترابية مشيرة إلى الأمام بإصبعها الطويلة النحيلة. وعند المنعطف، رأيت بيتاً صغيراً مطلياً بألوانٍ متعددة وعليه رسوم. من حول البيت حدائق عامرة بالزهور والخضراوات. أوراق أشجار الفاكهة تهتز تحت قطرات المطر.

«بيت جميل».

«أحب أن تكون الأشياء جميلة». فتحت الفتاة باب السيارة. «انتظرني، يا جو». وضعت العشب عند مدخل البيت، عند الدرجة الأولى، ثم دخلت الحديقة وبدأت تقطف ثماراً من الأرض ومن الأشجار. عادت مبتلة وفي يديها حزمة جزر وبعض الفجل وبضع تفاحات. ناولتني ذلك كله عبر النافذة.

«أتمنى لك حظاً طيباً، يا جو. آمل أن تستطيع العثور على سلامك».

«يسعدني أنني وجدتك. أشكرك».

«لا حاجة إلى الشكر. اعتن بنفسك فحسب».

ضربت بيدها على جانب السيارة، ثم جرت إلى البيت. وبقيت جالساً أنظر إليها وماء المطر منهمرٌ عنيفاً من غير انقطاع يحجب كل ما هو خلف زجاج السيارة الأمامي. أحسست حزناً صادقاً عندما اختفت في بيتها وأغلقت الباب الأبيض الذي عليه رسوم أزهار، أغلقته بإحكام في وجه العاصفة.

عندما هدأ المطر قليلاً وصار إيقاعه منتظماً وصارت ماسحة الزجاج قادرة على مجاراته، استطعت رؤية سبيل العودة إلى الطريق الرئيسية. كان الراديو عديم الجدوى في عاصفة لها ذلك الضجيج كله فقدت السيارة مكتفياً بالاستماع إلى أفكاري وإلى صوت المطر. قدتها حتى صارت الغيوم الرمادية بعيدة خلفي، حتى صارت صورةً أراها منعكسة في مرآة السيارة.

«كان فيها شيء جعلني أحس راحة ... ذلك النوع نفسه من الراحة الذي كنت أجده فيك». التفتُّ كي أواجه كورا التي رفعت عينيها عن البطانية وابتسمت ... «عدت إلى ذلك المكان بضع مرات كي أرى إن كانت تود رؤيتي من جديد، لكنني لم أوقف السيارة في أية مرة منها ولم أنزل ولم أطرق ذلك الباب. لم أفعل شيئاً من هذا إلى أن أتت تلك المرة الأخيرة. لكنني سأترك هذه القصة من أجل يوم آخر».

صمت في الغرفة. ليا وكورا مطرقتان برأسيهما تنظران إلى أيديهما. رفعت عيني إلى السقف المصفر لتعاقب دخان السجائر تحته عشرات السنين.

«أنت تحس الأشياء بسرعة زائدة، يا جو، بثقل زائد. الحب والكره والغضب والإحساس بالذنب. عليك أحياناً أن تترك هذه الأمور تمضي في حال سبيلها». قالت كورا هذا ومالت برأسها قليلاً.

«أظن أن هذا ما عادت له الآن أهمية». أحاول أن أسخر من موتي الوشيك، لكن كورا وليا لا تبتسمان لما قلت.

في اليوم الذي أعقب رؤيتي تلك المرأة في البرية، توقفت على مقربة من بادلاندز وعثرت على عمل بسيط ... أجرف الروث وأقوم ببعض الإصلاحات ... أي عمل أقل من أن أكون راعي بقر. اعتزلت الناس وعثرت على بضعة كتب في النزل حيث أقمت. كانت كتباً للويس لامور وزين غراي. بقيت هناك أكثر من سنة أقرأ تلك الكتب وأعيد قراءتها. نمت عضلات ذراعي وانتصب ظهري ولوّحت عوامل الطقس جلدي. كنت أحتفظ بما أكسبه من مال، أدّخره في مكان آمن.

وعندما ضقت ذرعاً وتعبت من تلك الأعمال، قدت السيارة حتى بلغت المحيط. محيط شديد الشبه بالمحيط الذي عرفته من قبل، لكنه شديد الاختلاف أيضاً. جبال تبدو كأنها منبثقة مباشرة من الماء. أمواج أكبر حجماً، أشد دفئاً. أعشاب بحرية بألوان قوس قزح. أشجار رطبة دائماً، فائحة برائحة الحياة. وجدت عملاً في معسكر للحطابين على مسيرة ساعات من المحيط ومن أية بلدة تجسر على أن تتخذ لنفسها اسماً. تركت شاحنتي الصغيرة في ساحة وقوف السيارات التابعة للشركة وصرت أذهب بالباص إلى المعسكر، ثلاثة أسابيع كل مرة. كنت أطهو الطعام وأنظف المراحيض مقابل مبلغ محترم. وكنت أنام على سرير ضيق في غرفة واحدة مع ثلاثة رجال آخرين. وفي الشتاء، أستخدم حذاء الثلج كي أمضي عبر الثلوج الكثيفة فأجلس في مياه الينابيع الكبريتية الحارة البعيدة عن المدنية، البعيدة إلى حد يجعلني أحياناً الشخص الوحيد هناك. أقسم أنني كنت أستطيع رؤية السماء كلها في ليالي الصحو. أستلقي على ظهري مثلما استلقيت مع روثي

في الليلة التي سبقت اختفاءها وأرقب النجوم ماضية في رحلتها الليلة. أتساءل إن كانت روثي موجودة في مكان من الأماكن، تحت تلك السماء نفسها. وذات مرة، أقمت أسبوعاً واحداً في الشتاء في كوخ من غرفة واحدة فذكّرني ذلك بالأوقات التي أمضيتها مع أبي في الغابات، ذكرني كيف كنت أتتبع أشكال الحيوانات المحفورة على الجدران وآكل خبز عمتي ليندي مع المربيات الدافئة. ومن حين إلى حين أرسل بطاقة بريدية، أرسلها من مكان جديد كل مرة، أرسلها كي تعرف ماما أنني بخير. لم أتصل أبداً ولم أسأل عن كورا. لم أرد أن أعرف شيئاً.

يفكر المرء كثيراً عندما يمضي وحده زمناً طويلاً مثلما فعلت. وكثيراً ما كانت أفكاري تذهب بي إلى أمي، إلى فداحة ما بها من أسى. لقد دفنتْ تشارلي فكانت تلك نعمة قاسية، لكنها نهاية واضحة. وأما مع روثي، فما من وضوح، ما من شيء غير مكان فارغ حيث ينبغي أن تكون طفلتها. أمضيت سنين طويلة في التساؤل عن مكان وجودها، وكيف صار شكلها، وإن كانت سعيدة ... إن كانت حية. بابا كان حزيناً أيضاً. وكنا مدركين هذا، كلنا. لكن حزنه كان أصعب تحديداً، أقل ظهوراً. كان يبقيه لصيقاً به. لم أدرك أنني ثالث طفل يرحل إلا عندما أتتني مكالمة مفاجئة من ماي، لكني كنت أشد أنانية من أن أذهب إلى موطني، من أن أكون هناك من أجلهم جميعاً.

ما أكثر أخطائي!

فعلت كل ما استطعت، لكنهم وجدوني. وجدوني مرة واحدة. شابٌّ في معسكر الحطابين؛ شاب هادئ نحيل له عينان تدمعان

من غير انقطاع أتى من بلدة قريبة من بلدتي. أخطأت عندما اتخذته صديقاً لي. أظن أن ثمة أمراً في ملاقاتك شخصاً يعرف المكان الذي أنت منه، شخصاً يعلم ما تعني عندما تقول «الوادي»،[(1)*] شخصاً يلفظ خليج «فَندي» لفظاً صحيحاً ويعلم أن موسكودوبوا اسم مكان لا عدة أحرف مجموعة كيفما اتفق.

لكنه اشتاق إلى الديار فترك العمل بعد شهرين ورحل. بعد أسبوع واحد من عودته، رُن هاتف المعسكر، فكانت المكالمة لي.

«مرحباً!؟»

«يا يسوع المسيح! ... هذا أنت!». صوت ماي يكاد يكون صراخاً.

«ماي، لا أريد أن ...»

«لا يهمني ما تريد».

«كيف حصلت على هذا الرقم؟»

«عرّج على محطة الوقود شاب نحيل قال إنه كان يعمل معك. الظاهر أنك لم تقل له إنك اختفيت وإنك تريد أن تظل مختفياً». صمتت ماي لحظة كي تلتقط أنفاسها ... «والآن، أصغِ إلي. ماما وبابا في غاية القلق عليك؛ وقد كانا هكذا طيلة السنين الأخيرة. ثماني سنين، يا جو! من يخرج ويترك أسرته مدة ثماني سنين؟ كنت محقة عندما قلت لك إنك الرجل الأشد أنانية على الإطلاق».

«يا ماي ...»

(1) * منطقة زراعية في شبه جزيرة نوفا سكوشا.

«لا! ... أنا غاضبة منك. لذا، ليس لك أن تتكلم الآن. لديك مسؤوليات، وعليك أن تعود إلى ديارك. كف عن التجول هناك في الغابات! حرّك مؤخرتك وعد إلينا!».

«لا».

ساد الصمت.

«صار لديك طفلة، يا جو. بنت. وعدت كورا بألا أخبرك، لكن، لا بد لي من شيء كي أجعلك تعود إلى عقلك».

«أنت كاذبة، يا ماي».

كنت قادراً على سماع نبض قلبي في أذني والإحساس بالعرق الذي انبجس من جبهتي. لدي طفلة ... ابنة!

«لست كاذبة. عليكَ أن تعود كي ترعى أسرتك».

«لا أستطيع، يا ماي. تعلمين ما فعلت بكورا. لا أستطيع، يا ماي. ماذا لو ...»

«ماذا لو ماذا؟»

«لا أستطيع أن أكون ذلك الرجل، يا ماي. لا أستطيع أن أكون أباً».

«إذاً، ماذا تريدين أن أقول لكورا؟ لماما ولبابا؟ وليا ... ماذا أقول لها؟»

«ليا!؟»

«إنها ابنتك، يا جو. الطفلة التي في حاجة إلى أب».

«لا أستطيع».

«أظنني سأقول لهم إن الأمر لا يهمك!».

«تعلمين أن هذا غير صحيح، يا ماي. لا تكوني هكذا. قولي لهم إنني بخير. أعيش حياة لا بأس بها».

«ماما وبابا يشيخان، يا جو. وبن يعمل بدوام كامل. وأنا لدي أطفالي الذين عليّ أن أهتم بهم أيضاً».

ماي لديها أطفال!؟ في عقلي، كانت ماي لا تزال ثابتة مثل ذلك النجم الذي في آخر ذيل كوكبة الدب الأصغر. كيف تغير العالم هكذا؟

«آسف، يا ماي! لكني لا أستطيع».

استنشقت ماي نفساً عميقاً كي تستعد لجولة أخرى فكان ذلك النفس العميق آخر ما سمعته قبل أن أعيد السماعة إلى مكانها وأسير مبتعداً عن الهاتف. يداي لا تزالان تقطران ماء، ولا تزال القدور منتظرة من يغسلها.

وبعد ثلاثة أيام، عندما أنزلنا الباص في البلدة من أجل أسبوعين من الحرية، أخذت مالي كله تقريباً ولم أترك منه إلا ما يكفيني حتى يأتي موعد الدفع التالي وأرسلته إلى البيت في واحد من تلك المغلفات الكبيرة. أرسلت معه بطاقة بريدية كتبت عليها، «من أجل ليا. آمل أن يكون هذا مفيداً!». بعد ذلك، وضعت حقيبتي الظهرية في الشاحنة الصغيرة ومعها كل ما أملك ويممت وجهي صوب الجبال.

«أنت رجل غبي، يا جو. غبي». تنهض كورا واقفة كي تتصرف. يدها على ظهرها كي تحفظ توازنها.

«أظنني كنت غبياً». أنفاسي متقطعة. أرهقني كثيراً سرد هذه

القصة. وأنا في غاية التعب، لكني أود أن أظل جالساً هنا مع كورا ومع ليا، أود أن تبقى هذه اللحظة مستمرة إلى أقصى ما يستطيع جسدي احتماله.

«لا حاجة بك إلى الظن. لقد كنتَ غبياً». تلتقط حقيبة يدها عن الأرض وتتقدم من ليا فتطبع قبلة على جبهتها ... «سأعود إلى البلدة سيراً فأنا في حاجة إلى هواء نقي. سرّتني رؤيتك، يا جو. آمل أن يكون الرب رحيماً بك. سأصلي من أجل هذا».

«شكراً، يا كورا! أشكرك على كل شيء». أومئ برأسي في اتجاه ابنتنا. تترك كورا يدها لحظة على قدمي قبل أن تخرج وتغلق الباب من خلفها.

تخرج ليا كي تأتيني بكأس ماء وقليل من البسكويت المالح من أجل معدتي.

وعندما أستيقظ بعد وقت طويل من مغيب الشمس، لكن قبل أن تصبغ الأفق بضيائها في الصباح. أجد ليا نائمة على السرير المجاور، يداها متكورتان تحت ذقنها كأنها طفلة صغيرة. وأحس ... أحس لحظة فقط ... كيف كان يمكن أن يكون الأمر لو عرفتها طفلة صغيرة.

- 12 -

نورما

لو كنتُ ابنة أفضل لانتقلت عائدة إلى بيت طفولتي بعد موت أبي. لو كنت ابنة أفضل لاعتنيت بأمي ورعيتها وبقيت بصحبتها ألعب السكرابل معها في أماسي الشتاء الطويلة وآخذها إلى مواعيدها مع الأطباء وأرافقها إلى الكنيسة صباحات يوم الأحد. لو كنت ابنة أفضل لاهتممت أكثر برؤية ما كان يحدث لأمي. لو كنت ابنة أفضل لما اكتفيت باعتبار نسيان أمي المفاجئ ناتجاً عن السن والوحدة فقط. لو كنت ابنة أفضل لفهمت ما جرى عندما وضعت أمي الحليب على الموقد كي تدفئه ثم نسيتْ أمره فاحترق الحليب وامتلأ المطبخ دخاناً.

لكني لم أكن ابنة أفضل. لم يحل شيء بيني وبين فعل ذلك، لكني كنت غير قادرة على تخيل الانتقال عائدة إلى بيت فيه ذلك الصمت كله، تلك الظلمة كلها، بيت لا تزال ستائره مسدلة تحجب ضياء النهار. بعد تلك السنين كلها، بعد عشرات السنين الفاصلة بين الطفلة الهادئة نورما والمرأة الهادئة نورما، لا أزال أحس فداحة ثقل الأطفال الذين فقدتهم أمي. وما كنت راغبة في حمل ثقلهم من جديد. كان لدي ما يخصني وحدي، ما يجذبني إلى أسفل.

كنت أتصل بها كل مساء عند الساعة السادسة وثلاثين دقيقة بعد أن تفرغ من غسل الأطباق وقبل أن تجلس إلى الطاولة الصغيرة مع كأس من الويسكي المفضل لديها ومع كتاب كلمات

متقاطعة أمامها. بدلاً من كوني ابنة جيدة صرت ابنة منتظمة، ابنة تقوم بالحد الأدنى الكافي لأن يعتبرها أي شخص يمكن أن يتابع الوضع ابنة بارّة بأمها. أقود السيارة خمساً وأربعين دقيقة من شقتي إلى بيت أمي مرة كل أسبوع، صباح كل أحد. نذهب لتناول الغداء في الخارج، وآخذها للتسوق، وأجمع القمامة وأخرج فأرميها في حاويةٍ في الممر الذي أمام البيت. زجاجات الويسكي كانت لا تزال مخبأة في قعر حقيبة التسوق، لكن عددها تناقص الآن بعد رحيل أبي. كنت أجز العشب في الصيف وأجرف الثلج من الممر في الشتاء. وكنت أستخدم مالها كي أدفع أجر من يجرف الثلج في الحالات الطارئة عندما لا أتمكن من جرفه بنفسي. يتسارع الزمن مع تقدم السن بك كأن الكون يحاول دفعك صوب خط النهاية، كأنه يحاول جعلك تفسح متسعاً لمن هم أصغر منك وأقوى منك، كأنه يحاول جعلك تسجل حضورك الوجيز في التاريخ... ثم تمضي. عيد الميلاد العاشر بعد موت أبي جاء في غمضة عين. وكنت أمضي ليلتي عندها مثلما أفعل في عيد الميلاد من كل سنة. ستأتي خالتي جون صباح اليوم التالي. كل سنة، تذهب خالتي جون مع أليس إلى سهرة عيد الميلاد نفسها. لذلك، كنت الوحيدة مع أمي. كانت ليلة باردة. طبقة كثيفة من ثلج رطب تساقط قبل عدة أيام من ذلك، ثم انخفضت درجات الحرارة كثيراً فتجمد سطح الثلج. كان ضياءٌ أصفر واهن آتٍ من مصباح الشارع يتألق منعكساً على قشرة الثلج اللامعة ومعه ألوان فرحة من أضواء عيد الميلاد في بيت الجيران. يكون الضوء أشد حيوية في البرد كأنه يعلم أن الناس

محبوسون في بيوتهم، بائسون لقلة ضياء الشمس ... كأنه يعلم أن عليه أن يؤدي أمامهم عرضاً يبهجهم، عرضاً لعله يكون بديلاً عن الدفء. فتحت الستائر بعد أن آوت أمي إلى فراشها ونظرت معجبة إلى أضواء شجرة عيد الميلاد في ظلمة الليل. جلست في ذلك الهدوء ولا شيء يرافقني غير طقطقات صادرة عن جدران البيت الخشبية. ضيّقت عيني كي أرى أضواء الشجرة غائمة مثلما كنت أفعل في طفولتي. وعندما أرغمتني حاجتي إلى النوم على الذهاب إلى الفراش، تركت المصابيح مضاءة. شجرة عيد الميلاد من غير مصابيح تجعلني حزينة. لم أطق إطفاءها.

عندما أيقظني شيء لم أعلمه من نوم عميق لا أحلام فيه، قالت لي الأرقام الكبيرة الحمراء إن الساعة قد بلغت الثالثة وأربع عشرة دقيقة بعد منتصف الليل. جلست في فراشي وأصغيت، لكن العالم كان هادئاً. ظلمة وصمت تام يأتيان عندما يستريح العالم. بدأت أغفو من جديد. الوسائد تحت رأسي. لكن صوتاً عالياً جعلني أقفز من السرير وأضع قدمي في شبشبي البيتي.

«أمي!». سرت في الممر قاصدة غرفتها، لكني وجدتها خالية. المصباح الذي إلى جانب السرير كان مضاءً، لكني رأيته مقلوباً، ساقطاً على الأرض، ظُلّته المائلة ملقية ظلالاً غريبة على الجدران.

«أمي!». جريت في الممر غير عارفة أين أذهب. لمحتها في الضوء المنبعث من شجرة عيد الميلاد. كانت واقفة في الخارج، في البرد، غير مرتدية شيئاً غير قميص نومها الخفيف. ظهرها منحنٍ وهي تمد يدها داخل الثلج مرة بعد مرة. كانت قد تركت

بـاب البيـت مفتوحـاً، البـاب الـذي لا يسـتخدم إلا نـادراً، وكان البـرد يتدفـق داخـلاً.

«أمـي، مـاذا تفعلين؟»

أجفلت ونظـرت إلـي. عيناهـا مدوّرتـان، دامعتـان، وجلدهـا متـورد لشـدة البـرد. كانـت يداهـا وقدماهـا مـن غيـر شـيء يقيهمـا هـواء الشـتاء.

«أوه، نورمـا، جيـد. سـاعديني فـي العثـور عليـه». انحنـت مـن جديـد وراحـت تغـرف الثلـج بيدهـا وتقـذف بـه فـي الهـواء.

«الطقـس شـديد البـرودة وأنـت فـي قميـص النـوم. ادخلـي البيـت!». حاولـت أن أمسـكها مـن كتفيهـا كـي أقودهـا صـوب البيـت لكنهـا تفلتـت منـي وانحنـت كـي تواصـل البحـث فـي الثلـج.

«لا بد لي من العثور عليه وإلا فسوف يغضب والدك مني».

توقفـت فـي مكانـي لأن ثقـل جسـدي حطـم قشـرة الجليـد فغاصـت قدمـي بالشبشـب فـي الثلـج البـارد تحـت تلـك القشـرة.

«تعثرين على ماذا؟»

«خاتـم زفافـي. أضعتـه ولا أسـتطيع العثـور عليـه. أعلـم أنـه فـي الخـارج، هنـا، فـي مـكان مـن الأماكـن. كنـت أغـرس شـتلات الزهـور عندمـا رأيتـه آخـر مـرة. سيعود والـدك عمـا قريـب؛ وأنـا لا أريـد أن يظننـي امـرأة شـاردة الذهـن». ابتعـدت عنـي ومضـت قدمـاً صـوب حديقـة البيـت. وقفـت حائـرة وصـوت تكسـر الثلـج المتجمـد وفرقعتـه يتـردد فـي أذنـي.

«أمـي!». استنشـقت نفسـاً عميقـاً وسـرت فـي اتجاههـا. «أبـي مـات. وأنـت أضعـت خاتمـك منـذ ثلاثيـن سـنة. لقـد اشـترى لـك

خاتماً غيره، ألا تتذكرين». أمسكت يدها وجعلتها ترى الخاتم، ذلك الخاتم الذي نادراً ما تخلعه من إصبعها حتى في نومها، حتى عندما تغسل الأطباق أو تعمل في الحديقة. بعد ضياع الخاتم الأول، صارت شديدة الانتباه فلا تخلع الخاتم إلا مرة في الشهر ... تخلعه في متجر المجوهرات من أجل تنظيفه. لا تغادر المتجر أثناء تنظيف الخاتم وتنتظر على الدوام صابرة إلى أن يعود إلى إصبعها.

نظرتُ إلى يدها في ذلك الضوء الخافت. يداها الاثنتان كانتا باردتين، محمرتين، متيبستين من البحث في الثلج. قدماها العاريتان غارقتان عميقاً في الثلج. وما إن زال عنها الذعر، ذعر التفتيش عن الخاتم، حتى صار لا بد لي من مساعدتها كي تستطيع رفع قدميها والسير إلى الداخل. لم أدر إن كانت عارفة أن دماغها بدأ يخذلها ويضيّع كل ما بذلتْ من جهد في بنائه على امتداد خمس وسبعين سنة، بدأ يسرق أبي منها، يسرقه مرة ثانية. إن كانت عارفة ذلك، فهي لم تسمح قبل تلك الليلة بأن يدخل أحد إلى عالمها، عالم التشوش والذكريات الضائعة.

سرت بها إلى غرفتها وأجلستها على كرسي طاولة الزينة، ثم أعددت لها الحمام كي تدفئها حرارته. لم أدر إن كان علي أن ألومها أم أطيب خاطرها، أن أمسك يدها وهي تحاول التذكر أم ألومها لأن تصرفها كان غبياً. بدلاً من ذلك كله، ساعدتها في خلع ملابسها وكدت أبكي عندما طوت ذراعيها على صدرها كي تخفيه عني واكتسى وجهها مظهر الحرج. أدركت من جديد أنني أحبها، وأدركت أن اكتفائي بأن أكون «ابنة بارة» فيه قلة احترام

للحياة التي وهبتني إياها.

«أمي، أعطني يدك! سوف أساعدك في الذهاب إلى الحمام». قبلتْ ذلك على استحياء فساعدتها في الجلوس في الماء الدافئ. «سأذهب كي أعد لنا شاياً. ما عليك إلا أن تجلسي هنا وتسترخي. هل اتفقنا؟». وضعت يدي تحت ذقنها وجعلتها تحوّل عينيها عن الماء المتقطر من الحنفية ... «هل اتفقنا؟».

«لا بأس. سأظل هنا». كان صوتها شبه هامس. بدت لي في غاية الضآلة. وددت أن أدخل حوض الاستحمام معها، أن أضمها بين ذراعي وأدفئها بنفسي. وددت أن أضم يديها بين يدي إلى أن يعود إليهما لونهما الحقيقي. بدلاً من ذلك، أعددت الشاي مع مقدار زائد من الحليب والسكر. جلست على كرسي الحمام، في حين كانت أمي تدندن أناشيد عيد الميلاد وترشف من فنجانها. هممت بأن أمد يدي وأفتح الصنبور كي أزيد الماء دفئاً، لكني رأيت بقعاً حمراء على جلدها. ارتعش جسدها. صارت قدماها ويداها وردية اللون، ثم صارت بيضاء. طلبت منها أن تحرك أصابع قدميها ففعلت مثلما قلت لها. فرغت من تناول شايها فساعدتها في تجفيف جسدها وارتداء قميص نوم نظيفاً، ثم عدت بها إلى سريرها.

تلك الليلة، نمت مع أمي في سريرها. تكوّرت على نفسي في الموضع الخالي الذي كان يشغله أبي. شممت رائحة الصابون وتذكرت ذراعها المبسوطة فوقي وشخيرها الخافت، تذكرت كلماتها الهادئة اللطيفة عندما كنت صغيرة. تذكرت قولها لي بصوت كالهديل، «ما كان هذا إلا حلماً. أمك الآن معك». تلك

الليلة، أحسست أنني أحب أمي حباً شديداً ... شيء أبذل الآن جهدي كله كي أستعيده.

بالنسبة إلى شخص مثلي، شخص غير وثيق الصلة بالإيمان الديني، يبدو لي أنني مثقلة بقدر من الإحساس بالذنب مبالغٍ فيه. أجّرت شقتي وانتقلت عائدة إلى بيت طفولتي، ذلك البيت الذي عاهدت نفسي على أنني لن أعود إليه. حملت آخر واحدة من حقائبي التي كانت في السيارة، وأحسست ثقلاً ينيخ عليّ بكلكله. ثقل جعل كتفاي تتهدلان وظهري ينحني. ثقل جعلني شبه عاجزة عن التنفس.

«البؤس يأتي ثلاثاً». كانت أمي تقول هذا وتحصي على أصابعها ثلاث حوادث مؤسفة ثم تقول إن العالم قد صحح نفسه بنفسه بعد أن وقعت الحادثة الثالثة وصارت من الماضي. طفلٌ ضاع، وحادثة سرقة في جمعية محلية، وموت قطة جارتنا ... حوادث ثلاث تحتل المكانة نفسها في نظرها فتكون كل واحدة منها شعبة من شعب الثلاثي المأساوي. عندما ماتت أليس أثناء نومها بعد وقت قصير من تشخيص حالة أمي الصحية، رحت أحصي على أصابعي: اثنتان. خشيت مما قد تكونه المأساة الثالثة.

كانت أليس قد ذهبت كي تنام. وأثناء رقادها، فاض الدم في دماغها فتجاوز الشطآن وأودى بها. قالت خالتي جون في غمرة نشيجها في الهاتف إن ذلك كان انفجار أوعية دموية. وهكذا، وضعتُ أمي في السيارة وانطلقنا قاصدين بوسطن. كنت أحب أليس، أحبها أكثر مما كنت مدركة قبل تلك المكالمة الهاتفية.

لقد كانت منقذتي، كانت دائماً على الهاتف معي عندما أحتاج إليها. كانت الرباط الذي يشد خالتي جون إلى العالم فلم أدر ما ستفعله خالتي جون الآن. صليت كي لا تتهاوى بدورها وتتركني. لن أقبل أن تصير خالتي جون شعبة البؤس الثالثة.

كانت جنازة أليس صغيرة، وكانت عذبة. حضرها بضعة أقارب، لكن أكثر المشاركين كانوا أصدقاء قدامى لأليس وخالتي جون. وبعد الجنازة، دعي الجميع إلى بار كاريوكي ... مكانٌ كانت أليس وخالتي جون تمضيان فيه الوقت. لم أستطع تخيل ذلك؛ وكنت مستاءة من خالتي جون لأنها أخفت عني هذا الجانب من نفسها. كانت تحب المرح دائماً لكن ... ليس مرح الكاريوكي الثمل! لا أحب معرفة أمور جديدة عن أشخاص أحبهم بعد رحيلهم؛ لكن الظاهر أن الأمر يكون هكذا. تناولنا مأكولات مقلية وشربنا البيرة وتحدثنا عن أليس.

قالت امرأة طويلة القامة وهي تمسح دمعة سالت على خدها، «أعرفها منذ زمن بعيد إلى حد لا أستطيع معه تذكر وقت لم نكن فيه معاً». عانقتها خالتي جون.

«التقيتها عندما ذهبنا إلى بوسطن أول مرة. كنا في صف اللغة الإنجليزية نفسه في الجامعة». قالت خالتي جون هذا بصوت مرتعش ... «والبقية، مثلما يقولون، هي قصتها». ضحك الآخرون بصوت منخفض ... «لا بأس! كفانا كآبة! سوف يضايقها هذا. أليس لم تكن تغضب أبداً، لكنها ستنزعج منا إن رأتنا على هذه الحال. فلنغنّ!».

صعدت خالتي جون إلى المنصة وأمسكت المايكروفون. شخص غير ظاهر أضاء مصابيح المنصة فغمرتها أضواء نيون وردية. وبعد لحظة، راحت خالتي جون تتمايل وتغني أغنية «في زرقة المساء». خانها صوتها قبيل انتهاء الأغنية فصفق لها الجميع. نفخت أمي مستاءة وتوترت أصابعها المحيطة بكأس الويسكي.

«كانوا قد وضعوا هذه الأغنية عندما تناولنا البيرة معاً أول مرة. صرنا نغنيها دائماً، هذه الأغنية». ظلت خالتي جون واقفة وحدها تحت الضوء الوردي إلى أن أخذ ليونارد بيدها وساعدها في النزول عن المنصة قبل أن يعود ويمسك بالمايكروفون.

«من أجل أليس. كانت قادرة دائماً على فهم مشكلتي الكبيرة». رفع ليونارد كأسه قبل أن ينطلق في أداء حماسي نشاز لأغنية «لا أستطيع بلوغ الرضا»، فضحك الجميع. كانت رؤيتهم مبتسمين أمراً لطيفاً، رؤيتهم ماضين في الغناء يرفعون كؤوسهم ويقرعونها. «نخب أليس».

أشخاص كثيرون غنوا أغنيات كثيرة؛ وكان كل واحد منهم يسبق أغنيته بذكرى يرويها عن أليس. في ساعة واحدة، علمت عن أليس وعن خالتي جون أكثر مما علمت خلال أربعين سنة مضت.

وأما أمي فقد كانت جالسة في مقصورة عند الزاوية، مسترخية في جلستها ويداها الاثنتان محيطتان بكأسها ... تنظر إلى الجميع. وعندما وقع الأمر، كان مفاجئاً جداً فلم تسنح لي فرصة إبداء أية ردة فعل كي أحاول إيقاف انفجارها.

«تعلمـون أنهـا كانـت معتوهـة». صاحـت أمـي مـن مقصورتهـا وضربت بكأسـها علـى الطاولـة محاولـة أن تنهـض واقفـة ... «لست أدري سـبباً لوجـودي هنـا. أعـرف تلـك المـرأة». أشـارت إلـى صـورة أليـس الكبيـرة التـي كانـت موضوعـة إلـى جانـب جـرة الرمـاد أثنـاء الجنـازة. صاحـت بخالتـي جـون، «وأنـت معتوهـة أيضـاً. لقـد أخذْتُكِ منـي وجعلتـك معتوهـة مثلهـا». حاولتْ الخـروج مـن مقصورتهـا لكنهـا تعثـرت وسـقطت علـى الأرض. راحـت تطلـق شـتائم فاحشـة، كلمـات لـم أتخيـل يومـاً أن أمـي تعرفهـا. سـاد الصمـت الصالـة كلهـا ومـا عـاد فيهـا مـن صـوت غيـر أزيـز آلـة الكاريوكـي وصـوت أمـي تشـتم وتتلعثـم. ظهـر الزبـد عنـد زاويتـي فمهـا وهـي منبطحـة علـى بطنهـا علـى تلـك الأرض الدبقـة. أسـرعت إليهـا فحملتهـا مـن تحـت إبطيهـا وأنهضتهـا، ثـم سـقتها فخرجنـا مـن البـاب وهـي تصيـح طيلـة الوقـت. التفـت ونظـرت إلـى خالتـي جـون فرأيتهـا باكيـة. رأيـت واحـدة مـن صديقاتهـا تمسـك يدهـا وواحـدة أخـرى تضـع ذراعهـا علـى كتفيهـا. كان الإحسـاس بالخـذلان ظاهـراً علـى وجههـا. لقـد كتمتْ سـر أختهـا فجازتهـا أمـي أقسـى جـزاء.

قاومتنـي أمـي طيلـة الطريـق إلـى مركـز الإسـعاف، ثـم صفعتْ ممرضـة حاولـت مسـاعدتها. وددت أن أصيـح بهـا غاضبـة كـي تكـف عـن هـذا السـلوك، لكنـي اكتفيـت بمسـاعدتهم فـي تثبيتهـا فـي مكانهـا بينمـا كانـت ممرضـة أخـرى تعطيهـا شـيئاً يهدئهـا. جرحـت ذراعهـا عندمـا سـقطت، وظهـرت كدمـة علـى جانـب وجههـا الأيسـر. صـارت عينهـا حمـراء كالـدم. ضمـدت الممرضـة جرحهـا، ثـم سـاعدني واحـد مـن العامليـن فـي إجلاسـها فـي السـيارة. وضعـت سـترتي علـى زجـاج

النافذة وأسندت رأس أمي إليها كي تستطيع أن تجلس مرتاحة.

وفي صباح يوم الأحد بعد أسبوع من ذلك، أوصلت أمي إلى الكنيسة حيث أعلم أن ثمة أشخاصاً أستطيع الثقة بأنهم يعرفون كيف يهدئونها ويحفظون سلامتها. ثم زرت بيت «ظلال السنديان» للمتقاعدين ... اسم لطيف لمكان هو، من حيث الجوهر، سجن للمحتضرين. ضغطت مفتاح الجرس المطاطي الصغير فتردد في الممر صوت رنين مخيف. وخلف الباب الزجاجي الثخين، أطلت ممرضة برأسها من زاوية مكتبها وانبعث صوت الرنين نفسه مع قعقعة أقفال معدنية. أدخلتني الممرضة. كان ضوء مصابيح النيون خافتاً والهواء مشبعاً بروائح البول والمواد المعقمة. كان الممر مطلياً بلون أصفر. لوحات مائية قديمة معلقة على الجدران وقد تثنّت حوافها وصارت ناتئة من عند زوايا إطاراتها. صرّ حذائي على أرضية اللينوليوم الباردة. في وسعي افتراض أن مالكي هذا المكان غير معنيين بالديكور لأن النزلاء ليسوا قادرين على تذكره من يوم إلى اليوم الذي يليه. كان المكان عابقاً بالحزن، ثم ازداد الأمر سوءاً مع تقدمي في ذلك الممر. أول شخص رأيته كان رجلاً عجوزاً مسترخياً في كرسي ذي عجلات، نائماً أو غير واعٍ، وذراعاه مربوطتان إلى كرسيه. توقفت ونظرت إليه.

قالت لي الممرضة، «هذا تدبير وقائي. إرنست يضرب الآخرين. لا تقلقي! حصلنا على موافقة أسرته؛ وهذه قيود ناعمة». كدت أستدير كي أخرج، لكنها أمسكتني من يدي. «أعلم مدى صعوبة هذا الأمر، لكننا نحترم نزلاءنا ونحرص على حسن حالهم. أؤكد لك هذا».

كان تصديقها صعباً علي عند وقوفي إلى جوار ذلك الرجل العجوز الذي يشخر مرة ويشهق مرة. سمعت صوت امرأة تغني أغانٍ فلوكلورية قديمة. كان صوتها آتٍ من مكان في آخر الممر، توقفت واستمعت. كسر غناؤها قلبي.

***

«خالتي جون، لا أعلم ما أفعل». كنت أبكي وأنا أكلمها بالهاتف. مسحت أنفي بمنديل.

«أصغ إلي، يا نورما! هم قادرون على رعايتها. هذا ما يتعين عليك فعله».

«لكنها جعلتني أعدها». نشقت بأنفي ووضعت سماعة الهاتف على الطاولة كي أتمخط ... «يا إلهي! ليتني كنت قادرة على الكلام مع أليس».

«وأنا أيضاً، وأنا أيضاً».

قبل بضع سنين، بعد يوم واحد من تشخيص وضعها الصحي، جلست أمي إلى طاولة المطبخ قبالتي عند خروجها من غرفتها التي أطالت بقاءها فيها. فنجان قهوة في يدها وتجهم في وجهها. «عديني بأنك لن ترغميني على الإقامة في واحد من تلك الأماكن حيث يجعلونك تضعين الحفاضات ويقفلون عليك الباب كي لا تخرجي». خوف حقيقي ظاهر في تموجات صوتها ... «يتركونك هناك جالسة وسط قاذوراتك». صمتت كي تستطيع تمالك نفسها، كي تتناول رشفة من قهوتها ... «سوف تنسين أمري إن كنتُ في واحد من تلك الأماكن».

مددت يدي من فوق الطاولة ووضعتها على يدها ... ووعدتها.

قالت خالتي جون، «نورما ... حبيبتي ... لا أريد أن أبدو قاسية، لكنها لن تتذكر شيئاً. تجد صعوبة في تذكر أن والدك قد مات. وأنا أحب شقيقتي، يعلم الرب أنني أحبها، لكنها كانت على الدوام أنانية قليلاً. كيف تجعلك تعدينها بأمر من هذا القبيل؟ هذه أنانية. ينبغي أن تعيشي حياتك، أنت أيضاً».

يوم أخذت أمي إلى ذلك المكان، التقتنا جانيت، صديقتي منذ عهد بعيد؛ وكان لقاؤنا عند بوابة «ظلال السنديان». عانقتني جانيت، عانقتني بقوة كأنها تعتصر مني الحياة وتعتصر مني دموعي. كانت أمي تمضي نهاراً طيباً، وقد بكت عندما تركتها.

«نورما، يا حبيبتي ... أين أنت ذاهبة؟ انتظريني!». كانت قد ارتدت ثوبها البيتي، وكانت قدماها في شبشبها. أخذوا ملابسها لحفظها ووضعوا صورتها على الطاولة الصغيرة إلى جانب السرير.

«ماما، أنا الآن ذاهبة إلى البيت. وأنت باقية هنا. ألا تتذكرين هذا؟». كان نبض قلبي سريعاً، كان عنيفاً في أذنيّ.

«صحيح، أجل. أتذكر. أنا باقية هنا كي أسترخي، وسوف تعودين غداً لأخذي. نعم، أتذكر الآن».

«لا، يا أمي. أنت الآن تعيشين هنا».

دخلت جانيت آتية بالشاي والبسكويت. وضعت ذلك كله على الطاولة الصغيرة إلى جوار كرسيها. ضحكت أمي، أطلقت ضحكة صغيرة متوترة. «نورما ... لماذا أعيش هنا مع أن بيتي جديد جداً. أستطيع العيش فيه؟»

«يا أمي، لقد تكلمنا في هذا الأمر. لم يعد عيشك هناك آمناً بالنسبة إليك».

نظرت إلى فنجان الشاي وتابعت عيناها خط البخار المتصاعد منه إلى أن لاقت عيني. تدلت زاويتا فمها، واغرورقت عيناها، ثم أومأت برأسها بطيئاً. «إذاً، لا بأس، يا نورما. لا بأس». تناولت رشفة من فنجانها وتظاهرتُ بأننا لا نستطيع رؤية دموعها.

كان لا بد لي من الخروج من ذلك المكان.

«سأعود دائماً كي أزورك. سوف يهتمون بك اهتماماً كبيراً. أعدك أيضاً بأنني سآتي بخالتي جون كي تزورك». غمغمت بهذه الكلمات في محاولة فاشلة لمنع دموعي من الانسياب من عينيّ. قبلتها على جبهتها، ثم استدرت كي أنصرف. تركتها جالسة على كرسي إلى جوار سريرها، شايها لا يزال دافئاً وبطانية صغيرة صنعتها بنفسها ضمن تلك المجموعة في الكنيسة مبسوطةٌ على كتفيها. ومنشفة صغيرة مطوية في حضنها ... شيء يراد منه إبقاء يديها منشغلتين.

صوت الأقفال المعدني، ورنين الجرس. خرجت وتركت أمي. جلست في سيارتي وبكيت إلى أن أحرقتني عيناي.

ملأ الممر صوت سيدة عجوز تغني «طريق طويلة إلى تيبيراري». كانت جالسة على واحدة من الكراسي التي في الممر؛ وكانت أيدي بعض الناس المارين بها تمتد إلى يدها الباردة النحيلة وتمسك بها. وبدوري، أمسكت يدها لحظة. كانت غرفة أمي في آخر الممر فتسارعت خطواتي. أزورها في مواعيد منتظمة، لكني تلقيت مكالمة هاتفية أتتني يوم أمس. أمي

التي هي أشد من عرفتهم هدوءاً وأكثرهم وقاراً بدأت تصرخ بكلام أكثره غير مفهوم، بكلام تتخلله شتائم مقذعة. وقد بدأت أيضاً تصير عنيفة. ازدادت ذاكرتها ضعفاً وصارت أشد خوفاً من الأشخاص الغرباء الذين يقتربون منها. يوم أمس، حسبت نفسها طفلة وظنت أن الممرضات تحاولن اختطافها فقاومتهن. دخلتُ غرفتها من غير صوت فوجدتها نائمة. ذراعاها الواهيتان بارزتان من تحت البطانية. رأيت عليهما بقعاً سوداء وزرقاء، آثار أيدي الممرضات اللواتي اضطررن إلى تثبيتها. جلست إلى جانب سريرها الضيق ومررت على تلك الكدمات بأصابعي. كان جلدها ناعماً، ورقياً. استيقظت ونظرت إلي. حزن في عينيها الضئيلتين. حاولتْ الجلوس، لكني أعدتها إلى الاضطجاع على وسادتها.

«أنا ... إن هناك ابنتي، نورما ... سوف تعلم ... أنا غير قادرة على التفكير الواضح. لقد وضعوا شيئاً في طعامي». كانت تحاول العثور على الكلمات لكن الكلمات بدت كأنها محبوسة في مكان من الأماكن. تسرَّب بعضُ تلك الكلمات، لكنها غير الكلمات التي أرادتها. بدأت تبكي.

«ضربوني على رأسي. ضربوني على رأسي وأخذوا الكلمات مني. ضربوني وأخذوا كلماتي وذكرياتي». انقلبت على جانبها وأدارت رأسها صوب الجدار. وللمرة الثالثة في حياتي، استلقيت في الفراش مع أمي. دسست رأسي في رقبتها، أنفاسي تواكب أنفاسها، ورحنا نبكي معاً.

«ششششش .... هذا حلم فحسب. أنا هنا، يا أمي. هذا ليس إلا حلماً».

فككت نفسي عنها قبل أن تغفو فهمست لي، «احرصي على إخبار نورما بما فعلوه بي. سوف تتولى أمرهم». ضمن إطار إلى جوار السرير، كانت معلقة صورة لي في سن الثامنة. كانت هناك أيضاً صورة لها مع أبي يوم زفافهما. صورة بالأبيض والأسود، لكني أبصرت فيها زرقة فستانها والخرزات اللامعة الصغيرة المخيطة إلى حاشية الفستان السفلى على شكل أزهار زرقاء. طيلة حياتي، كنت أرى هذا الفستان معلقاً في الخزانة. لم يلبسه أحد. حاولت استخدامه يوم زفافي، لكنها لم تقبل. كان ينبغي أن أرتدي فستاناً جديداً، ينبغي أن يكون لي أفضل فستان. جلست على طرف السرير أرقب كتفيها تعلوان وتهبطان على إيقاع نومها. قبّلتها على قمة رأسها حيث صار الشعر خفيفاً إلى حد بان معه جلد جمجمتها الوردي، ثم تركتها. ما عدت أبكي من أجل أبي وأمي. أشتاق إليهما، نعم، لكني أظن أننا نبدأ انفصالنا عمن نحبهم عندما يكبرون مثلما ينفصل الزيت عن الماء ... خط فاصل بين الأحياء والمحتضرين، والأحياء يتجمعون في الأعلى من غيرما اكتراث. عندما مات أبي، كان الأسى شديد القرب من السطح، وما كنت مستعدة له. ما كان عندي وقت لأن أستعد لعالم من غير أبي. وبعد موته وموت أليس، صارت عائلتنا التي هي في الأصل صغيرة مقتصرة على ثلاثة أشخاص. ثم بدأت أمي تختفي بطيئاً. بدأنا، أنا وخالتي جون، نصير سريعاً عائلة مكونة من شخصين فقط.

كان ذلك يوم سبت من شهر مايو بعد نحو خمسة شهور من جنازة أليس. وكانت خالتي جون آتية كي تزور أمي. لم ترها

في ذلك المكان، لم ترها فيه بعد. أظنها كانت محتاجة إلى ذلك الزمن كله كي تسامحها. لكنها باعت مبنى الشقق السكنية لليونارد مقابل دولار واحد وانتقلت للعيش في البيت المبني من حجارة بنية، ذلك البيت الذي تركته لها أليس في وصيتها. وبعد ذلك، أحسست أنها صارت على قدر من القوة النفسية كافٍ لهذه الزيارة. كنت أحسدهما على ما بينهما من حب أخوي وكيف تستطيعان أن تتشاجرا وأن تصرخ كل منهما في وجه الأخرى وتقول لها كلمات جارحة ثم تلتقيان في عيد الميلاد التالي وكأن شيئاً من ذلك كله لم يحدث. كان لدي إحساس دائم يقول لي إنني محرومة من الحب الأخوي الحقيقي، من الحب الأخوي غير المفلتر، غير المشروط.

استقبلتُ خالتي جون في محطة القطار في الساعة العاشرة وثلاثين دقيقة. وعند نزولها من القطار مد شاب يده كي يساعدها فرفضت الاستناد إلى يده الممدودة. على الرغم من سنواتها الاثنتين والثمانين، لا تزال خالتي ممتلكة تلك الطاقة. كانت مصدر راحة حتى في الحزن والأسى. توقفنا في ساحة وقوف السيارات أمام المأوى وحاولت أن أشرح لها ما ينبغي أن تتوقع رؤيته، لكنها ربتت على ذراعي فأسكتتني.

«لا بأس! أنا امرأة عجوز. أعلم كيف تكون هذه الأمور».

لم تكن أمي حزينة ذلك اليوم؛ ولم تكن سعيدة. كانت هناك فحسب، نظراتها متجهة صوب شيء فوق كتفي. حاولت خالتي جون أن تكلمها، أن تستعيد معها بعض الذكريات، لكن أمي نظرت إليها بعينين لا تعبير فيهما، وابتسمت لها.

نهضت كي أجلب لنا قهوة. وعند عودتي إلى الغرفة، سمعت صوت أمي قبل أن أدخل الباب.

«جون ... هل تتذكرين يوم حصلنا عليها؟ كانت صغيرة جداً، صموتاً جداً». أسندت أمي رأسها إلى ظهر كرسيها كي تواجه خالتي جون التي ابيضّ وجهها كأنه صار وجه شبح.

«لا شك عندي في أنني لا أعلم ما تتحدثين عنه، يا لينور. هل عدت تحلمين؟»

كل ما هو مزعج في هذه العائلة يكون دائماً نتيجة حلم من الأحلام! تراجعت إلى الخلف خطوة كي لا ترياني.

«آه، يا جون. أنت تتذكرين. كانت ضئيلة جداً، عذبة جداً. بل إنها لم تبك عندما وضعتها في مقعد السيارة الخلفي».

سمعت سعال خالتي جون. دخلت الغرفة وقدمت إليهما القهوة.

«خالتي جون ... ما هذا الذي تقوله أمي؟»

ظلت خالتي جون واقفة، ظهرها إلي. ظلت لحظة طويلة من غير أن تقول شيئاً.

«خالتي جون!؟»

«آه، تعرفين كيف تعمل عقولهم. إنها مشوشة. سوف آتي بآيس كريم من ذلك البراد الصغير. لينور، هل تريدين آيس كريم؟»

أومأت أمي برأسها فخرجت خالتي جون من الغرفة متجاوزة إياي. نظرت أمي إلي وابتسمت.

«أنت تشبهين نورما كثيراً. إنها ابنتي. لم تعد تأتي كي تزورني». تدحرجت دمعة في نهر الغضون الجاف.

«هذه أنا، يا أمي. نورما. أنا هنا». وضعت قهوتي على الطاولة

الصغيرة إلى جوارها وأمسكت يدها، لكنها أسندت رأسها إلى الكرسي من جديد وأغمضت عينيها. لم تكن خالتي جون قد عادت إلى الغرفة فتركتُ الأمر كله ... جمعت حوائجي وانصرفت. من الأفضل أن أتركها عندما تنام.

وجدت خالتي جون جالسة إلى طاولة نزهات صغيرة في الخارج تأكل قطعة آيس كريم بالبرتقال. لم أر فنجان قهوتها. انفتح الباب الأوتوماتيكي. الحرارة في الخارج جعلت التنفس صعباً. جلست إلى الناحية الأخرى من طاولة النزهات فناولتني خالتي قطعة الآيس كريم الأخرى التي كانت من أجل أمي. أخذتها منها. كانت حلوة المذاق، وقد بدأت تذوب.

«اللعنة على أمك!».

لم أقل شيئاً. انتظرنا معاً أن تعثر على الكلمات التي تبحث عنها. «اللعنة عليها. تتركني كي أفعل هذا. اللعنة على والدك أيضاً. كان على الدوام مفرط التساهل معها. كان يتنازل أمامها كل مرة. يتنازل كل مرة ملعونة، كل مرة». نظرت من فوق كتفي في اتجاه الحقول الخالية في البعيد. «أظنني كنت أتمنى الموت قبل أن أجد نفسي مضطرة إلى أن أقول لك هذا».

قلت، «أنا طفلة متبناة». نظرتْ إلي وبانت الدهشة في وجهها.

تابعت أقول، «لا تقلقي، يا خالتي جون. أدركتُ هذا منذ زمن بعيد جداً. شحمات آذانهما ملتصقة برأسيهما. شحمتا أذني ليستا ملتصقتين. وما من جد إيطالي بين أسلافي». رفعت يدي إلى شحمة أذني وتناولت لقمة أخرى من الآيس كريم.

قالت لي، «متبناة! هل اكتشفت أنهما ليسا والديك؟»

«بالضبط».

«تبدين شديدة الهدوء في هذا الشأن».

«اكتشفته منذ عشرات السنين، يا خالتي جون. كان لدي وقت كافٍ كي أتقبل الأمر». غمزت لها بعيني، لكنها لم تبتسم.

«ألم ترغبي أبداً في العثور على أبيك وأمك؟»

«لا. أظن أنهما تخليا عني. ولعل من الأفضل أن أترك الأمر كي يظل الماضي في الماضي. ثم إن أبي وأمي كانا طيبين معي، معظم الوقت. بعد موت أبي ومرض أمي توصلت إلى فهم مريح لهما. كانا شديدي الحرص علي ... دائمي القلق. يسيران كأن تحت أقدامهما جليد يتكسر. بعدهما العاطفي عني كان نتيجة خوفهما، خوفهما أن يخسراني. هذا أمر أدركه الآن».

«الحقيقة ... ثمة أمر». راحت خالتي جون تعبث بعود الآيس كريم الذي لم يبق عليه شيء، راحت تدخله بين القضبان الخشبية على سطح طاولة النزهات، ثم تدخله من جديد. «الحقيقة أنك لم تكوني متبناة فعلاً».

بقيت صامتة. أحسست حرارة الشمس في ازدياد. ما كان ممكناً لأي شيء أن يُهيئني لسماع ما أتى بعد ذلك.

«وقعت مشادة بين أبيك وأمك فذهبت في جولة بالسيارة كي يصفى ذهنها. عليك أن تدركي حقيقة أن أمك كانت دائمة الرغبة في أن تصير أماً وأن الإجهاضات المتكررة كان لها أثر كبير عليها. كان الأمر مؤلماً لكل منهما». توقفت لحظة ثم تابعت، «كانت تقود السيارة في الطرق الفرعية وتبكي. لم تكن في حالة ذهنية سليمة. ثم رأتك، رأتك جالسة وحدك على صخرة تأكلين

سندويتشاً».

رفعت رأسها أخيراً ونظرت في عيني.

«ماذا تعنين بأنها رأتني؟»

«رأتك وحيدة هناك. وفي ذهنها ... تذكري مقدار أساها على آخر جنين فقدته ... في ذهنها كنت طفلة متروكة، مهجورة. أوقفت السيارة وعرضت عليك علكة ومكاناً ظليلاً في مقعد سيارتها الخلفي كي لا تظلي تحت الشمس. وأنت ... كنت هادئة جداً، كنت شديدة الثقة بالآخرين». تدافعت الأفكار في رأسي، وأحسست غصة في حلقي. الغضب والحيرة تشابكا فصارا مثل كرة في معدتي. جفّ فمي.

«هل تقولين لي إن أمي اختطفتني؟»

ظلت خالتي صامتة.

«خالتي جون، تكلمي، بحق الجحيم!».

أنا لا أغضب بسهولة، ولا أتكلم بهذه الطريقة عادة. أجفلت خالتي جون عندما سمعتني. لم تقل شيئاً. اكتفت بأن أومأت برأسها ومدت يدها من فوق الطاولة كي تمسك يدي. أبعدت يدي.

«اللعنة على أمك لأنها تركتني أواجه هذا الموقف».

نظرت إليها ... الطاولة بيننا، «أنا لا أفهم ما تقولين». أخرجت ساقي من تحت الطاولة. ارتعشت ساقايّ عندما وضعت قدمي على الأرض ونهضت. سرت إلى السيارة بخطوات غير ثابتة وانتظرت خالتي جون. شدت يداي على مقود السيارة بقوة جعلت الألم يسري في كتفي. حاولت خالتي جون أن تكلمني في طريقنا إلى محطة القطار، حاولت أن تشرح، حاولت أن تدافع عن نفسها،

عن أبي وعن أمي.

قالت لي، «كان قد مضى شهر على وجودك معهما عندما اكتشفت الأمر. كان الوقت قد فات على فعل أي شيء. على الأقل، هذا ما قلته لنفسي. وبالطبع، حاولت أن أكلمها لكنها رفضت الإصغاء. لقد أحبتك كثيراً، على الدوام، وأنا أعلم أنه كانت لها طريقة غريبة في التعبير عن حبها».

«وأبي! هل تركها تحتفظ بي كأنني قطة وجدتها في الطريق؟ لقد كان قاضياً، يا خالتي جون».

«صحيح. وقد استفاد من ذلك. تمكن من الحصول على شهادة ميلاد من أجلك ولم يفطن أحد إلى الأمر. انتقلا إلى بلدة قريبة حيث لا يعرفهما الناس. والآن، لا أعلم شيئاً عما فعله عندما أتت بك إلى البيت، لكني أظنه كان قد تقبل الأمر قبل معرفتي به. عليك أن تدركي كم أحباك!».

تجاهلت كلامها كله إلى أن كفت عن محاولة التفسير. شغلت خالتي راديو السيارة، لكني أغلقته. لم أخرج من السيارة كي أعانقها. اكتفيت بالتوقف عند الرصيف أمام المحطة كي تنزل، ثم تابعت سيري. رأيتها في المرآة تلوح لي بيدها مودعة. لم أكن مستعدة لأية تفاصيل. لا بد لي من وقت كي أستوعب هذا السر الجديد.

توقفت واشتريت زجاجة نبيذ أحمر. كانت باهظة الثمن. كانت زجاجة متناسبة مع ذلك النبأ، نبأ أن حياتي كلها كانت قائمة على جريمة. صببت النبيذ في فنجان قهوة كبيرة لأن كؤوس النبيذ في حاجة إلى غسل لكثرة ما عليها من غبار. كان النبيذ دافئاً،

وكانت له لذعة حارقة عندما ابتلعته؛ لكن ذلك كان فيه شيء شافٍ. جلست إلى الطاولة في مطبخي الصغير ورحت أجذب أطراف خيوط صغيرة في مفرش الطاولة الذي صنعته أمي منذ سنين. كان أبيض اللون في ما مضى، لكن الزمن جعله يصفر. جلست أشرب وأجذب الخيوط السائبة إلى أن جذبت خيطاً جعل المفرش كله يكرّ ويتفكك. رحت أنظر إلى الخيط يتجمع على الأرض وتركت الحقيقة تغوص في أعماق ذهني فتبتلعني كلي.

فكرت في قراراتي كلها... قراري بأن أجعل التعليم مهنتي، قراري بالتخلي عن الأمومة لمن هن أفضل مني استعداداً، قراري بالتضحية بمارك من أجل سلامة عقلي. فكرت في أنها كانت كلها قرارات حكيمة، قرارات مدروسة بكل رويّة. لكن، حتى في أشد أحلامي تطرفاً، ما كان ممكناً أن أتخذ في جزء من ثانية قراراً بأن أسرق طفلاً. بل إن الخداع كان أعظم من ذلك لأن الأمر ليس مقتصراً على شخص واحد، ولأن ثمة أشخاصاً علموا به، أشخاصاً كانوا قادرين على إيقافه وتصحيحه، لكنهم لم يفعلوا شيئاً. اختاروا أن يلزموا الصمت. وبقرارهم هذا، خلقوا لي حياة بيتية فادحة الثقل كادت تسحقني. وددت أن أكرههم، وددت أن ينفجر غضبي عليهم، لكنني لم أستطع. لم يأت الغضب. بدلاً من ذلك، حوّل نفسه إلى حزن، إلى دموع. قالت لي أليس ذات مرة إن الغضب والحزن ليسا إلا وجهي عملة واحدة. تنقلب العملة كلما بدأت أحس غضباً ... فأبكي.

لم أعد إلى زيارة أمي ذلك الأسبوع، ولا الذي بعده. كنت في حاجة إلى انقضاء زمن، إلى فترة فاصلة بين الحقيقة وبينها.

أشغلت أيامي بتنظيف البيت وبالذهاب إلى متجر البقالة القريب كي أجلب صناديق من الورق المقوى أضع فيها حياتنا المشتركة. لففت أطباق الصيني التي كانت لجدتي بورق الجرائد ووضعتها في الصندوق بحرص شديد، واحداً تلو آخر.

كانت أمي تقول لي، «لو كانت أمي هنا لقالت لك: لكن، يا نورما، أجيال من عائلتنا أكلت من هذه الأطباق». وأظن أن هذا كافٍ، في نظر أمي، لتبرير أهميتها، لتبرير قداستها. وجدت غرابة مسلية في التفكير في ما تعتبره أمي مقدساً، الآن، بعد أن علمت. حزمتُ بدلات أبي التي لا تزال معلقة في الخزانة وقد تراكم الغبار على أكتاف ستراتها. أعطيت سيدات الكنيسة كل ما كان لدى أمي من مستلزمات خاصة بهواياتها، وتبرعت لمنظمة جيش الخلاص بكل ما في البيت من أطباق وقطع أثاث. كوّمت الصور على الأرض. وبينما كنت أنظر إلى صوري في طفولتي، أدركت أن عليّ أن أتصل بخالتي. أدركت أن عليّ أرى ما كان في ذلك الصندوق الذي أخذته خالتي من خزانة أمي قبل أن تقول لي الحقيقة.

فتحت الراديو كي أُغرق الصمت وأُسكت الأشباح. تجولت بين غرف البيت من غير هدف. سرت فيها كلها ونظرت في الخزائن الفارغة. مررت بإصبعي على أطر النوافذ التي تجمع عليها الغبار ... علامة أكيدة على أن زمناً قد انقضى منذ لم تعد أمي تعيش في بيتها. غنيت مع الموسيقى ووقفت عند المجلى. نظرت من النافذة. عجبت كيف استطعت أن أكون ساذجة إلى هذا الحد، كيف لم أدرك الأمر.

ثم تذكرت ... دفاتر يومياتي!

لم أكن قد مسست أي شيء في غرفتي. لقد حافظت عليها أمي مثلما كانت منذ رحيلي فلم يتغير فيها شيء. لم ينقص منها شيء غير مصباح سفينة نوح الذي أخذته معي. كتبي المجلدة بورق بني كانت على رف الكتب عند النافذة. كتب تراكم عليها الغبار وحالت ألوانها حيث تصيبها الشمس في النهار. تناولت واحداً منها، كتاب معنون «*مقدمة في الكيمياء*»، ثم فتحته. كنت واثقة من أن أمي لا يمكن أن تفكر في أخذ كتابي كيمياء كي تقرأ فيه. لهذا السبب، عندما كنت صغيرة، غلّفت دفتر الملاحظات بالورق البني وكتبت على الغلاف عنواناً. أطلق غلافه صريراً عندما فتحته. وعلى الصفحة الأولى، بخط يدي المدوّر، خطي المدرسي، رأيت عبارة: «أفكار نورما الخاصة ... ليست للقراءة!». كان كل حرف «O» مرسوماً على شكل قلب صغير. ابتسمت متذكرة كيف كنت تلك الأيام. جلست على السرير ومررت بيدي على الورق الرقيق. رحّبت نوابض السرير بعودتي إليها.

على تلك الصفحات، مكتوبةً منذ عشرات السنين، كانت أحلامي التي أعلم الآن أنها ذكريات عن حياة سُرقت مني. انزلقت عن السرير وجلست على الأرض وامتلأت الغرفة برائحة البطاطا المسلوقة ونار المخيم. وبإصبعي، رسمت شكل دمية عيناها متباعدتان مصنوعتان من زرين صغيرين. قرأت قصصاً كتبتُها في ما مضى، قصصاً عن روثي وعن شقيقها جو. كان أساي شديداً، كان جارحاً. خرجت من فمي أصوات ما كان تخيلها في مستطاعي، أصوات جامحة متكسرة. ثقل هذا البيت، ثقل

حب أمي، ثقل بُعد أبي ... أثقال دفعت بي إلى الأرض. سقط الدفتر من بين يديّ وشهقت طالبة الهواء. جرح غبار السجادة حنجرتي. راحت فداحة كذبة أمي تزداد وضوحاً. لم أدر كم بقيت مستلقية على الأرض، على الأرض نفسها التي كانت أمي تقف عليها وتحاول التخفيف عني عندما تأتيني تلك الأحلام. وعندما استيقظت، كانت أشعة الشمس قد بدأت تسللها عبر مصاريع النافذة، بدأت ترسم على الأرض خطوطاً دقيقة من ضياء. راقبت الشمس ترسم خطاً على ظاهر يدي، على الجلد الذي بدأ يتغضن ويتلون مع التقدم في السن؛ وقلت في نفسي، *أنا، من أكون؟ هل يفتقدونني؟*

جو

أفكر في الإقلاع عن تناول أدويتي. هذه الأدوية لن تنقذ حياتي، لكنها تجعل أفكاري ضبابية، تجعل استعادة الذكريات صعبة. صحيح أنها تكبح الألم، لكنني أظل حبيس هذا السرير. ما من شيء يدمر كبرياء الرجل أكثر مما يدمره احتياجه إلى أن تُفرغ أخته المبولة أو إلى أن يغسل شقيقه جسده الذي أقعده المرض. لا أقبل أن تقوم ليا بشيء من هذا. لا يجوز أن ترى الابنة والدها على هذا النحو. لست متمسكاً بهذه الحياة إلا كي أعوّض الزمن المفقود. لو لم تكن ليا هنا فلعلي كنت أهيم في الغابات مثلما تفعل القطط، أهيم في الغابات كي أموت وحيداً، كي تظل أسرتي بعيدة عن هذا الأمر.

سأشتاق إليها بعد رحيلي. قد يبدو قول هذا غباء مني لأنني أنا الذي سوف يموت، لكنني سأشتاق إليها. لست أدري إن كانت ستشتاق إلي لأنها ... لأنها لا تكاد تعرفني. هي لا تعرف شيء غير أنني ضربت أمها ورحلت قبل مولدها. ما أفظع أن أترك لابنتي هذا الإرث! ليس عدلاً أن لا أجد سعادة حقيقية إلا بعد أن يكون أجلي قد اقترب كثيراً؛ لكن الزمن ليس صديقاً لمريض، ولا لعجوز.

قبل عقود مضت، قال لي فرانكي في لحظة من لحظات صحوه النادرة إن علي أن أتمتع بشبابي لأن الزمن تزداد سرعته عندما يصير المرء رجلاً. زعم أنه آوى إلى فراشه ذات ليلة

عندما كان فتى نشطاً في الثامنة عشرة ثم استيقظ فوجد نفسه سكيراً في الثامنة والأربعين. صرت الآن أعتبر كلماته إنجيلاً. لقد عشت غرب جبال روكي زمناً طويلاً جداً، زمناً أطول كثيراً مما ينبغي. كنت أعمل وأتجول وأسير في الجبال وأرسل المال كلما استطعت. ظننت نفسي راضياً، لكنني لا أدري إن كنت قد فهمت معنى الرضا يوماً من الأيام.

كنت عائداً من رحلة تخييم في الجبال استمرت أسبوعاً كاملاً. سرت نازلاً في درب ضيقة وعرة إلى أن بلغت خط الأرض المستوية التي هي جزء من منتزه وطني. كانت الشمس قد بدأت غروبها عندما نظرت إلى ساعتي فأدركت أن المنتزه سيغلق أبوابه عما قريب وأن الدروب ستصير خالية. تسارعت خطواتي وصرت على مسيرة عشر دقائق من نهاية الدرب حيث أوقفت سيارتي العتيقة. وعندها رأيت شيئاً، رأيت يداً صغيرة من البلاستيك ظاهرة من بين أغصان شجيرة. انزلقت قدمي عندما انحنيت كي ألتقطها، انزلقت على طحالب رطبة فعلق كاحل قدمي في خندق صغير إلى جانب الدرب. انزاحت حقيبتي الظهرية جانباً فأفقدتني توازني. سقطت على الأرض. وخزتْ إبر الصنوبر المدببة وجهي وكاد رأسي يصطدم بجزع شجرة. كان الألم في كاحل قدمي شديداً، فورياً. حاولت التخلص من حقيبتي الظهرية كي أنقلب على ظهري، وكانت يدي قابضة على تلك الدمية البلاستيكية الصغيرة.

ألمٌ نابض في كاحلي. تحاملت على نفسي وجلست مستنداً إلى جذع الشجرة التي كدت أصطدم بها قبل قليل. الدرب على

مسافة أقدام مني، لا أكثر؛ لكن الظلام بدأ يخيّم على الغابة. ساهمت كثافة أوراق الأشجار في زيادة العتمة على أرض الغابة. لم ينكسر كاحل قدمي لأن رقبة حذائي الجبلي حمته، كانت مربوطة عليه ربطاً محكماً. لكني كنت أعلم أن علي ألا أخلع الحذاء من قدمي فهي لن تتورم طالما ظلت حبيسة فيه. نظرت إلى الدمية بين يدي.

«لا تغضبي مني، لكني لا أظنك تستحقين هذه المشقة كلها!». وضعتها إلى جانب حقيبتي الظهرية وأخرجت مطرتي التي ملأتها ماء قبل أن أبدأ رحلة العودة من الجبل. إذا انتهى بي الأمر إلى قضاء الليل هنا، فلا مشكلة. لا يزال لدي ماء وعدد من قطع الشوكولاته. تصير في الجو لذعة برد بعد غياب الشمس، لكن كيس النوم معي. بعد جلوسي هناك أكثر من ساعة، وبعد أن صار لا بد لي من إيقاد مصباح الكيروسين الصغير كي أرى الدرب، أدركت أنني سأمضي ليلة أخرى في الغابات.

جلست أشرب الماء مع قليل من الويسكي وأرقب النجوم تلوح عبر فجوات بين الأغصان ... فجوات صغيرة لكنها كافية لأن أرى النجوم مبحرة في السماء.

قلت، «تذكرني النجوم بولاية مين». كنت رافعاً كاحل قدمي على حجر، وكانت الدمية لا تزال على الأرض إلى جوار حقيبتي الظهرية. أجلستها مستندة إلى ركبتي، وجهها في اتجاهي. كانت لها عينان زرقاوان أكبر كثيراً من أن تكون واقعيتين. شعرها الرمادي مجدول في ضفيرتين، وشفتاها مصبوغتان بلون وردي خفيف. كانت ملابسها بنطلوناً قصيراً وتي شيرت على مقاسها.

كررتُ عبارتي، «هذه النجوم تذكرني بولاية مين... يا إلهي، يا جو! أنت تكلم دمية!». هززت رأسي ووضعت الدمية على الأرض إلى جانبي، وجهها إلى الأسفل؛ لكن هذا لم يطل كثيراً. بعد رشفة شراب أخرى، أعدتها إلى حيث كانت مستندة إلى ركبتي.

«لعل أحدهم يفتقدك الآن!». التقطت قطعة من طحلب جاف كانت عالقة بواحدة من جديلتيها ... «هل تعلمين أن لي بنتاً؟ قد تعجبها الدمى التي تشبهك. لا أريد القول إنني أعلم ما يعجبها. أنا لا أعلم حتى كيف هو شكلها، فكيف أعلم ما يعجبها من دمى؟ لعلها الآن قد تجاوزت مرحلة الدمى كلها. ربما ... لست أدري. لا أعلم متى تكف البنات عن اللعب بالدمى».

في ضوء مصباحي الصغير، بدا لي أن الدمية قد انزعجت مني. لعلها تُقيّمني! هذه الدمية السخيفة التي ليس لها ما تفعله في الغابة. ومن البعيد، من مكان بعيد، سمعت عواء حيوان فتذكرت قمراً، قمراً ساطعاً من حوله هالة زرقاء.

«لا أدري إن كانت ليا تحب الدمى، ولا أدري إن كانت قد أحبتها يوماً، لكن أختي روثي كانت عندها دمية تحبها. كانت تضعها تحت إبطها عندما تسافر. صنعتها أمي من جوارب عتيقة وزرين صغيرين. لا أظن أن روثي يمكن أن تكون معجبة بك كثيراً. أنت مصنوعة كلك من البلاستيك. أنت صلبة. دميتها كانت طرية يسهل أن تحبها».

غفوت وظلت الدمية في حضني، مصباح الكيروسين فارغ، مظلم، والألم النابض في كاحل قدمي بدأ يتراجع مع توالي مرور النجوم من فوقنا.

كنت قد بدأت أستيقظ عندما سمعت أصوات أول السائرين في الغابة صباحاً. ناديتهم فلم يجدوا صعوبة في العثور علي. أخذني واحد إلى قسم الإسعاف في حين جمع رجل آخر حوائجي وتبعنا بسيارتي. أربطة متمزقة. رباط طبي ضاغط وبضعة أقراص من دواء مسكّن، ثم انطلقت من جديد وكنت ممتناً لأن إصابتي كانت في القدم اليسرى. أستطيع قيادة السيارة. كان الرجلان اللذان أتيا بي إلى المستشفى لا يزالان منتظرين. شكرتهما واقترحت عليهما أن يفطرا على حسابي، لكنهما رفضا وقالا لي إنهما مسروران لأنني بخير. أعادا إلي مفاتيحي ثم انصرفا خارجين من باب المستشفى.

جلست في السيارة وحاولت استجماع أفكاري. الدواء المسكّن جعل أفكاري مضطربة قليلاً، جعلني أحنّ إلى حياة لم تكن لي أبداً. تمنيت رؤية ليا، البنت التي أنجبتها لكني لم أرها أبداً. اشتقت إلى روثي، إلى أختي التي فقدتها ولم أعثر عليها أبداً. شتمت الدمية الجالسة على مقعد السيارة إلى جانبي.

انطلقت خارجاً من البلدة، عائداً إلى المنتزه الوطني، وأودعت الدمية في غرفة الأشياء المفقودة قبل أن أعود أدراجي. وصلت إلى المنعطف حيث تلتقي الطريق الريفية الطريق السريعة، حيث ينبغي أن أنعطف غرباً. لكني لم أنعطف غرباً، انعطفت في اتجاه الطفلة التي هجرتها، في اتجاه العودة إلى أبي وأمي اللذين تركتهما يعانيان الأسى لا على اثنين من أطفالهما فحسب، بل على ثلاثة منهم.

كنت ماضياً صوب الشرق. كنت ماضياً صوب موطني. وكان ممكناً أن أكون لابنتي أباً، لأبي وأمي ابناً ... بل حتى ربما أكون

لكورا صديقاً. لم أكن منتظراً منها شيئاً، لا تعاطفاً ولا حباً. لقد فعلت بها ما لا سبيل إلى الصفح عنه. جعلت دمها ينزف، ثم تركتها وحدها كي تربي طفلة ساهمت معها في إنجابها. ومع مواصلة قيادة السيارة، مع تحول الأرض السهلية إلى أرض صخرية وأشجار بدأت تلوح في الأفق، ألحت على ذهني فكرة أنني كنت خيبة أمل كبيرة للجميع. ومع التفافي من حول المدن، كنت أواصل التفكير في أخطائي فبدأت أصير أقل اطمئناناً لقراري بأن أتجه شرقاً. لم أبلغ نيو برونزويك إلا وقد حل ذعرٌ محل الثقة التي أحسستها عندما تكلمت مع تلك الدمية في جبال روكي. وصلت إلى المعبر الحدودي عند ماداواسكا فانعطفت داخلاً ولاية مين. مكتبة سُر مَن قرأ

لست أدري كيف يكون هذا ممكناً، لكن الطريق رقم 9 بدت لي أسوأ حالاً مما كانت أيام طفولتي. صارت الحفر في الطريق أكبر حجماً، وصارت البيوت أشد تداعياً؛ لكن الحقول ظلت على حالها وظلت تلك الأشجار باسقة على امتداد الطريق كعهدها دائماً. انتابني قدر من الضيق لأن المنطقة قد تابعت حياتها. كانت الشمس في كبد السماء عندما أوقفت السيارة ونزلت منها. جداجد الحقول ماضية في غنائها كأنني لا أعلم من تلقاء نفسي أن الشمس حارة جداً. جلست على صخرة وأغمضت عيني. ومن خلف أجفاني المغمضة، جلست أرقب نفسي، أرقب صبياً في السادسة من عمره يرمي الخبز للغربان ويضع لحم السندويتش في فمه. رأيت كيف لوحت لروثي بيدي وأنا مبتعد عنها. لا أدري كم بقيت جالساً على تلك الحال، لكن العرق بدأ يُغرق قميصي.

«مرحباً! هل أنت بخير، يا رجل؟»

أجفلت وكدت أخرج من جلدي. «أنا بخير. نعم. لكنك أخفتني كثيراً». وبظهر يدي، مسحت العرق عن جبيني.

«آسف! كنت منثنياً على نفسك فظننت أن نوبة قلبية قد داهمتك».

«لا، لا شيء من هذا القبيل. أتذكر الماضي، هذا كل شيء. ثم إن كاحل قدمي مصاب ومضمد. ليس هذا أمراً خطيراً». نهضت واقفاً ومددت له يدي.

«لا بأس! من حيث أقف، بدا لي الأمر أشبه بنوبة قلبية». صافحني الرجل بيد قوية.

«هل تعمل في هذه المنطقة؟»

«أجل. كانت هذه الحقول ملكاً لجدي، ثم لأبي، لكنهما رحلا الآن. نوبتان قلبيتان». أشار إلي ... «لهذا، في وسعك أن ترى ما أثار قلقي».

سألته، «هل اسمك إليس؟»

«هذا صحيح. هل يعرف واحدنا الآخر؟»

«لا. لكني أظنني عرفت والدك. عملت في هذه الحقول عندما كنت صغيراً». أدرت رأسي ناظراً إلى حيث ينبغي أن يكون الكوخ، لكن الأجمات كانت قد تكاثرت من حوله ولم يعد ظاهراً من الطريق غير خطين على التراب ... كاد الزمن يخفيه. كادت النباتات تخفيه.

«لكن، أين هو الكوخ؟ أين قاطفو التوت؟».

«يقطن قاطفو التوت في مهجع جماعي عند الطريق. لكني لست واثقاً مما تعنيه بسؤالك عن الكوخ إلا إذا كنت تسألني عن تلك الكومة من أخشاب وحجارة عند آخر هذه الدرب». اقترب مني ووضع يده على كتفي ... «هل أنت واثق من أنك بخير؟ تبدو لي شاحباً محمر الوجه».

«هذا بسبب الحر». جلست على الصخرة من جديد.

«هل أنت واثق من أنني لا أستطيع فعل شيء من أجلك؟»

«في وسعك أن تعطيني عملاً». لست أدري ما جعلني أقول هذا. لست أدري لماذا أريد عملاً. ثمة قدر كبير جداً من البؤس المرتبط بهذه الحقول.

«وماذا عن كاحلك المصاب؟»

«لن يبطئ عملي. أعدك بهذا».

«لدينا بعض العمل في قطف التوت وقص الخطوط. منذ آونة قريبة، ترك العمل واحد من المكسيكيين. سافر كي يحضر جنازة أمه. لا أعلم مدة احتياجي إليك ... لكن، هذا إذا كنت مستعداً للعمل».

«مستعد، بكل تأكيد».

أشار إلي بأن أتبعه فنهضت عن الصخرة وصعدت إلى شاحنتي. كان المهجع بيتاً طويلاً ضيقاً فيه أسرّة مصفوفة إلى واحد من جانبيه وخزائن إلى الجانب الآخر. المسافة بين الخزائن ونهايات الأسرّة كافية لمرور رجل فيها، لا أكثر. البطانيات كلها بلون واحد، رمادي باهت. رأيت على واحد من الأسرّة لحافاً بيتي الصنع أظن أن أحدهم أتى به من موطنه كي يداوي به حنينه.

«لدينا هنا أربعة مراحيض وأربعة حمامات». أشار إليس إلى بابين في آخر المهجع ... «ستكون هذه المرافق مشتركة بينك وبين أربعة وعشرين رجلاً آخرين. من الأفضل أن تكون ممن ينهضون في وقت مبكر إذا أردت الحصول على ماء حار».

في المهجع رائحة رجال وتراب. أشار إلى سرير عند باب الحمام. وضعت حقيبتي الظهرية على السرير، حقيبتي القماشية التي كانت ممتلكاتي كلها مجتمعة فيها.

«تبدأ العمل يوم غد. وجبة الإفطار وقت شروق الشمس». استدار ذاهباً وتركني وحدي. كنت مرهقاً لطول قيادة السيارة فاستلقيت على الفراش وشبكت ساقيّ. وضعت يدي على صدري وغرقت في النوم.

تلك الليلة، تحت سقف خيمة الطعام، لوح لي رجل في سن الكهولة مشيراً بأن آتي إليه. عرفته بعد لحظة. لكنه عرفني على الفور. خوان ... الرجل نفسه الذي تولى أمر حقولنا عندما رحلنا منذ تلك السنين كلها. لا يزال خوان هنا. صار الآن رئيساً للعمال؛ وكان الشخص الوحيد الذي تذكرني. جلست وجلس ينظر إلي أتناول طعامي. كان ذلك مزعجاً فهممت بأن أقول شيئاً لكنه همس لي، «أتذكر شقيقك». كانت تلك أول مرة يذكره أمامي، وآخر مرة. وكنت شاكراً تفهمه.

صباح اليوم التالي، وضعني إليس الجديد في صف كي أعمل وحدي... كأنه يختبرني. رحت أقطف ثمار التوت بسرعة ضارية مصمماً على البرهنة على أنني لا أقل عن أي واحد من قاطفي التوت الجدد، أولئك الذين يعملون هنا. على مقربة مني، كان

رجل اسمه دييغو، وكان متأخراً عني بضعة أقدام. إنه من بلدة صغيرة في جنوب المكسيك. جاء وقت الغداء فجلسنا عند آخر الخط وفي يد كل منا سندويتش من اللحم مع الخردل وزجاجة ماء وتفاحة مقدمة من الشركة. قال لي دييغو بلغته الإنجليزية المكسرة إن هذا الحقل مخصص لعمل المكسيكيين وإن في وسعي، إن أردت، أن أذهب إلى حقول قريبة لا يزال العاملون فيها من الهنود.

«لا. أنا مرتاح هنا. لا أريد رؤية أشخاص أعرفهم».

«أنت رجل غريب».

أومأت برأسي.

«أنا أحب رؤية أصدقائي». هز برأسه ورمى لب التفاحة بين الأشجار ثم عاد إلى العمل.

كان السبت نصف يوم عمل، تماماً مثلما كان في طفولتي. وبما أن العمل انتهى في وقت مبكر وما كان عندي شيء آخر أفعله، فقد ذهبت لأرى ما حل بالكوخ. ذهبت لأرى كيف صار المكان الذي يحتضن بعضاً من أعظم ذكرياتي ويحتضن أيضاً بعضاً من أشد ذكرياتي حزناً. الطريق التي كانت في ما مضى مطروقة جداً، تلك الطريق التي رمى أبي فيها حجراً فكسر مصباح سيارة الشرطة، تلك الطريق التي سارت فيها ماي ممسكة يد ماما عائدة بها إلى نار المخيم، صارت الآن مختفية تحت النباتات. طرق جديدة وآلات جديدة وعمال جدد حلوا محل ما كان في الماضي.

حلت محل وجوه أبناء الميكماك السمراء وجوه سمراء لرجال آتين من بلاد الجنوب، رجال يتحدثون لغة موسيقية ويرسلون المال إلى ديارهم، إلى عائلاتهم، رجال غير ميالين إلى مخالطة الآخرين ... يعملون بقوة ويضحكون بقوة أشد.

خلف مجموعة من أشجار برية نمت غزيرة من غير انتظام، كان كوخنا. أو، على الأقل، كان هناك ما بقي من ذلك الكوخ. النافذتان الصغيرتان إلى جانبي الباب كانتا مكسورتين، زجاجهما متناثر على الأرض في الخارج. والناحية الأخرى من السقف قضمتها حيوانات الراكون، على ما أظن، أو لعلها جرذان. الباب معلق من مفصلة صدئة واحدة. وفي الداخل، تراكم غبار كثيف رمادي اللون رسمت عليه آثار الحيوانات والحشرات خطوطاً متعرجة أشبه بمتاهة عجيبة، لكنها جميلة. ما كان باقياً من الفراش المسند إلى الجدار الخلفي شيء غير نوابضه الفولاذية. وأما الموقد الحجري، موقد الحطب، فكان الشيء الوحيد الباقي، الشيء الوحيد الذي استطاع احتمال وطء الزمن وآثار الإهمال.

ركلت هيكلاً عظمياً لفأر. ثم خرجت وجلست على الدرجات في الخارج، درجات جعلها العفن طرية. كثافة نمو النباتات حجبت عني موضع نار المخيم. كان الزمن والطبيعة قد التهما حفرة النار نفسها. وفي مكان من الأماكن في أعماق قصية من عقلي، أتاني صوت أمي، أتاني شديد الوضوح فأفزعني جداً.

«اقتلعوا تلك الأعشاب التي هناك. نظفوا هذا المكان. سوف نعيش هنا خلال الشهرين القادمين. فلنجعله مكاناً جميلاً».

لا أستطيع تذكر صوت أمي عندما أريد تذكره؛ وأما عندما

تريد أن يُسمع صوتها، فهي قادرة على جعلي أدرك هذا. بحذر، نهضت عن الدرجات المتعفنة ورحت أقتلع الأعشاب. نظفت مساحة صغيرة حول تلك الدرجات. تراجعت إلى الخلف ونظرت معجباً بثمرة عملي، معجباً ببقعة الأرض التي صارت نظيفة. تلت ذلك رحلة إلى متجر الأدوات حيث اشتريت مكنسة وكمية من الخشب كافية لإصلاح الدرجات ومعها بعض المسامير ومطرقة ومتر قياس ومنشار يدوي. اشتريت مواد تنظيف ووضعتها في صندوق الشاحنة. صارت محفظتي أقرب إلى أن تكون خالية أكثر من أي وقت منذ سنين.

مع حلول الوقت الذي صار فيه بطني جائعاً، صار المكان نظيفاً كله. شباك العنكبوت والغبار وعظام الفئران اختفت كلها. غطيت النافذتين بقطع من مشمع قديم كان في صندوق شاحنتي الصغيرة وثبّت القسم الباقي منه بالمسامير فوق الفجوة التي في السقف. سيكون هذا وافياً بالغرض إلى أن أتمكن من جلب مزيد من المواد وبضعة ألواح خشبية. انضممت إلى الآخرين وقت العشاء وكنت مكتسياً غباراً، كنت جائعاً مثلما لم أجع من قبل.

سهرت في الكوخ بضع ليالٍ بعد ذلك، أصلح وأرمم وأتجول في الغابة التي هي مألوفة، لكنها مختلفة. أعود بعد أن يكون أكثر الرجال قد نام.

«تعال. اجلس واشرب الشاي!». كانت ليلة سبت، وكان خوان جالساً على الأرض مع ثلاثة رجال آخرين. السرير السفلي صار طاولة بينهم، وأوراق اللعب منتشرة في الوسط، ورجل يشخر على السرير العلوي.

قلت بصوت خافت، «أنا بخير. ذاهب كي أنام».

«تعال والعب!». مثلما أشار إلي بيده كي آكل معه، أشار الآن بأن أجلس معهم، بأن أمضي وقتاً مع بشر آخرين، بأن أضيع وأنسى نفسي في لعبة ورق.

بقيت صاحياً حتى ساعات الصباح الأولى، حتى احتج جسدي على جلوسي على الأرض وأجبرني على الاستلقاء في فراشي. كانوا مجموعة جيدة من الرجال، لكني كنت راغباً في الوحدة. لا أجد سلاماً إلا في وحدتي. وبعد سنين من عيشي في المخيمات، أصبحت مصمماً عليها. وبعد أسبوع، رآني أولئك الرجال الذين رحبوا بي ضمن جماعتهم الصغيرة أرفع فراشي عن سريري وأحمله ماضياً به في ذلك الممر الطويل بين الأسرّة. أخذته إلى الكوخ بالسيارة ووضعته عند الجدار الجانبي حيث لا يزال السقف صامداً. غرقت في نوم عميق، نوم هادئ من غير أحلام. كنت مستيقظاً عند شروق شمس صباح اليوم التالي، جالساً على درجات الباب أرقب نور الشمس متسرباً من بين أوراق الأشجار، ساقطاً على الأرض، ملقياً في النهار ناراً.

«يا سيد!».

كنت واقفاً في الصف في خيمة الطعام عندما انتحى بي إليس جانباً.

«أرى أنك أخذت من المهجع فراشاً وأنك لم تنم هناك. لا أريد أية مشكلات. لا بد لي من التأكد من أن ما من شيء مريب جارٍ في حقولي».

«ما من شيء مريب. أقسم لك. أخذت الفراش إلى ذلك

الكوخ في آخر الطريق التي نمت فيها الأعشاب. الطريق التي في آخرها صخرة كبيرة».

«الكوخ ليس آمناً للعيش. سأطلب منك أن تعيد الفراش. وإذا كنت غير راغب في النوم في سريرك، فقد لا تستطيع مواصلة العمل هنا. تعلم أن لهذا الأمر صلة بالتأمين».

«لا بأس! ما رأيك في أن أستعمل مالي الخاص كي أصلح الكوخ؟ وسوف أوقّع على ورقة إخلاء مسؤولية، أو ما يشبه ذلك».

وقف الرجال المنتظرين في الصف ينظرون ليروا إن كان سيطردني من العمل.

«أظن أن هذا لا بأس به. لكن عليك أن تعلم فقط أنني لن أدفع لك مقابل أية إصلاحات. لا مشكلة عندي إذا تهاوى الكوخ كله حيث هو ... فلتهتم الطبيعة بأمره! ثم إنه ليس كوخك أنت. هل تدرك هذا؟ الكوخ ملك هذه الشركة، شركتي، سواء أأصلحته أم تركته يداعى».

«هذا مناسب لي».

كان المتجر القديم على الطريق رقم 9 باقياً على حاله تقريباً لم يتغير فيه شيء منذ ذلك اليوم الذي قال لي فيه الشخص الواقف خلف طاولة البيع إن في دمي شيئاً غير سليم، شيئاً حامضاً. كان لا يزال متجراً متنوعاً فيه مأكولات وأدوات وعدد ومكان لخدمة السيارات ومطعم أيضاً. لم يلحظ أحد وجودي بين السائحين المتوقفين من أجل استخدام المراحيض وشراء مأكولات خفيفة وبين أهل المنطقة والعمال المهاجرين. عندما كنت أصغر سناً، كان وجهي الأسمر يعني أن ترقبني الأعين طيلة

الوقت. والآن، صار أكثر الناس هنا من أصحاب الوجوه السمراء ولم يبد لي أن أحداً يلقي إليهم بالاً. في آخر المتجر بار يبيع زجاجات البيرة وأقداحاً من مشروبات مركزة. كان هذا أمراً جديداً. وقد قال لي خوان أن أتجنب البار. لا يذهب إليه إلا أشخاص من أحطّ الأصناف.

اشتريت قدراً وأخذت خبزاً وزبدة وعدداً من علب الحساء المحفوظ. أخذت ما يكفيني إلى أن أتلقى أجري مرة أخرى.

«أليس لديكم ويسكي؟». أردت شيئاً يخفف تيبس مفاصلي ويجعلني أنام.

«آسف! نحن لا نبيع الويسكي».

«هل أنت متأكد؟»

«أنا متأكد. لدينا بيرة على تلك الرفوف التي هناك. ولدينا في البار الذي في الخلف أقداح من مشروبات قوية. هذا ما لدينا». كان صبياً بديناً ذا شعر لم أر في حياتي شعراً أشد منه صفرة. وكان العرق ناضحاً من قميصه. أخذ المال وناولني إيصال الدفع. هممت بوضع الإيصال في الكيس مع مشترياتي.

«ألق نظرة على الإيصال كي تتأكد من أنني حسبت كل شيء حساباً صحيحاً».

«أنا واثق من أنك لم تخطئ». استدرت كي أنصرف.

«من الأفضل أن تتأكد ... من باب الاحتياط».

أخرجت الإيصال من الكيس ونظرت إلى ما هو مسجل فيه. كل شيء سليم. قلبت الإيصال فرأيت على ظهره كتابة بخط اليد لا تكاد تكون مقروءة. «في الخلف شاحنة صغيرة زرقاء أبلغه أن

روجر يقول له لا بأس». أومأت برأسي للصبي ذي الشعر الأصفر ثم خرجت فوضعت المشتريات في صندوق شاحنتي وسرت حتى صرت خلف المتجر. هناك، في شاحنة صغيرة زرقاء اللون، رأيت صبياً له الشعر الأصفر نفسه لكنه أكبر من الأول سناً ببضع سنوات. سيجارة غير مشتعلة متدلية من زاوية فمه. كان غارقاً في النوم مستنداً بظهره إلى ظهر المقعد. نقرت على زجاج النافذة فأجفل وقفز في مكانه إلى أعلى ما يستطيعه المرء إن كان جالساً في سيارة. أطلقت ضحكة صغيرة.

قلت له، «يقول لك روجر أن تبحث لي عن شيء أشربه».

مسح الصبي اللعاب المتسرب من زاوية فمه. لا تزال سيجارته متدلية حيث هي. مد يده خلف المقعد وأخرج زجاجة ويسكي بيتي الصنع ناولني إياها. أعطيته المال فنظر إليه وأومأ برأسه قبل أن يضعه في جيبه الخلفي ويسند رأسه إلى ظهر المقعد مثلما كان من قبل. جرت العملية كلها من غير أية كلمة أخرى. هززت رأسي وسرت مبتعداً.

تناولت تلك الليلة حساء الطماطم مع الخبز والزبدة ورشفة من الويسكي، رشفة لم تكن أكثر مما يكفي لتهدئة الأوجاع الباقية من الحادثة والأوجاع الجديدة الناجمة عن العمل في الحقل. طهوت طعامي على نار أوقدتها أمام الكوخ الصغير حيث كانت نار غيرها توقد قبل عشرات السنين. وعندما انحدرت الشمس وصارت ظاهرة من بين جذوع الأشجار، تناولت عن الفراش تلك البطانية الرمادية الخشنة واضطجعت إلى جانب النار. بقيت مستلقياً إلى أن أكمل القمر رحلته في السماء وغاب عن الأنظار.

استيقظت في ساعة متأخرة من الليل فوجدت النار قد ماتت ورأيت معالم درب التبانة في السماء.

ألِفتُ قطاف التوت من جديد، لكن جسدي لم يستطع تقرير أنه لا يزال شاباً بالقدر الكافي لهذا العمل إلا وكان موسم القطاف قد انتهى. عملت في اقتلاع البطاطس في حقول مجاورة، بل ساعدت إليس في إحراق بقايا النباتات في الحقول البعيدة. كان قد انقضى على إقامتي في ولاية مين سبعة أسابيع عندما قررت أنني قد أبقى فيها. ما كان لدى إليس عمل لي، لكنه قال إن في وسعي أن أبقى في الكوخ شريطة ألا أتسبب في أية مشكلة. لست أدري طبيعة المشكلات التي ظن أنني يمكن أن أتورط فيها هناك، حيث أقيم وحيداً؛ لكني وعدته. أعطوني عملاً في مزرعة أبقار على مسافة خمس عشرة دقيقة فشاركت في حلب الأبقار وفي أعمال الإصلاح الكثيرة في تلك المزرعة. كان علي أن أذهب إلى المزرعة حتى قبل أن تنتبه الطيور إلى موعد بدء أغانيها الصباحية. أعود عند الساعة الثالثة فيكون لدي وقت للعمل في الكوخ قبل غروب الشمس. سمح لي صاحب المزرعة بأن آخذ أخشاباً قديمة وكمية من المسامير؛ بل إنه أعطاني حزمة ألواح خشبية بنصف ثمنها. فعل هذا كي يوفر على نفسه مشقة قيادة السيارة إلى بانغور كي يعيد تلك الألواح. أصلحت السقف وحصلت على نافذتين صغيرتين مستعملتين اشتريتهما من شخص يبيع بعض الأشياء في فناء بيته. لم يأت عيد الميلاد إلا وقد صار عندي كرسيان وطاولة وكرسي هزاز أجلس عليه أمام النار، وكذلك حوض معدني للماء. يجمع الحوض

ماء المطر في الصيف. وفي الشتاء، أضع فيه ثلجاً عند المساء وأتركه حتى يذوب. ثم يأتي الصباح فيكون عندي ماء كافٍ لأن أغسل الأطباق وأغسل جسدي. صرت أغسل ملابسي في عطلة نهاية الأسبوع. الأمر الوحيد الذي لم يعجبني كان الخروج لقضاء حاجتي في شهر فبراير. برد شديد وسير عبر ثلج تراكم عالياً. أكثر الأحيان، أقف بالعتبة وأبول من فوق الدرجات التي أمامها. ما من أحد يراني غير الأشجار.

في ضياء الغسق الشتوي الخافت، يصير سهلاً أن ترى تلك المواضع حيث نال العمر منك. الجلد عند مرفقي وركبتي صار يبدو مرتخياً قليلاً؛ وصارت قدماي أشد اعوجاجاً مما كانتا آخر مرة نظرت إليهما ملياً. وفي المرآة الصغيرة التي اشتريتها من أجل الحلاقة، بدأت ألاحظ غضوناً حول عيني ... خطوط الضحك ... هكذا سمعتهم يدعونها مع أنني لا أظنني ضحكت بالقدر الكافي لأن أفوز بها. خطوط منبثقة من عند طرفي عيني تكاد تبلغ بداية شعري. ولكن، لا تزال لدي رأس عليها شعر كثيف أسود اللون... الموضع الوحيد الذي يبدو أن الزمن قد تركه لي.

هكذا أمضيت سنتي الأولى في ولاية مين، سنتي الأولى من بين سنين كثيرة تلتها. شيئاً بعد شيء، صار الكوخ بيتي. أذهب مرة كل أسبوع فأشتري ما يلزمني من مؤن مع زجاجة من ذلك الويسكي الفظيع. بدأت أمزج الويسكي بالماء فصارت حرقته أسهل احتمالاً.

***

«نعم، فلأكن ملعوناً إن لم يكن هذا جو!».

شخص واقف خلفي في المتجر ربت على كتفي. التفت فرأيت نسخة من رجل عرفته ذات يوم، لكنها أكبر سناً.

«فرانكي! أنت، يا ابن الحرام! كيف حدث أن بقيت حياً؟» ضحك فرانكي فبان السنان الوحيدان الباقيان في فمه وشممت رائحة عفونة في الهواء الذي بيننا.

«اللعنة عليك، يا جو. لكني حي! لا بد أن الرب قد أبقاني حياً كي أُسليه». تقدم مني وأحاط وسطي بذراعيه في معانقة غريبة مرتبكة ... «وانظر إليك أنت! صرت كبيراً مهترئاً».

«كلام من رجل ما عادت له أسنان، من رجل انكمش وقصر قدماً ونصف قدم، بحسب تقديري».

«هذا بسبب ظهري بعد تلك السنين كلها التي أمضيتها في حقول التوت. صار ظهري منحنياً».

ثمة أمور كثيرة لم يكن أي منا يعلم كيف يقولها. كان ممكناً أن تكون اعتذارات، وكان ممكناً أن تكون نكاتاً، وكان ممكناً أن تكون غضباً. في ظل ذلك الاعتماد المفرط على الصمت وفي ظل تلك المجاهيل، تلك الأمور التي لا نعلم ما قد تكون إن كسرنا الصمت، استدرت عائداً إلى طاولة البيع ودفعت ثمن مشترياتي. كنت في طريقي إلى الباب عندما سمعت صوت البائع.

«آسف، يا فرانكي! ليس لديك مال كافٍ لشراء السجائر. إما السندويتش وإما السجائر». كان فرانكي واقفاً هناك وبدا بائساً. حفنة من قطع نقود معدنية صغيرة في يده الذابلة.

«اخرج من الصف أيها السكير العجوز». كان رجل في مثل سني منتظراً خلف فرانكي وبين يديه حليب وعلبة من شرائح اللحم.

التفت فرانكي ونظر إليه.

انحنى الرجل مقترباً وكأن فرانكي غير قادر على سماعه، «اخرج. من. الصف. لعل هذا الأبله لا يتكلم الإنجليزية!».

رأيت أصابع فرانكي النحيلة تنثني فتصير قبضة مضمومة ... ليست قبضة قادرة على إيقاع أي أذى، لكن من المؤكد أنها ستنتهي إلى جعله ينزف دماً.

«أنا سأدفع». ناولت البائع المال وانصرفت قبل أن يتمكن فرانكي من تحويل الأمر إلى استعراض.

«انتظر، يا جو! انتظر دقيقة واحدة! على الأقل، أريد أن أشكرك».

«لا تشغل بالك، يا فرانكي!».

«دعني أشتري لك كأساً، يا جو! دعني أفعل هذا فقط».

«كيف ستشتري لي كأساً إن كنت حتى غير قادر على أن تشتري لنفسك سندويتشاً».

«لقد دفعت ثمن كأس. دفعت ثمنها قبل قليل. لهذا السبب لم يبق لدي مال لشراء السندويتش. لكن لدي تلك الكأس على البار. هيا الآن، يا جو! تعال... كرمى للزمن الذي مضى».

«لم يحدث يوماً أن شربنا معاً، يا فرانكي. فقدت أخي يوم رأيتك ثملاً آخر مرة».

صفر فرانكي من زاوية فمه. أطلق صفرة خفيفة كان أكثرها لعاباً تناثر في الهواء. «هذا يجرحني، يا جو. تعلم أنني أسف لذلك. تعلم هذا».

«لا بأس، يا فرانكي! فلنشرب كأساً!».

لم يحدث من قبل أن شربت عند البار. كنت أفضّل هدوء كوخي والدفء المنبعث من موقد الحطب والكتب التي آتي بها من المتجر، تلك الكتب التي أجدها متروكة في الفندق المجاور أو التي تخلى عنها أشخاص اعتبروا أنفسهم يقومون بعمل من أعمال الخير من أجل العمال المهاجرين الذين ستتحسن لغتهم الإنجليزية مع قراءة تلك الكتب.

كان البار بائساً مثلما تتوقع أن يكون بارٌّ قائمٌ خلف متجر عتيق في مكان ناءٍ. سقف منخفض وأرض دبقة. فاحت في المكان رائحة بيرة بائتة ودخان سجائر وعرق رجال من غير نساء. لحظة دخولنا، بدأت عيناي تدمعان لكثافة الدخان هناك.

كان البار نفسه مصنوعاً من ألواح خشبية عتيقة غير مصقولة من مقاس قدمين بأربعة أقدام. حرصت على ألا أضع يدي على الحافة خوفاً من شظايا الخشب. كراسٍ عالية متنوعة، عتيقة ... طبقة ممزقة من الفينيل تغطي سطوحها الحديدية. كان البؤس صارخاً في المكان كله. الراديو يكرر أغنية ريفية قديمة. وقفت فرانكي عند البار. جلس على المقعد الوحيد الباقي تاركاً إياي واقفاً إلى جواره. طلب بيرة لكل منا وسجلها على حسابه.

«لقد دفعت ثمن البيرة الأخيرة قبل عشرة دقائق فقط، يا فرانكي. هل أنت واثق من أنك تريد البدء من جديد بهذه السرعة».

«بكل تأكيد. هذه مناسبة خاصة. وهذا هو جو. كان يقطف التوت معي في هذه الحقول في ما مضى عندما كنا أكثر شباباً».

«أكنت أكثر شباباً، يا فرانكي. أظن أن شكلك كان هكذا منذ خروجك من بطن أمك». ضحك كل من كان جالساً إلى البار.

ابتسم فرانكي وفرقع بأصابعه. «أنت مضحك، يا صاحبي. والآن، ما عليك إلا أن تقدم إلينا شرابنا، أنا وصديقي».

كانت البيرة من غير مذاق، بيرة لا أمل فيها أبداً. ما عدت أكثر من الشراب، ولا أكاد أشرب في أماكن عامة. كنت أفضل احتساء الويسكي منفرداً. وفي المناسبات النادرة التي أشرب فيها أكثر مما ينبغي، لا أوقع أذى إلا بنفسي. لم يطل الأمر بفرانكي قبل أن يُجهز على كأسه الأولى. رأيته ينظر في قعر كأسه الثانية قبل أن أنهي نصف كأسي الأولى.

«يا إلهي ... فرانكي! تمهل قليلاً!».

«لا حاجة إلى التمهل، يا صديقي. أنا ثمل، إه. الشراب ما عاد له أي أثر علي». كان لسانه قد صار ثقيلاً ... «أنا في غاية الأسف على تشارلي. تعلم أنني أسفت عليه، ألا تعلم، يا جو؟ تعلم أنني آسف».

«ذلك كان منذ زمن بعيد، يا فرانكي». تناولت جرعة من بيرتي. لا تزال الكأس الأولى؛ وقد بدأت تصير فاترة.

كان البار من غير نوافذ عدا نافذة ضيقة وحيدة على الجدار الخلفي. كانت تلك النافذة مكسوة بطبقة من دهون الطعام صارت ثخينة إلى حد جعل ضوء الشمس عاجزاً عن النفاذ منها. عندما ينفتح الباب، يعمي ضياء الشمس الأبصار.

راح فرانكي يثرثر قائلاً إن علي أن آتي للعمل في حقول الهنود بدلاً من عملي في حقول المكسيكيين. انفتح الباب ودخل هيكل داكن لرجل ضخم. خفض الرجل رأسه كي لا تصطدم بعارضة الباب العليا وشغل جسمه عرض الباب كله. كنت أهمّ برفع يدي كي أطلب كأس بيرة أخرى قبل أن أعود إلى الكوخ، وكنت في شوق إلى أن أصير وحدي من جديد، عندما دخل ذلك الرجل. نظرت إليه عندما اعتادت عيناي ظلمة المكان، نظرت إلى خديه المنتفخين وشفتيه المسطحتين، إلى شعره الذي لا يزال طويلاً متشابكاً مثلما كان قبل تلك السنين كلها عندما أخفت ظلال خيمة السيرك ملامحه. إنه شقيق آرتشي الأصغر، شقيقه الذي أمسك بأخي بينما راح آرتشي يضربه حتى الموت. مر بي في طريقه إلى المرحاض.

ذلك الغضب الذي قد فررت منه، تلك المشاعر التي ظننت أنني روضتها أطلت برأسها مرة أخيرة. أحسست جفافاً في فمي وتعرّقت راحتا يدي. أحسست حرارة شديدة جداً خشيت معها أن أشتعل ناراً تحرقنا جميعاً. نظرت إلى فرانكي فرأيت في وجهه ذعراً. مد يده إلي لكنه أخطأني. أسمع بالغضب الأعمى، بأن تصير غاضباً جداً فتخفي ذكرياتك مشاعرك، تخفيها عنك. لكني أردت تذكر هذا. أردت رؤية وجهه قبل أن أهوي عليه بقبضة يدي. أردت أن أستلقي في فراشي ليلاً وأنا عالم أنني ألحقت به ألماً. أعارك هذه المشاعر الآن وأنا موشك على الاحتضار، وأفكر في أنه قد يكون علي أن أكفر عن ذنوبي... إن كان الرب موجوداً ... لكني لا أستطيع. لست راغباً في التكفير عنها. لست أقول إنني

فخور بما فعلت، لكني لست أخجل منه أبداً. لا يزال ابن الحرام يسير على هذه الأرض التي أنا موشك على مغادرتها؛ وأنا لم أقتل أحداً في حياتي كلها.

لم ينتبه إلي، وما كان ممكناً أن ينتبه. لعله لم يتذكرني منذ سنين، أو لم يتذكرني أبداً، لكني سأعرفه أينما رأيته. بلغ باب مرحاض الرجال لكني نقرت على كتفه قبل أن يمد يده إلى مقبض الباب. وعندما التفت صوبي، هويت عليه بلكمة. كان من خلف تلك اللكمة عشرات السنين من الغضب؛ وقد كانت لكمة شديدة. ذراعي التي صارت قوية بعد سنين طويلة من العمل اليدوي هشمت أنفه تهشيماً، وللحظة خاطفة، رأيت وجه كورا أمامي. كان الرجل واقفاً هناك، يده على أنفه، والدم يتسرب من بين أصابعه. وفي عينيه صدمة. نظرت إلى يدي، إلى اليد التي لم ترتفع غضباً منذ سنين، ثم لكمته مرة ثانية. سمعت أسنانه تتناثر على الأرض. سال دم من شفتيه. لم يسنح له وقت لأية ردة فعل لأنني وضعت يدي على كتفيه وجذبته نحوي ثم ضربته بركبتي بين ساقيه. جأر متألماً وسقط على الأرض.

«هذا لأنكم قتلتم أخي، يا وغد». ركلته ركلة أخيرة في بطنه قبل أن أحس أصابع فرانكي تلتف على ذراعي وتشدني صوب باب الخروج. الرجال الآخرون، كؤوسهم في أيديهم، لم يتحركوا، ولم يدافعوا عنه، ولم يساعدوه. ظل ملقى على الأرض يطلق شتائم مختلطة بأنينه. تركت فرانكي يجرني عبر الباب، إلى حيث ضوء الشمس.

«عليك أن تبتعد عن هذا المكان قبل أن يستطيع النهوض عن الأرض».

كان فرانكي محقاً. جلست في سيارتي وتأكدت أن ما من أحد ينظر إلي، ثم انطلقت تاركاً فرانكي وسط غيمة من غبار. قدت السيارة طيلة النهار، سرت بها على امتداد الساحل منتظراً حلول الظلام كي أعود إلى كوخي. وأخيراً، عندما انعطفت تاركاً الطريق رقم 9، أبقيت أضواء السيارة مطفأة. أحسست انفراجاً عندما أوقفت السيارة ووجدت نفسي وحيداً.

سمعت بعد ذلك أن غضباً شديداً ألم به بعد أن أفلح أخيراً في النهوض عن الأرض وعاد يتنفس من جديد. بحث عني، وسأل عمن أكون وأين يمكنه العثور علي. لم يقل له شيئاً أي واحد ممن كانوا في البار. خرج من ذلك المكان مدمى غاضباً غير عارف أنني من ضربه. من بعض النواحي، سرني أنه لم يعرف. ومن نواحٍ أخرى، تمنيت أن يعرف أن موت تشارلي لم يذهب طي النسيان، أنني علمت ما جناه. صحيح أنه لم يمت، خلافاً لأخي الجميل، لكن الكلمة الأخيرة كانت لي.

كان في وسعي أن أرحل تلك المرة، لكني لم أرحل. هربت في المرة الأولى وقاتلت في الثانية. كان ينبغي أن يحدث العكس، لكننا لا نستطيع تغيير الماضي. كانت تلك آخر مشاجرة أستخدم فيها قبضة يدي. وكانت آخر مرة أرى فرانكي. فبعد سنين، قالت لي ماي إنه عاد إلى موطننا بعد تلك الحادثة مباشرة. لعله خشي أن ينتقم شقيق آرتشي منه لأنه كان معي. والظاهر أنه جلس بعد ذلك إلى الطاولة في بيت شقيقته في محمية الهنود وأمامه

طبق كبير من اللحم المطهو، ومات. كان ذلك بعد وقت قصير من عودته. مات هكذا. لا جلبة، ولا ضجيج. مات فحسب. أحسد فرانكي على تلك النهاية، على تلك النعمة.

يبدو لي أمراً لافتاً أنني أمضيت في ولاية مين تلك السنين كلها وكان فرانكي الشخص الوحيد الذي صادفته. وكان الأمر اللافت أكثر من ذلك أنه لم يخبر أحداً بوجودي هناك. على الأقل، هكذا أظن.

لم أطأ أرض البار بعد ذلك اليوم. ليس فيه شيء مما يهمني. لست ساعياً إلى الصداقة أو الأحاديث مثلما يسعى بعض الناس. من المضحك أن أقول هذا الآن لأن الكلام صار كل ما أفعله كلما وجدت معي من أكلمه. في نفسي رغبة لا بد أنها موجودة عند كل محتضر، رغبة في الإعراب عن كل شيء، عن كل كلمة شكراً أخيرة، عن كل كلمة آسف أخيرة.

كان قد مضى على عيشي في ولاية مين قرابة عشر سنين عندما عدت إلى الكوخ ذات مساء أواسط الصيف فوجدت على الباب ورقة تعلمني أن أبي قد مات. افترضت أن فرانكي أخبرهم بمكاني. كان ممكناً أن أعود إليهم، لكني لم أعد. لم يكن معنى هذا أنني لم أحزن عليه ... بل حزنت. لكني لم أعد إلى دياري. كنت أرسل المال آملاً أن يعينهم في حزنهم على الرغم من اكتشافي أن المال نادراً ما يكون عاملاً مساعداً في الأمور المهمة حقاً.

أرسلت المال وعاد إحساسي بالذنب من جديد. طفا على السطح. تغيبت عن العمل بضعة أيام وعدت إلى السهوب. أوقفت

السيارة إلى جانب الطريق وغبار الصيف الجاف ثائر من خلفي. وقفت أتأمل ذلك البيت الصغير معجباً به. مع كل حج لي إلى الشمال من الحدود، كنت أعجب لزهورها البرية التي تضفي ألواناً زاهية على ما في تلك الطبيعة من ألوان صفراء وبنية. سوسنات سود العيون، وورود برية، وأزهار الترمس وكؤوس الزبدة ... هي الأزهار نفسها التي تنمو على حواف الطرق في دياري.

فوجئتُ هذه المرة عندما انفتح باب البيت وخرجتْ منه مُظللةً عينيها بيدها اتقاء الشمس. يدها الأخرى على خصرها. لوحت لها بيدي. كانت تلويحة سريعة خجلى، لكنها لم تجبني بمثلها. أدركت عند ذلك أنني قد أبدو موحياً بالخطر ... رجل غريب أوقف سيارته العتيقة هناك وراح يحدق في بيت امرأة تعيش بعيداً جداً عن بقية البشر. فتحت الباب ونزلت من السيارة. ظلت المرأة واقفة مكانها.

«آسف، يا سيدتي! لا أريد أن أبدو مريباً. لقد كنت لطيفة معي ذات يوم، وأنا لم أنس لطفك. لست أريد بك شراً».

«إذاً، اقترب مني! اقترب، لكن ليس كثيراً!». ظلت واقفة مثل تمثال. لم يتحرك فيها شيء غير شفتيها.

نظرت في الطريق يميناً وشمالاً فلم أر سيارة أخرى. عبرت الطريق. توقفت عند بداية الممر المفضي إلى البيت.

«اقترب أكثر».

تقدمت بضع خطوات، ثم توقفت.

«أكثر قليلاً!». أنزلت يدها من فوق حاجبيها ووضعتها على خصرها. صارت يداها الاثنان على خصرها. كان هذا ما تفعله

ماي عندما تهم بتوبيخ أحد لإقدامه على فعلةٍ تراها غبية. ظلت المرأة صامتة. أحسست حرارة الحرج تغزو وجنتي. هممت بأن أستدير وأعود إلى سيارتي كي أنطلق بها مبتعداً عن هذا المكان، لكنها قالت لي، «اذهب إلى خلف البيت. ستجد طاولة صغيرة. سأجلب لك كأس ماء».

التففت من حول زاوية البيت ماضياً عبر حشائش وأزهار تبلغ ركبتي. وفي الخلف، كانت لديها حديقة خضراوات يانعة كثيفة. بدا لي المكان كله كأنه سراب. طاولة صغيرة مصنوعة من حديد كانت قبالة باب منزلق. كرسيان إلى جانبي الطاولة منتظران أن يجلس عليهما بشريان وأن يتحدثا. لم أر في حياتي كلها مكاناً تحسه مُرحِباً بك مثل هذا المكان.

انفتح الباب المنزلق. خرجت حاملة إبريق ماء مع كأسين. لم تقل شيئاً بل اكتفت بأن صبت لكل منا كأساً ثم جلست. شربتْ الماء وشربتُ الماء. كنت متوتراً مثلما يتوتر صبي في الثالثة عشرة عندما تنظر إليه فتاة جميلة. وعلى حين غرّة، ما عدت أحس نفسي ذلك الرجل الغامض في غابات ولاية مين، الرجل الذي يظل منكباً على عمله ولا يخالط الآخرين. أحسست نفسي صبياً، صبياً صغيراً منتظِراً.

استندت إلى ظهر كرسيها. الكأس لا تزال في يدها، «أتذكرك».

«هل هذا صحيح؟»

«لا يتكرر كثيراً وجود غرباء في هذا المكان. ومعظم الناس الذين يأتون يكونون في طريقهم من مكان إلى مكان. وأنت كنت في لا مكان. وها أنت هنا من جديد».

استنشقتُ نفساً عميقاً ثم بدأت أسعل. دمعت عيناي. ناولتني منديلاً وراحت عيناها تتفحصانني. عندما توقف سعالي وصرت مبهور الأنفاس محمر الوجه قليلاً، سألتني المرأة، «أنت لا تنتظر مني شيئاً، أليس كذلك؟». تقوّس حاجباها.

«أنا رجل متزوج».

«لا أرى في إصبعك خاتم زواج».

«هذا لا أهمية له».

«جيد. رجال كثيرون ينتظرون مني بعض الأمور؛ وقد سئمت هذا».

ظللنا جالسين، مصغيَين إلى صفير الريح بين أوراق العشب نرقب العصافير ترفرف آتية ذاهبة. نفحاتٌ عارضة من شذى الأزهار تأتي بها الريح.

قلت لها، «تذكرني هذه الزهور البرية بموطني».

«أين هو موطنك؟»

«نوفا سكوشا».

«مكان بعيد جداً».

«صحيح».

«هل أنت الآن ذاهب إليها أم ماضٍ في الاتجاه الآخر؟»

«لا هذا ولا ذاك. أتيت كي أراك».

جاء دورها في البقاء صامتة، في تأمل الرجل الغريب الجالس قبالتها، الرجل الذي لم يظهر مرة واحدة فقط آتياً من لا مكان كي يشغل وقتها، بل مرتين اثنتين. طال صمتها فبدأت أفكر في أن أنهض وأنصرف.

«قل لي، ما الذي أثار ذعرك في موطنك فلم تطق البقاء؟»

«لست مذعوراً».

«عندما تقول لي إنك لست مذعوراً بدلاً من الإجابة عن السؤال، أفهم أنك مذعور».

«عائلتي».

«هل أساؤوا إليك؟»

«ألا تتذكرين الكلام الذي دار بيننا المرة الماضية عندما كنا جالسين إلى جانب الطريق ... قبل أن تنفتح السماء؟»

«أظن أن الانطباع الذي تركتُه لديك أقوى من الانطباع الذي تركتَه لدي. لا أود أن يبدو كلامي قاسياً، لكني أتذكر وجهك، ذلك الوجه المتطاول الحزين، أليس هذا كافياً؟»

«أظنه يكفيني. لم تفعل عائلتي شيئاً سيئاً. أنا الذي أسأت إليهم».

دعتني إلى البقاء لتناول عشاء مبكر، دجاج مطهو مع مرق اللحم وخبز أعدته في مقلاة وأضافت إليه زبدة. كان داخل البيت صغيراً، لكنه بهيج، كان مكاناً فيه حياة وفيه سعادة. مكان مختلف تمام الاختلاف عن كوخي في مين حيث الجدران الرمادية التي شوّهتها عوامل الطبيعة، الجدران التي ليست عليها لوحة تزيّنها. ليس عندي إلا ما يلزمني للصيد أو الطهو أو التنظيف، ولا شيء غير ذلك. لحظة وقوفي بباب بيتها، بدأت أفكر في أن حياتي قد تصير أكثر بهجة إذا زيّنت بيتي مثلما زينتْ بيتها. كانت قد رسمت على كل إنش من الجدار أشجاراً وأزهاراً وحشرات وحيوانات. تلك السماء الزرقاء المنعكسة على جدران بيتها جعلت كل ما في الخارج حاضراً فيه.

«هل أنتِ من فعل هذا؟»

«طبعاً».

«هل أنت فنانة؟»

«فكرت في الأمر بضع مرات، لكن ذلك لم يفض إلى شيء». أشارت إلى طاولة المطبخ ... شيء خشبي مدوّر صغير في وسطه أصيص فيه زهور. جلست في حين أخرجت الدجاج من الفرن وأفرغته في طبق كبير. كدت أبكي عندما وضعت الطبق أمامي. رائحة دافئة لذيذة. ما أكثر الذكريات التي اجتمعت في رائحة الطعام تلك! انتظرتها إلى أن جلست.

«هنا، لا حاجة إلى أية طقوس. كل قبل أن يبرد الطعام».

كانت كل لقمة لذيذة بقدر ما كانت الرائحة لذيذة. في تلك اللحظة، في جلوسي في مطبخ امرأة غريبة على مسافة آلاف الكيلومترات من موطني، عادت بي الذكرى إلى ليلة حادثتي، إلى الجزر الذي كان في صحني قبل أن أندفع خارجاً فأغير تاريخ حياتي، قبل أن أندفع أمام تلك الشاحنة الصغيرة فينتهي بي الأمر إلى حياة كلها أوجاع وآلام. كانت تلك أول مرة أترك غضبي يغلبني.

أكلنا صامتين في حين كانت الشمس تنحدر إلى غروبها ملقية نورها على العشب المصفر، ملقية ألقاً ذهبياً في العالم الذي خلف النافذة. حزمة من ذلك الضوء كانت ساقطة على الأرض عند قدمي فرحت أتأملها في حين نهضت المرأة كي ترفع الأطباق عن الطاولة. من غير أن أطلب، أعدت إبريق شاي ووضعته على الطاولة أمامي.

«إذاً، لماذا أنا؟ ماذا فعلت، وماذا قلت، فجعلت مشاعرك فياضة إلى حد دفعك إلى قيادة السيارة تلك المسافة الطويلة لمجرد أن تنظر إلى بيتي؟»

لم أدر أن لدي إجابة عن سؤالها إلى أن بدأت الكلمات تخرج من فمي.

«قلت لي إن دمنا ليس حامضاً. نرتكب الأخطاء، لكننا لسنا أفضل ولسنا أسوأ من أي بشر آخرين».

«نعم ... ألم يكن هذا كلاماً ذكياً؟». ابتسمت من فوق فنجانها الذي رفعته بيدها كي تنفخ على سطحه.

«يومها، كنت في مكان سيء. كلماتك ضمنت لي ألا أصير في مكان فظيع. أظنني وددت أن أشكرك فحسب».

«لا بأس! سرّني مجيئك. اعلمْ أيضاً أنني لا أزال مقتنعة بكلامي.

ساعدتها في غسل الأطباق، وأدخلت بعض الحطب من الكومة التي في الخارج كي تستخدمها في الصباح عندما تريد أن تصنع قهوتها وتغسل ملابسها. لا يزال لديها مرحاض خارجي، ولا تزال تغسل ملابسها بيديها وتعلقها كي تجف حتى في ذروة الشتاء. قالت لي إن هذه طريقة ناجحة منذ أن وُجد البشر على الأرض، ولهذا ترى أنها مناسبة لها أيضاً. وعندما وقفت بالباب متأهباً للانصراف، للذهاب إلى مكان من الأماكن ... لم أدر حقاً أين أذهب، رفعت يدها وداعبت وجهي. كانت يدها ناعمة، دافئة، فاستسلمت لها. شبّت على أطراف أصابعها وقبلتني على خدي الآخر.

«لا بأس! من الأفضل أن أذهب. أشكرك على العشاء».

«اعتن بنفسك! أتمنى لك رحلة آمنة وأتمنى أن تذهب إلى طبيب من أجل هذا السعال. وأيضاً، كف عن التفكير في أنك سبب بؤس الآخرين. أنت لا تسبب بؤساً إلا لنفسك».

أومأت برأسي واستدرت ذاهباً. وعندما جلست في السيارة وعدت بها إلى الطريق، رأيتها تلوح لي بيدها ثم تغلق الباب من خلفها.

قدت السيارة حتى ولاية مين من غير توقف إلا من أجل الوقود وقضاء الحاجة. وصلت إلى كوخي قبيل منتصف الليل ونظرت إلى تلك الجدران الرمادية، جدران تبدو حزينة في عريها الشديد. أغمضت عيني ورأيت بيتها من جديد، رأيته ممتلئاً ألواناً وفرحة. فبدأت الطلاء. وفي مساء اليوم التالي، على ضوء الكيروسين الشحيح، رسمت أمواج المحيط ورسمت أشجار تفاح ... بديلٌ بسيط عن المكان الذي أدعوه موطني.

ذلك الصيف الذي أعقب رحلتي إليها، جمعت بذوراً وحفظتها عندي. ثم جاء الصيف التالي فأنشأت حديقة. ازدهرت حديقتي. لست أدري كيف كان هذا فأنا لم أحاول في حياتي كلها زراعة أي شيء. ثم أتى الخريف فكان عندي من الثمار ما يكفيني حتى أواسط الشتاء، لكني لم أجد سبيلاً إلى حفظها. لم يكن لدى المتجر القريب أوعية لحفظ المأكولات فكان لا بد لي من السفر إلى بانغور. قررت السفر لشراء تلك الأوعية. غسلت ملابسي وذهبت إلى الكازينو/الفندق. أكلت شريحة لحم وشربت قدحاً من ويسكي حقيقي، وخسرت خمسين دولاراً وضعتها في آلات القمار،

وجلست أنظر إلى امرأة في مثل سني مرتين تغني أغنيات شائعة وهي مرتدية فستاناً قصيراً جداً، ثم نمت في فراشٍ مريح. كنت على أهبة الرحيل صباح اليوم التالي. وقفت كي أدفع حسابي فسمعت اسمي. منذ عهد بعيد جداً، لا أظنني سمعت اسمي ينطقه شخص إلا كي يصدر إلي أمراً. كنت أعرف ذلك الصوت، أعرفه تماماً مثلما أعرف صوتي مع أني لم أسمعه منذ سنين طويلة. استدرت ببطء فرأيت أخي ينظر إلي.

«صباح الخير، يا بن».

«*صباح الخير، يا بن*!؟ حقاً!».

«لن تجعل الناس يتفرجون علينا، أليس كذلك؟ سوف أسدد حسابي قبل أن أنصرف، ما رأيك في أن أراك في ساحة وقوف السيارات؟»

دفعت المال، ثم خرجت ووقفت مستنداً إلى سيارتي. نبضات قلبي سريعة. خرج آخر الأمر من باب الفندق فنصبت قامتي، نصبتها لحظة سدد أخي إلى ذقني لكمة شديدة.

«يا إلهي، بن!» دعكت ذقني بيدي. منذ الآن، بدأت أحس تورماً فيها.

«لا تتصرف كأنك لا تستحق هذا». وقف إلى جانبي مستنداً إلى السيارة مثلي فتزحزحت مبتعداً عنه بضعة إنشات.

«أنا وماي نعلم أنك في ولاية مين. أتى فرانكي لقطاف التفاح، أتى بضع مرات قبل موته. لم نخبر بابا وماما. بعثت إليك أخبرك بموت بابا، لكنك لم تأت. كم مرة تريد أن تكسر قلب ماما، يا جو؟»

كنت مشوشاً. وكنت أقول لنفسي دائماً إنهم سيأتون لأخذي إن علموا مكان وجودي... أقول لنفسي إنهم يريدون أن أعود إلى البيت. ربما لا تريد كورا عودتي، لكن الآخرين يريدونها. تحول الألم إلى جرح، وحاول الجرح أن يتحول إلى غضب، لكني ما كنت لأسمح له بذلك.

«إن كنتم تعلمون أنني هنا، فلماذا لم تأتوا كي تأخذوني؟»

«بدا لنا أنك راغب في أن تظل ضائعاً، هل أنا مخطئ في هذا؟»

«لا».

«حان الوقت لأن تكبر، يا جو. عد إلى موطنك، وتحمل المسؤولية، وكن رجلاً».

مكتبة
t.me/soramnqraa

سألته، «كيف حال ليا؟».

«ليا امرأة مدهشة. ربتها كورا تربية جيدة».

«وأنا أرسلت مالاً».

«المال ليس أباً، يا جو».

نصب بن قامته. لم يعد مستنداً إلى السيارة. لأول مرة، لاحظت كم تقدمت به السن. فتحت باب السيارة ومددت يدي تحت المقعد، تناولت محفظة جلدية فيها كل ما ادخرته من مال. ناولته المحفظة ودخلت السيارة وأغلقت الباب. أنزلت زجاج النافذة.

«سلمه لماما، أو لليا. قل لهم إنني آسف».

«سأضع المال حيث ثمة حاجة إليه، لكني لن أنطق بلسانك يا جو. عليك أن تفعل هذا بنفسك».

«سرتني رؤيتك، يا بن. سرتني فعلاً». شغلت المحرك، ورفعت زجاج النافذة. نظرت في المرآة مع خروجي من ساحة وقوف السيارات فرأيته يستدير ويعود إلى الداخل. المحفظة الجلدية تحت ذراعه.

اجتزت المسافة كلها عائداً إلى كوخي في صمت تام. ما كنت أسمع شيئاً غير هدير المحرك. فكرت في الغضون التي رأيتها في وجه بن. في ذلك التهدّل البسيط في كتفيه. في صوته الذي صار أعمق مما أتذكر. نظرت إلى يدي المستقرتين على مقود السيارة ... مفاصل أصابعي متورمة تؤلمني قليلاً، والجلد عليه بقع بنية داكنة. نظرت في المرآة فرأيت الغضون من حول تجهم وجهي الذي كان أشبه بقناع أضعه دائماً. لقد انزلق الزمن بعيداً، مضى من غيري.

همست لنفسي، «اللعنة على هذا!». صحت من النافذة المفتوحة، «اللعنة على هذا!».

بدت لي الطريق رقم 9 أطول مما كانت. أسفلت يتلوى ماضياً في البعيد. لكن سكينةً مألوفة بدأت تحل علي لحظة اجتيازي المتجر القريب، سكينة لازمتني إلى أن بلغت الطريق الضيقة المؤدية إلى كوخي. ضغطت على دواسة المكبح ضغطاً شديداً، وأدرت عجلة القيادة. أوقفت السيارة قبل المنعطف تماماً ونظرت أمامي غير مصدق. لقد اختفت صخرة روثي. مكان الصخرة حفرة، فجوة في الأرض فاغرة فاها. وإلى جوارها كومة تراب جاهزة لردمها، جاهزة لأن تمحو أي أثر لروثي. أحسست انسياب دموعي قبل أن أدرك أنني بكيت. ركلت كومة التراب. ركلت كل

شيء عدا تلك الحفرة في الأرض. كنت أركل وأصرخ وأبكي. ثم داهمني سعالٌ جعلني أجثو على ركبتي. خفضت رأسي كي أتنفس. خرج دم من رئتي، وصار بكائي أشد من ذي قبل. رحلت أقبض على التراب، تراب صلب يجرح كفيّ، ثم أرميه بعيداً عن حيث كانت الصخرة في ما مضى. تابعت بعثرة التراب إلى أن سقطت مستنفد القوى أجاهد كي ألتقط أنفاسي. استلقيت على الأرض وبدت لي السماء كأنها تتموج وتنشق مع تفرق الغيوم وفرارها. استنشقت أنفاساً عميقة، جرعات مؤلمة من هواء أُرغمها على دخول رئتي، ثم أرغمها على الخروج. لست أدري كم بقيت مستلقياً هناك. لعلي لم أبق مدة طويلة، لكنني أحسستها عمراً بأسره.

توقف أحدهم؛ أوقف سيارته إلى جانبي وسألني إن كنت بخير. استعنت بكل ما كان باقياً لدي من طاقة كي أشير له بأن يتابع سيره، كي أشيح بوجهي عنه حتى لا يرى الخطوط الدقيقة التي رسمها دمعي على وجهي المعفر بالتراب، كي لا يرى اللعاب الأحمر على شفتي. وعندما ابتعد صوت السيارة، نهضت واقفاً، بطيئاً، وتحاملت على نفسي مستعيناً بيدي وركبتي وسرت إلى سيارتي مترنحاً. لم أنعطف في الطريق الضيقة المؤدية إلى الكوخ الذي كان كوخي طيلة سنين كثيرة. لم أعد إلى المتجر أو إلى المستودع. هذه المرة، لم يكن غضبي يعوقني. كان حزني يدفعني إلى المضي قدماً. سرت شمالاً في الطريق رقم 9. وعندما بلغت الحدود، أوقفت السيارة في ساحة للسيارات هناك، وعبرت الحدود سائراً على قدمي. كانت السيارة ملكاً

للسيد إليس، وأنا لست لصاً. أضفت اسمه إلى قائمة طويلة من الأشخاص، أشخاص عليّ أن أرجو عفوهم. كنت في السادسة والخمسين عندما مررت بالموضع الذي لفظ فيه تشارلي أنفاسه الأخيرة فجلست هناك مولياً الطريق السريعة ظهري، عيناي متعلقتان بالأشجار والسيارات تعبر من خلفي مسرعة. أطلقت بعض السيارات أبواقها تذكرني بأن الطريق السريعة ليست مكاناً للنزهة. كنت على مقربة شديدة من سينت ستيفن. وقفت رافعاً إبهامي والشمس في عيني. آخر الأمر، توقفت سيارة من أجلي فركضت إليها.

«أنا ذاهب إلى نوفا سكوشا». نطقت هذه الكلمات سريعاً قبل أن أنتبه إلى بن الجالس خلف المقود.

«اصعد!». مد يده إلى المقعد الخلفي وتناول المحفظة الجلدية التي أعطيته إياها في وقت سابق من ذلك اليوم. رماها على صدري. «تستطيع الآن أن تتولى هذا الأمر بنفسك».

كنت عائداً إلى موطني.

لم يكد بن يكلمني كلمة واحدة خلال رحلتنا عبر نيو برونزويك كلها ثم عبر طريق الوادي. رحت أنظر من النافذة وأرقب خضرة نوفا سكوشا تحل محل خضرة نيو برونزويك. وعند الحدود بين الولايتين، رأيت طواحين الهواء العملاقة واقفة حراساً عند مدخل المنطقة التي كنت أدعوها موطناً لي، أجنحتها الضخمة تقطع السماء كأنها أشباح تلوح في ضياء الغسق. وعندما توقفنا آخر الأمر في فناء البيت في وقت لاحق من تلك الليلة، أحسست معدتي تؤلمني جوعاً وخوفاً. نزلت من السيارة وتمطيت، وكان

ضوء التلفزيون الأزرق يلوح متراقصاً عبر النافذة الكبيرة. صعد بن الدرجات المفضية إلى باب البيت وفتحه. كنت أخلع حذائي عندما أتت ماي من جهة المطبخ، تجفف يديها بمنشفة الأطباق.

«ماما ... لن تصدقي أبداً ما أتى به بن إلى البيت». ألقت بالمنشفة على واحد من الكراسي، ثم أمسكت يدي وشدت عليها وقادتني إلى غرفة المعيشة. لا صياح، ولا ملامة ... لا شيء أكثر من مصافحة مسالمة ترحيباً بعودتي إلى بيت طفولتي.

«ماما، مرحباً!». رفعت رأسها ناظرة إلي وهي جالسة في كرسيها، شعرها مبيضّ خفيف، وتورد فروة رأسها ظاهر من خلاله. جلدها متغضن، كله خطوط. ذكرتني بواحدة من دمى التفاح المجفف. لكن عينيها لا تزالان كما عهدتهما ... عينان أحبتاني، سهرتا علي إلى أن تحسنت صحتي، عينان كانتا تهدئاني عندما أبكي وتوبخاني عندما أسيء السلوك، عينان كانتا معتزتان بي عندما بقيت مختبئاً في الشجرة، عينان قالتا لي أنني لم أكن مخطئاً في شيء عندما ضاعت روثي وعندما مات تشارلي. إنهما العينان اللتان تألقتا فخراً عندما تزوجت كورا.

«جو! ولدي، لقد عدت إلى البيت».

- 14 -

نورما

أحزنني ذلك السطر القصير المرسوم على شاهدة القبر. البساطة تُضيّع أموراً كثيرة. هي لا تفصح عن النكسات التي تجعل المرء في الحضيض ولا عن المباهج التي تنعش روحه. تلك المنعطفات والمنحنيات كلها التي تكوّن عمر الإنسان تنمحي وتضيع آثارها. ذلك السطر القصير على شاهدة القبر غير وافٍ أبداً. كل شيء من حوله أكثر منه تميزاً. الاسم المنقوش بحروف كبيرة مزخرفة. وبعض الأحيان، صورة محفورة على الغرانيت الرمادي تمنح للميت حياة. مع هذا، يظل السطر القصير الذي يتمثل فيه مجموع حياة بأسرها... يظل شيئاً غير متميز.

فرقعت ركبتاي عندما انحنيت كي أتتبع حواف ذلك السطر، كي أتتبعها بإصبعي. كان بارداً، لكنه صقيل. خففت برودته الألم في إصبعي التي جرحتُها عندما كنت أحاول فرط حبات رمانة. صبغت عصارتها الجلد تحت ظفري. لم يأت العمال بعد كي يضيفوا سنة وفاتها مع أن الأعشاب قد بدأت تنمو وتكبر. قد يظن شخص غريب أنها لا تزال تسير في هذا العالم. كنت قد اشتريت جرساً من تلك الأجراس التي تدندن في الريح، اشتريته من أجل القبر. جرس صلصالي صغير مع أسطوانات معدنية طويلة متدلية من باقة من أزهار رمادية اللون. غرست عصا الجرس في التربة المرصوصة إلى جانب شاهدة القبر وسمعت صوتها يذكرني بأن صوت هذه الأجراس ليس موسيقى بل قعقعة

مزعجة. تنهدت لتلك الذكرى وغرست العصا الصغيرة إلى عمق أكبر في الأرض. اختلط التراب بعصارة الرمان تحت ظفري. نقرت على الجرس بأصابعي كي أجعله يغني لأن اليوم لا ريح فيه. وبعد ذلك، همست بصلاة صغيرة آملة ألا يُسرق الجرس، ثم قبّلت الحجر وانصرفت. سرت عبر صفوف القبور الغرانيتية، سرت بخطوات خفيفة فوق رجال ونساء مدفونين على عمق ستة أقدام. عقدت ذراعي على صدري اتقاء البرد وسرت مطرقة الرأس أحاول أن أمضي عبر أساي المعقد.

أملت ألا تكون أمي غاضبة مني لبحثي عن المرأة التي في أحلامي، عن أمي التي في أحلامي. حتى الآن، وبعد كل شيء، لم أستطع احتمال فكرة أنها يمكن أن تعتبرني ابنة غير بارّة بها.

في ليلة باردة في أواخر شهر سبتمبر، ماتت أمي أثناء نومها. ميتة هادئة فصلتها عني وفصلتها عن العالم. اتصلتْ بي عاملة من بيت الرعاية قرابة الساعة السابعة وخمس وأربعين دقيقة من صباح يوم الثلاثاء عندما كنت موشكة على الخروج إلى عملي. أخذت إذناً من العمل طيلة ما بقي من الأسبوع واتصلت بخالتي جون. منذ ذلك اليوم عندما أخبرتني بما وقع في الماضي، لم نتكلم مثلما تتكلم قريبتان، مثلما يتكلم شخصان يحب كل منهما الآخر. لعل تلك الشهور الفاصلة بين الحقيقة وبين وفاة أمي كانت أشد ما عشته من وحدة في حياتي كلها. كنا متمدنتين، خالتي جون وأنا. جرت بيننا اتصالات على سبيل المجاملة ... أحاديث دارت كلها من حول أمي وحالتها. لا ضحك، ولا خطط لتبادل الزيارات. على امتداد فترة بلغت الآن خمسين سنة، وفي

كل يوم عشته باسم نورما، كانت خالتي جون تخونني. والآن، ما عادت لي أم أستطيع أن ألومها.

بعد مكالمتي مع خالتي جون، ذهبت إلى بيت الرعاية وفي قلبي ذعر من فكرة رؤية أمي. لكني صرت هناك مع ذراع جانيت القوية على كتفي، فأحسست انفراجاً، لا خوفاً. بدت أمي في غاية الهدوء والوداعة. ما كان فمها معوجّاً في تكشيرة مخيفة. ما كانت يداها متشبثتين بأي شيء وقع تحتهما كي تهدئ قلقها. كانت عيناها مغمضتان. ما كانتا باحثتين بحثاً محموماً عن شيء ألفتاه أو عن شخص ألفتاه. جذبت كرسياً وجلست إلى جانب سريرها. أمسكت يدها بيدي. داعبتها بحركة لطيفة، ثم قبلتها وأعدتها إلى مكانها قبل أن أنصرف. أظنني بقيت خمس دقائق فقط. وقّعت الأوراق في غرفة الممرضات كي ينقلوا جسدها إلى مكتب دفن الموتى. قلت لهم إنني سأعرّج عليهم في اليوم التالي كي أستعيد صورها، وأما غير ذلك ففي وسعهم أن يتصرفوا به مثلما يرون. توقفت عند مكتب دفن الموتى كي أتفق معهم على الترتيبات. كانت أمي قد وضعت خطة لكل شيء بعد شهر واحد من موت أبي. لذا، كان ما ينبغي أن أقرره محدوداً جداً. عرضوا علي قهوة ومنديلاً، لكني رفضت الاثنين. لم أحس طعنة الأسى إلا عندما جلست إلى طاولة المطبخ في بيتي، أحسستها عميقة، شديدة. هناك، في هدأة المطبخ، رحت أبكي. وما كان بكائي وقوراً. رحت أنوح نواحاً، وذرفت سيلاً من دموع مالحة. ألم نابض في رأسي، وحرقة في حلقي، لكني ما كان لدي شيء يستطيع إيقاف بكائي. بدا لي أن الأسى قد استولى علي. كنت

في الخامسة والأربعين، وكنت وحيدة. ليس لدي من يشيع في نفسي راحة أو طمأنينة عند اشتداد حاجتي إلى الراحة وإلى الطمأنينة.

وكانت الجنازة بعد ثلاثة أيام من ذلك. اجتمع عدد صغير من الأشخاص في غرفة فائحة بروائح الليلك والأشباح. أمي مسجّاة في تابوت مرتدية فستانها الأزرق الذي كان مفضلاً عندها. الكلام بيني وبين خالتي جون كان قليلاً، وكان بصوت منخفض. أتت بضع سيدات من الكنيسة وقدمن التعازي. ابنة عم من الأباعد رأت النعي في الصحيفة فأتت وعرّفت بنفسها. لم تر أمي منذ عشرات السنين، لكنها أحست حاجة إلى المجيء. صافحتني وجلست على إحدى الكراسي في حين مالت خالتي جون صوبي وهمست في أذني، «يا لها من غوله! لا تريد شيئاً غير أن تكون مشاركة في هذه الطقوس. بل إنني لا أستطيع حتى أن أتذكرها. الناس الذين مثلها، الذين لا ينقطعون عن متابعة إعلانات الوفيات، يجعلونني أحس قشعريرة». لم أستطع منع نفسي من الابتسام. دفنا أمي إلى جانب أبي. وضعت على القبر باقة ورد، ثم انصرفت. أزور قبرها الآن أزوره أحياناً. وتسرني دائماً رؤية أن الجرس الذي وضعته لم يأخذه أحد.

كنت قد بعت البيت عندما ذهبت أمي للعيش في المستشفى، وانتقلت عائدة إلى شقتي نفسها. أقامت معي خالتي جون أسبوعاً واحداً كي تساعدني في ترتيبات الدفن. كان حضورها راحة لي بقدر ما كنت لا أزال راغبة في إطلاق غضبي عليها. هدوء البيت اكتسب الآن لوناً جديداً بعد غياب أبي وأمي. ما عادا هنا كي

يفرضا هذا الهدوء فرضاً. لست أدري كيف صرت أحس نفسي خفيفة. جلست خالتي جون قبالتي ووضعت بيننا زجاجة ويسكي. ناولتني واحدة من الكأسين الزجاجيتين اللتين كان أبي وأمي يستخدمانهما لشرب الويسكي طيلة الزمن الذي أستطيع تذكره. كأسان من الكريستال المنقوش جاءتاهما هدية منذ زمن بعيد.

«فلنشرب كأساً! فلنشرب من أجل أبيك وأمك. على الرغم من عيوبهما، كنا نحبهما». سكبت في كل كأس مقدار إنش من السائل الكهرماني.

«عيوبهما!». رفعت الكأس وابتلعت الويسكي. أحرقني. دمعت عيناي.

تظاهرت خالتي جون بأنها لا تلاحظ ضيقي وصبت كأساً ثانية. «عيوب. نعم. لعلهما اشتطا كثيراً في ما يتصل بك، لكنك لا تستطيعين القول إنهما لم يحبانك». نظرت إلي من فوق حافة كأسها.

«لا أدري إن كانت أسرتي الحقيقية قد أحبتني أيضاً».

ظلت خالتي جون صامتة وامتلأ الصمت أزيزاً مكهرباً. ثم تنحنحت وقالت، «أنا غير قادرة على تغيير الماضي، يا نورما. أستطيع فقط أن أساعدك من أجل المستقبل. أنت الوحيدة على وجه الأرض التي أحبها أكثر من أي شخص آخر. أنت الشخص الوحيد الذي يمنحني سبباً لأن أستمر، لأن أرفض الاستسلام للموت. يعلم الرب أنني كبرت كثيراً، لكني أتمنى رؤيتك وقد تجاوزت هذا الأمر».

«كان في وسعك أن تقولي شيئاً في ذلك الوقت. كان في وسعك أن تخبريني عندما تساءلت عن سبب سمرة جلدي. سنحت لك فرصة، لكنك كنت تساعدين أبي وأمي في عيش هذه الكذبة الضخمة المقززة». تناولت جرعة أخرى، ثم وضعت الكأس بقوة زائدة جعلت الطاولة تهتز.

«نورما». نطقت خالتي اسمي بنبرة قوية. أرادت أن تتأكد من أنني مصغية إليها ... «كانت أمك شقيقتي، وكنت أحبها. كنت أحبها بما يكفي لأن أحرص على أن تظل سعيدة. هل كانت لهذا الأمر عواقب؟ بالطبع. سكنتها الهواجس؛ وكانت مذعورة من احتمال أن يعثروا عليك ويأخذونك منها. هذا ما جعلها تكثر الشراب. لكنك لا تستطيعين أبداً القول إنها لم تحبك، إنها لم تكن ترعاك بأفضل ما تستطيع».

«كان ممكناً أن يكون لي إخوة وأخوات. كان ممكناً أن أعيش في بيت نوافذه مفتوحة، مع بشر يضحكون طيلة الوقت، أو يتشاجرون ويتصالحون. كان من الممكن ...». الغضب قادر على جعل الناس يقولون أموراً لا يعنونها. وهو قادر على جعلهم راغبين في جرح الآخرين مثلما جُرحوا. لم أكن أعني ما قلت، ليس تماماً، لكنني لم أستطع التوقف ... «ألا يقلقك احتمال أن يكون أبي وأمي الحقيقيين موجودين فعلاً، والدين يفتقدان ابنتهما ولا يعلمان أبداً ما وقع لها؟ قد يكون لي إخوة وأخوات. لقد سكنها هاجس الخوف من أن تفقدني، لكنها فعلت الأمر نفسه بأسرة أخرى. لا أستطيع أن أتعامل مع هذا تعاملاً عادياً مثلما تفعلين».

كانت خالتي تنظر إلى ما هو خلفي، لا إلي. بدأت أحس خفة

في رأسي. وكانت بي رغبة شديدة في أن أُخلد للنوم. لعل هذا كله ليس إلا حلماً قبيحاً! في أسرتي، كل ما لا معنى له كان على الدوام ناتجاً عن حلم قبيح. لا بد أن هذا الحلم أسوأ تلك الأحلام على الإطلاق.

همست لي من خلف الطاولة، «سوف أساعدك».

«تساعدينني في ماذا؟»

«سأقول لك كل ما أعلمه، وسأساعدك في العثور على أسرتك». لم تكن خالتي جون ممن يبكون كثيراً. لم أرها باكية إلا مرة واحدة فقط. كان ذلك في جنازة أليس. لقد بكت يومها. «عديني فقط بأن تظلي تعتبرينني من عائلتك. لم يبق لي غيرك».

«إذاً، ابدأي الكلام!». كان الويسكي يجعلني لئيمة معها.

«غداً. سأخبرك غداً بكل شيء. أريد أن أنام».

لأول مرة في حياتي، نظرت إلى خالتي فرأيتها امرأة عجوزاً. كان فيها على الدوام قدر كبير من الحياة، قدر كبير من الطاقة. وكان غريباً أن أراها ضعيفة هكذا، كتفاها متهدلتان، ورأسها مطرق إلى الأرض. ولأول مرة، لاحظت تلك البقع على يديها، بقع الشيخوخة، ولاحظت الغضون العميقة من حول عينيها ... هزال ذراعيها.

«غداً». أفرغتُ في فمي آخر ما كان باقياً في الكأس ونهضت تاركة إياها جالسة إلى الطاولة.

قالت خالتي جون، «أظن أن علينا أن نذهب في رحلة بالسيارة». وجدتها عندما استيقظت جالسة إلى الطاولة تأكل قطعة مافن إنكليزية محمصة مع زبدة الفستق، وفي صحنها

شرائح من الموز. وقفت أنظر إليها وهي تغمس شرائح الموز في زبدة الفستق الذائبة.

«رحلة بالسيارة!». لا يزال في رأسي صداع خفيف، ولا أزال في حاجة إلى الهدوء، إلى التقاط أنفاسي.

«أريد أن أريك شيئاً، شيئاً أعلم أنك رأيته من قبل، لكن له الآن معنى جديداً».

«ما سبب هذا الغموض كله؟».

«أنا في حاجة إلى أن أسيطر على أعصابي. بعض الأحيان، لا تكون الكلمات وحدها كافية. لذا، تعالي معي في هذه الرحلة!».

بدت لي مرهقة، وبدا عليها قدر من الضيق.

سرت مثلما قالت لي خالتي. خرجنا من أوغستا واتجهنا شمالاً إلى بلغنا الطريق رقم 9. بدأت البلدات الصغيرة تختفي وتحل محلها حقول ومزارع. حلت الجرارات محل السيارات، وصارت الطريق خشنة. أعرف هذه الطريق معرفة حسنة، فهي الطريق التي أسلكها للذهاب إلى كوخي. لكني أحسسته الآن، للمرة الأولى، مساراً غير مألوف. أحسست أنني أقود سيارتي في هذا الطريق أول مرة، أنني أرى بيوت المزارع أول مرة وأنتبه إلى العمال في الحقول أول مرة، أنتبه إلى جلودهم السمراء المتعرقة اللامعة في ضياء الشمس. عرّجنا على متجر صغير إلى جانب الطريق كي نتزود بالماء وكي نستريح ونستخدم المرحاض. كان مكاناً قديماً فائحاً برائحة القهوة والخبز والبنزين والمأكولات المقلية. باب صغير وممرات ضيقة بين الطاولات. أبواب البرادات عليها طبقة من ماء متكثف. رفوف مزدحمة بتشكيلة غريبة من

مأكولات وأدوات. بدا لي أن كل من في الداخل يعرف الموجودين جميعاً. لافتة تشير إلى وجود بارٍ في القسم الخلفي.

تزودنا بالوقود واشترينا بعض المأكولات الخفيفة قبل أن نتابع سيرنا في الطريق رقم 9.

قالت خالتي جون، «لقد اقتربنا. أظن أن عليك أن تبطئي قليلاً».

«اقتربنا من ماذا؟» نظرت في المرآة كي أتأكد من عدم وجود سيارة خلفي قبل أن أخفف السرعة. لم تجبني خالتي جون بشيء. ظلت عيناها منتبهتين إلى الطريق.

«هنا. توقفي!». أشارت إلى طريق ترابية قديمة. توقفت مثلما قالت لي. خرجت خالتي جون من السيارة وأغلقت الباب من خلفها بهدوء. أوقفت محرك السيارة ولحقت بها. إلى الجهة اليمنى، رأيت حقلاً خالياً لا تزال أرضه مكتسية رماداً بعد حرق بقايا المحصول. صف أشجار كثيفة إلى اليسار من الطريق. تقدمت خالتي جون من مكان تبدو أرضه كأنها قد حفرت في الآونة الأخيرة.

«هنا وجدَتْكِ أمك. هنا تماماً».

استنشقتُ نفساً عميقاً.

«كنت هنا وحدك جالسة على صخرة كانت موجودة في هذا المكان».

لقد مررت بتلك الصخرة من قبل، بهذا المكان. مررت بها مع أمي جالسة في السيارة إلى جواري. كنا ذاهبتين إلى البحيرة. صار التنفس صعباً عليّ. لا ريح، وما من غيمة في السماء. تمنيت

لو أن فيها غيوماً. كنت في حاجة إلى النظر إلى شيء غير هذا الحقل، شيء غير هذا التراب حيث كانت الصخرة. كنت في حاجة أن تتابع عيناي شيئاً يفر من هذا المكان. هدير سيارة عابرة ومن خلفها غبار في الهواء أخرجني من تلك اللحظة التي كنت واثقة من أنها ستتحول إلى نوبة ذعر. تابعت عيناي السيارة إلى أن غابت عن نظري.

«لقد كنتُ هنا. أعني ... لم أكن هنا، بل مررت بهذا المكان، وكنت مع أمي في السيارة. لم تقل لي شيئاً. بل إنها لم تنظر في هذا الاتجاه». انحنيت وتناولت عن الأرض حفنة تراب. نظرت إليها ملياً.

«أتت بي هذا المكان بعد فترة قصيرة من ...» توقفت لحظة ... «بعد أن أخذتك. ليس سهلاً أن أقول هذا، أن أقول إنها أخذتك. أرادت أمك أن نعتبر الأمر ... كأنك أتيت إلينا بنفسك».

رميت التراب من يدي ومسحتها ببنطلوني. أمسكت خالتي جون يدي وبدأنا السير في الطريق الترابية. سارت في واحد من الثلمين اللذين على الطريق؛ وسرت في الثلم الآخر. يدانا متمسكتان من فوق الهضبة المعشوشبة في الوسط.

«هل ندمتْ يوماً على ما فعلت؟»

«لا أظن هذا. لقد أقنعت نفسها بأنك كنت متروكة هناك، وبأنها أنقذتك».

لم نسر إلا بضع دقائق قبل أن يظهر أمامنا كوخ بسيط. كان كوخاً صغيراً، كوخاً قديماً، لكنه معتنى به جيداً. ثمة من أحبه. كانت جدران الكوخ الخارجية ملونة كلها ... أزهار وأشجار

مرسومة في كل مكان. أشبه برسوم الأطفال. حديقة خضراوات صغيرة مهجورة. أوراق نباتاتها ذابلة والسياج الصغير المحيط بها في حاجة إلى إصلاح. بدا لي أن حيواناً قد حفر من تحت السور وأكل الخضراوات. حفرة للنار أمام الكوخ، حفرة مستخدمة منذ عهد قريب. الحطب الذي فيها متفحم، أسود اللون، لامع.

«علينا أن نعود أدراجنا. لا يجوز أن ندخل أملاك الآخرين».

أفلتت خالتي جون يدي واستدارت كي تعود، لكني بقيت كأن قدمي صارت لهما جذور في هذه الأرض. كان مكاناً لطيفاً. لست أدري كيف أحسسته مكاناً مألوفاً. كأنني شممت رائحة النار في يوم مطير ورأيت بشراً يضحكون ويشربون الشاي. التفتُّ باحثة عن الدرب النازلة إلى البحيرة القريبة.

«أحلامي». نظرت إلى خالتي جون التي توقفت عندما سمعتني لكنها لم تلتفت صوبي. «أحلامي. كانت ذكريات». نظرت إلى الكوخ الصغير ... «أعرف هذا المكان. كنت هنا من قبل، من قبل أن يُطلى على هذا النحو. أستطيع رؤية أشخاص جالسين حول النار وأن أشم رائحة البطاطس المسلوقة، رائحة التبغ. أعرف هذا المكان».

صعدت الدرجات المفضية إلى باب الكوخ ومررت بيدي على النباتات المرسومة رسماً خشناً، إلى النباتات التي رسمتها يد غير محترفة. تساءلت إن كان من رسمها واحداً ممن كان مراداً لي أن أحبهم.

«انظري إلى هذا!». بدأ صوتي خافتاً لكنه ازداد علواً مع تحسس أصابعي تلك العروق النباتية المرسومة ... «إنها ممتلئة ألواناً. كان يمكن أن تكون لي حياة ممتلئة ألواناً».

«أنت تستبقين الأمور، يا نورما. لا تعلمين من رسم هذه النباتات؛ ونحن لسنا واثقتين من أن هذا المكان الذي كانت أسرتك مقيمة فيه. أظن أن ثمة عدداً من الأكواخ هنا».

تظاهرت بأنني لا أسمعها.

«وبسببكم جميعاً، صرت أظن أن لدي أمراً غير سليم، صرت أظن أن تلك الأحلام التي يتضح الآن أن لها معنى كانت خللاً عندي». ثم أتى الإدراك، أتى سريعاً، مؤلماً ... «حتى أليس! آه، يا ربي! هل كانت أليس عالمة بالأمر أيضاً؟».

«إنني آسفة. لن تعلمي أبداً كم أنا آسفة، لكني آسفة. آسفة جداً». سارت متجهة صوبي، لكني أدرت وجهي وسرت متجاوزة إياها، سرت أضرب الأرض بقدميّ.

صرخت في سيري، «وماذا عن أليس؟». كانت خالتي جون تسير بأسرع ما تستطيع محاولة أن تلحق بي.

«هذا هو السر الوحيد الذي لم أقله لها. قلت لها إنك متبناة».

«الظاهر أنك قادرة على أن تكتمي أسراراً كبيرة عن الناس الذين تقولين إنك تحبينهم أكثر من بقية الناس جميعاً». كنت غاضبة، كنت أصيح ... «أنت لست مثلما ظننتك. كيف استطعت أن تكوني جزءاً من هذا؟ كيف استطعت أن تكذبي علي بهذه السهولة؟».

بدأت خالتي جون تبكي.

وكنت مدركة ما أفعله. كنت أرخي العنان لغضبي على الشخص الوحيد الباقي كي يحسه. إنها الشخص الوحيد الباقي الذي أستطيع إيلامه بقدر ما كنت متألمة.

«أريد أن أترك هذا المكان». جلست بالسيارة وأغلقت الباب بعنف.

«بعض الأحيان، كنت أكتم أسراراً من أجل الناس الذين أحبهم. لعلي كنت مخطئة. لكني ليس لدي غيرك، وأنا أحبك». أغلق خالتي جون بابها ووضعت حزام الأمان.

قالت لي، «الغضب يستنفد الطاقة. تمسكك به سيمتص الحياة منك».

انطلقت بالسيارة ودخلت الطريق رقم 9، دخلت بسرعة زائدة جداً انزلقت العجلات على التربة الناعمة. انحرفت السيارة. تشبثت خالتي جون بمقبض الباب. شاء حسن حظي ألا تكون على الطريق سيارات قريبة. توقفت من جديد. أوقفت السيارة وأسندت رأسي إلى عجلة القيادة.

همست، «آسفة».

«لا حاجة بك إلى الأسف. دعيني أساعدك، لا أكثر!».

بعد عودتنا، تركت شقتي وانتقلت إلى بوسطن، إلى البيت الحجري الذي كان بيت أليس وصار الآن بيت خالتي جون. هذا بيتٌ من غير أشباح. هواؤه خفيف، وستائره مفتوحة على العالم الخارجي. موسيقى صادحة طيلة الوقت تقريباً، منبعثة من راديو صغير فضي اللون جاثم على طاولة المطبخ. المال الذي حصلت عليه من شقتي ومن بيع البيت، استخدمته كي أتقاعد من التعليم. معلمة شابة أنهت الجامعة مؤخراً كانت في توق إلى الحلول محلي، إلى تعليم الأطفال أموراً جديدة مثيرة. لم أعتبر نفسي يوماً أنني «كبرت»؛ لكن من الواضح أنني كبرت. بدلاً من

كتب جورج أورويل، حلت قصص المغامرات ومصاصي الدماء. كان الوقت مناسباً لترك التعليم.

«لماذا لم تعيشا معاً، أنت وأليس، طيلة تلك السنين؟» كنا جالستين في غرفة المعيشة تقرأ كل منا في كتابها. وضعت خالتي جون كتابها في حجرها.

«كان ذلك زمناً مختلفاً». جالت عيناها في أرجاء البيت الذي صار الآن بيتها ... «وعندما صار ذلك مناسباً، كانت كل منا قد مضت في طريقها. أحببت بيتي وأحببت بيتها. كنا معاً على الدوام، لكن لكل منا مكان تذهب إليه كي تقضي بعض الوقت وحدها. بعد تلك السنين كلها، أظن أن هذا كان مناسباً لنا».

قلت، «اشتقت إليها».

«وأنا أيضاً. كل يوم يمر، أستيقظ فأتذكر أنها ما عادت هنا».

على الرغم من سنها، كانت لخالتي جون حياة اجتماعية نشطة، وكانت تخرج مع الأصدقاء والصديقات فيذهبون إلى المسرح أو إلى حفلات غنائية. يدعونني أحياناً إلى الانضمام إليهم. صار لي بضعة أصدقاء، أشخاص التقيتهم عندما بدأت أعمل متطوعة في مأوى النساء الذي كانت أليس تقدم إليه المساعدة طيلة تلك السنين. لا تزال سيارتي عندي، ولا أزال أحب الذهاب إلى البحيرة وقضاء أيام بطولها هناك. أذهب وحدي أكثر الأحيان، لكن خالتي جون تذهب معي أحياناً. صار لنا إيقاع حياة يومية مناسب لكل منا. وكنت أفكر في الحقيقة. إن أردت الصدق، علي القول إن هذا كان يستهلك قدراً كبيراً جداً من طاقتي العاطفية. أحسست نفسي عالقة بين الرغبة في معرفة أسرتي والخوف من

احتمال عدم رغبتهم في أن أعثر عليهم، أو من احتمال أن يكون الأوان قد فات. أرقد في الليل مستيقظة وأحدق في الضياء الخافت الذي يلقيه مصباح الشارع على سقف غرفة نومي. أبذل كل جهدي كي أتذكرهم، كي أراهم بعين عقلي، لكني لا أستطيع. أقرأ يومياتي مرة بعد مرة، لكن الأمر الوحيد الذي يبدو دليلاً ملموساً على هويتي كان اسماً فحسب: روثي. كانت روثي صديقتي المتخيلة من أيام وحدتي في طفولتي، وكانت صاحبة الاسم الذي نوديت به في تلك المظاهرة. لا بد أن يكون لهذا معنى. كانت تلك أحجية، أحجية أجزاؤها غير قابلة للتجميع معاً ... وإذا كانت قابلة للتجميع معاً، فقد كنت عاجزة عن رؤية ذلك.

مرت بضعة أسابيع بعد رحلتنا على الطريق رقم 9. وكنت جالسة مع خالتي جون إلى الطاولة في انتظار أن ينضج الدجاج بالبارمزان. ناولتني خالتي جون ورقة مطوية. نظرت إلى الورقة، ثم نظرت إليها حائرة.

قالت لي، «افتحيها».

«ماذا فيها؟»

«فيها دليل إلى هويتك الحقيقية».

حملت الورقة بإحدى يدي ومررت بأصابع يدي الأخرى على حافتها.

«إنها لا تعض». ابتسمت لي خالتي جون الجالسة قبالتي.

قلت متوجسة، «قد تعضني».

فتحت الورقة برفق. كانت صورة لمقالة قديمة في صحيفة. رفعت رأسي ونظرت إلى خالتي جون، حائرة.

«اقرئيها!».

كان عنوان المقالة كالتالي: «مشاجرة في سيرك تفضي إلى مقتل صبي هندي». كان تاريخ المقالة عائداً إلى شهر أغسطس سنة 1970. تابعت القراءة. الظاهر أن مشاجرة جرت في ولاية مين بين اثنين من قاطفي التوت الهنود. يُعتقد أن الكحول كان سبب تلك المشاجرة. الصبي الذي مات اسمه تشارلي، وقد وصفته المقالة بأنه عامل مجد يحبه أفراد أسرته. وجدت صعوبة في فهم العلاقة بين هذه المقالة وبيني إلى أن قرأت الجزء الأخير منها: «كانت لأسرة الفتى الذي مات ابنة في الرابعة اختفت من تلك الحقول نفسها منذ نحو عشر سنين. لم يعثر عليها أبداً».

كانت الجملة الأخيرة مفاجئة جداً، مبتورة جداً. انطلقت جرس الفرن فذهبت خالتي جون كي تأتي بالطعام. وضعت صحني أمامي، لكني كنت لا أزال أحاول استجماع شتات نفسي.

«أين عثرت على هذه المقالة؟»

«أنا امرأة عجوز لديها متسع من الوقت. بدأت البحث عن أي شيء يمكن أن يفيدنا فوجدت هذه المقالة في المكتبة. وجدتها منذ يومين».

«كان لي شقيق اسمه تشارلي».

«يبدو الأمر هكذا ... إن كنت تلك الفتاة. لكني لا أظن أن فتيات صغيرات كثيرات قد أُخذن من حقول التوت في ولاية مين ذلك الصيف». قالت هذا ورفعت كتفيها.

«أتساءل كيف أستطيع العثور عليهم، على أسرتي الأخرى».

«يبدو أنهم كانوا يعملون في تلك الحقول. قد تكون لدى الشركة التي هناك معلومات عنهم».

تكلمت خالتي جون من جديد عندما رأت أنني لم أقل شيئاً ولم أمد يدي على طعامي. «اتصلت بالمصنع الذي يقوم بتوضيب التوت هناك. هم مستعدون للقائنا غداً كي يروا إن كانوا قادرين على مساعدتنا».

«هل أنت جادة في ما تقولين؟». سمعت كيف خرج صوتي مرتجفاً.

«أنا جادة. حجزت لنا غرفة مع الإفطار كي نمضي الليل هناك. لذا، دعينا ننتهي من طعامنا، ثم نرفع الأطباق ونحزم أمتعتنا. نستطيع الانطلاق في الصباح الباكر. وافق ليونارد أن يأتي لإطعام هنري». نظرت إلى السمكة تسبح في دوائر في حوض الأسماك نفسه الذي اعتدت رؤيته في بيت خالتي جون منذ كنت صغيرة.

«لا بأس». لم أستطع العثور على شيء أقوله غير هاتين الكلمتين.

انطلقنا صباح اليوم التالي عندما بدأت السماء تنير. يبعد المكان مسيرة خمس ساعات بالسيارة، وكان موعدنا مع آل إليس عند الساعة الثانية بعد الظهر. إنهم مالكو حقول التوت تلك التي زرناها قبل بضعة شهور. كان يوماً بارداً من أوائل أيام شهر ديسمبر. قلة من الأشجار لا تزال متمسكة بأوراقها، لكن ألوان الخريف الجميلة، الأحمر والبرتقالي والذهبي، اختفت في معظم الأماكن تاركة أغصاناً لا حياة فيها. كان أمراً حسناً أن أرى

الطبيعة تفعل ما تتقن فعله، تتخلى، تتابع سيرها. ظلت معدتي متقلصة طيلة الرحلة.

كان موقف السيارات شبه خالٍ. بضع شاحنات صغيرة متوقفة عند باب مقر الشركة. وبعد أن توقفنا، مالت خالتي جون صوبي وأمسكت يدي. جلسنا هكذا بضع دقائق قبل أن أستنشق نفساً عميقاً وأحمل حقيبة يدي وأسير متجهة إلى الباب. رحب بنا السيد إليس ... رجل يكبرني ببضع سنين.

«أهلاً بكما. هل انطلقتما هذا الصباح؟»

«هذا صحيح».

«لا بد أنكما مرهقتان. هذه رحلة طويلة».

«نحن بخير. لن نعود اليوم. سنمضي ليلتنا في فندق». قلت هذا كأنني لم أكن هنا أبداً من قبل ... لعلي لم أكن هنا؟ كنت هنا من قبل، لكنني كنت نسخة أخرى من ذاتي.

«والآن، كيف أستطيع مساعدتكما؟». أشار إلى كرسيين فجلسنا وجلس الرجل على حافة طاولة مكتبه. أخرجت مقالة الصحيفة من حقيبة يدي وناولته إياها.

سألته بصوت هادئ، «هل تتذكر هذا؟»

قرأ بضع ثوانٍ قبل أن يعيد الورقة إلي. «أتذكر بالتأكيد. كان أبي يدير العمل هنا في ذلك الوقت، وكنت لا أزال فتى. لكنه أخبرني بما جرى بعد أن كبرت. قال لي إن ذلك الصبي تشارلي كان عاملاً مجداً، كان فتى لطيفاً. يا له من أمر مؤسف! تلك الأسرة حل بها حظ سيء. كانت لديهم بنت صغيرة اختفت قبل سنين من ذلك. أمر محزن. لم يعثروا عليها أبداً. واحد من

الفتيان، اسمه جو، رحل عن هذا المكان منذ شهرين فقط. كان يعيش في مكان قريب من الحقول حيث ضاعت شقيقته. لقد طلى الكوخ وزينه برسوم جميلة».

قلت بصوت خافت، «جو!؟»

«نعم. لقد عمل هنا سنين طويلة. سمحت له بالإقامة في ذلك الكوخ. كان الكوخ في حالة مزرية عندما أتى. لكنه جعله مكاناً جميلاً. ومنذ شهرين ذهب إلى الحدود بسيارة الشركة وتركها هناك. لا أدري أين ذهب. أفترض أنه عاد إلى نوفاسكوشا لأن أسرته من هناك، لكنني لست متأكداً فعلاً. استعدتُ السيارة وكانت في حالة ممتازة. لذا، ليس لدي شيء ضده».

«فهمت». بطرف عيني، رأيت خالتي جون تنظر إلي منتظرة أن أقول شيئاً آخر. وفي نهاية المطاف، أرغم كل من الصمت ونظرتي الحائرة السيد إليس على الإشاحة بوجهه. نظر من النافذة أولاً، ثم نظر إلى خالتي جون.

قالت خالتي، «كما ترى، ابنة أختي نورما، هذه ... الحقيقة أننا نظنها تلك الفتاة الصغيرة التي ضاعت. يعني هذا أن جو سيكون شقيقها».

«غير معقول!». نهض واقفاً وسار متجهاً إلى خزانة مصنفات عند الجدار. «أأنت روثي الصغيرة؟ الحقيقة أن هذا أمر عجيب».

«روثي!». همست بهذا الاسم الذي كان على طرف لساني، همست بصوت خافت لا يكاد يُسمع. «روثي». على نحو مفاجئ، بدأ عالمي كله يكتسب معنى جديداً بالنسبة إلي.

أخرج السيد إليس من الخزانة مصنفاً وفتحه ثم وضعه على طاولة مكتبه. نسخ بضعة أشياء على ورقة. «ربما لا يجوز لي إطلاعك على هذه المعلومات، لكنك شديدة الشبه بجو. لذا، لا أرى نفسي مخطئاً. هذا عنوان والديه. إنهم مقيمون في هذا العنوان نفسه منذ بداية عملهم هنا في الخمسينيات. كفوا عن المجيء بعد ذلك الأمر الفظيع الذي أصاب تشارلي. لكن جو عاد وظل هنا زمناً طويلاً مثلما قلت لك من قبل، ظل يعمل في هذه الحقول». ناولني الورقة ... «أخبريني إن سار الأمر مثلما تتوقعين!».

أومأت برأسي وحدقت في الورقة.

قالت خالتي جون وهي تنهض عن الكرسي، «شكراً، يا سيد إليس. نقدر لك هذا. وسوف نخبرك». أمسكت بمرفقي وقادتني إلى الخارج.

قلت، «هل يزعجك أن نلقي نظرة على ذلك الكوخ الذي ذكرته لنا؟»

«لا، أبداً».

قلت، «أشكرك». قادتني خالتي جون إلى خارج المبنى.

وضعت الورقة في حقيبة يدي، في جيب له سحّاب، لكن ليس قبل أن أحفظ ما فيها. عدت إلى الطريق رقم 9 متجهة إلى تلك الطريق الترابية المؤدية إلى الكوخ الذي قد يكون كوخ أخي جو. ظللت أردد الاسم في ذهني مرة بعد مرة... جو، جو. ظللت أردده إلى أن لم يعد للكلمة أية معنى. صارت صوتاً فحسب. صارت تنهيدة مضطربة.

هذه المرة، سارت خالتي جون خلفي متتبعة أثر خطواتي على طبقة رقيقة من ثلج خفيف تساقط ذلك الصباح. وعندما وصلت إلى الكوخ، صعدت الدرجات الثلاث المفضية إلى بابه، ولسبب لا أدريه، دققت الباب. أحسست أن دخولي من غير استئذان أمر خاطئ. لم يجبني أحد فدفعت الباب. انفتح الباب. في الداخل، رأيت بيتاً متقشفاً، لكنه أنيق. أحسسته مكاناً فيه روح. لا شيء في غير محله. غبار متراكم. مررت على إبريق الشاي بإصبعي راسمة خطاً طويلاً من حول قمته. ما من شيء شخصي هنا ...لا صور ولا تذكارات. وحدها الجدران مطلية مثل الجدران الخارجية. شجرة تفاح على واحد منها، وعلى جدار آخر نار موقدة وطفلان صغيران مستلقيان على بطانية يرقبان النجوم. كان رسماً بدائياً لكنه جميل. فنجان قهوة غير مغسول باقٍ على الطاولة وفي أسفله بقعة قاتمة. وقبل خروجي، كتبت اسمي على الغبار المستقر على الطاولة، كتبته بإصبعي: روثي.

***

بعد بضعة أيام من ذلك، عندما كانت مدينة بوسطن تنير أضواء شجرة عيد الميلاد العملاقة التي تأتيها كل سنة هدية من نوفاسكوشا، حاولت أن أكتب رسالة. لكن الأمر كان ينتهي كل مرة بتمزيق الورقة ورميها في سلة المهملات. آمالي مفرطةٌ في اتساعها؛ وقد تعلمت ألا أثق بالأمل. أخيراً، تدخلت خالتي جون وساعدتني في كتابة رسالة أستطيع إرسالها:

مرحباً،

أنتم لا تعرفونني، لكن اسمي نورما. نشأت في ولاية مين في كنف أمي لينور وأبي فرانك. وقد تبين لي في الآونة الأخيرة

أنني لست ابنتهما الطبيعية. الظاهر أن أمي قد أخذتني، في لحظة يأس واضطراب، من عند صخرة في واحد من حقول التوت في ولاية مين على مقربة من الطريق رقم 9. ينبغي أن يكون هذا قد حدث سنة 1962. أظن أنني ابنتكم «روثي».

أستطيع تفهم الأمر إن كنتم في شك مما أقول وإن كنتم غير راغبين في التواصل معي. أرفق بهذه الرسالة المقالة الصحفية التي ساعدتني في العثور عليكم ومعها صورتان لي، صورة في طفولتي، وصورة حديثة العهد. لا بد أن هذا صعب عليكم. ولكن، إذا كنتم راغبين في التواصل معي، فقد كتبت عنواني على المغلف. رقم هاتفي: 0015559921.

مع التحية،

نورما ... وربما روثي.

أتذكر أنني كنت، أيام طفولتي، أجد انتظار يوم عيد الميلاد أمراً شديد الصعوبة ... انتظار سانتا كلوز وانتظار ذلك اليوم الوحيد الذي يكون مسموحاً لي فيه أن آكل من السكر قدر ما يستطيع جسدي الصغير احتماله. كنت أظن ذلك الانتظار شديد الصعوبة، لكن انتظار رد أسرتي الحقيقية كان أسوأ كثيراً. أعجز عن النوم متخيلة ما يمكن أن أفعله إذا أتاني رد يقول إنني مخطئة أو ... إذا أتاني رد يؤكد هويتي. أتفقد البريد ثلاث مرات في اليوم الواحد على الرغم من علمي أن البريد يأتي بين الثانية عشرة والواحدة ظهراً. تطوعت للعمل في ملجأ النساء كي أبعد ذهني عن التفكير في رسالة قد لا تأتي أبداً. وصرت أقفز مجفلة

كلما رن الهاتف وأحس ما يشبه غثياناً كلما رأيت مصباح البريد الصوتي في هاتفي وامضاً.

وفي آخر شهر ديسمبر، كنت في الحمام عندما دقت بابه خالتي جون.

«مكالمة هاتفية لك من امرأة اسمها ماي من نوفا سكوشا».

كدت أنزلق وأسقط في غمرة اندفاعي للخروج من حوض الاستحمام وارتداء ثوبي. وكان الماء يقطر مني عندما وصلت إلى الهاتف وحملت السماعة.

«ألو!».

«مرحباً! هل أنت نورما؟ هل أنت التي كتبت إلينا رسالة تقولين فيها إنك روثي؟». كان صوتها خفيضاً لكن فيه قوة وعزماً.

«أنا هي. أشكرك لأنك تتصلين بي. هل قلت إن اسمك ماي؟»

«صحيح. إذا كنت روثي، فأنا أختك الكبرى. سأكون صادقة معك لأنني لا أعرف الكلام بأية طريقة أخرى: لا بد أنك هي. أقول هذا لأن تلك الصورة في طفولتك التي بعثت بها إلينا مطابقة لما أتذكره، ثم إنك شديدة الشبه بأمي. تشبهينها تماماً. لذا، وبما أن الأمر هكذا، فأظن أنك يمكن بالفعل أن تكوني روثي».

بدأت أرتجف وأبكي. أتتني خالتي جون بكرسي وبفنجان شاي بالنعناع.

قلت، «وأنا أيضاً أظن أنني روثي».

«لا أريد الآن أن أطيل الكلام على الماضي ... هذه مكالمة خارجية، وهي مكلفة. لكني أود أن أطرح عليك سؤالاً».

«لا بأس».

«هل كنت يوماً في مظاهرة من أجل حقوق الهنود في بوسطن؟».

انبثقت في ذهني ذكرى ذلك اليوم مع خالتي جون عندما ناداني رجل باسم روثي. «نعم، في بوسطن، أواخر السبعينيات. كان هناك رجل ناداني باسمي، باسمي الحقيقي».

«يعني هذا أنك روثي. وأظن أن علينا أن نعتذر من بن. لم نصدقه عندما قال لنا إنه رآك هناك».

«هل هو ...».

«بن شقيقنا الأكبر. وأنت شقيقتنا الصغرى. مات تشارلي، لكنك تعلمين هذا. لا يزال جو هنا، لكنه لن يبقى طويلاً. أصابه سرطان انتشر في رئتيه وبلغ عظامه. وأنا ماي. وماما، صارت عجوزاً، وصارت في حاجة إلى مساعدة، لكن ذهنها لا يزال دقيقاً كالكمان».

«ألا تزال أمي حية؟».

«نعم، لكن بابا رحل منذ بضع سنين. لو كان هنا لأسعده عثورك علينا من جديد. أنا واثقة من هذا».

صرت غير قادرة على الكلام. تقدمت خالتي جون وأخذت سماعة الهاتف مني.

«أنا آسفة، لكن نورما ... روثي... طغت عليها مشاعرها. هل أستطيع تسجيل رقم هاتفك كي تتصل بك عندما تستعيد أنفاسها؟»

تناولت خالتي جون ورقة وسجلت عليها رقم الهاتف ... «نعم.

سأقول لها هذا. أشكرك، يا ماي!». أعادت خالتي جون سماعة الهاتف إلى مكانها. «تقول إنها لا تطيق انتظار مقابلتك شخصياً كي تعانقك بأشد ما تستطيع».

ازداد بكائي شدة. في تلك اللحظة، بدا الأمر كله غير حقيقي. كل شيء بدا غير حقيقي، وفي الوقت نفسه راح كل شيء يبدو منطقياً وأنا جالسة أرتشف الشاي بالنعناع ويدي في يد خالتي جون. بدا لي أن الأمر كله كان أحجية من نوع غريب وأن جزءاً من تلك الأحجية ظل مفقوداً على امتداد خمسين سنة، قد عُثر عليه فجأة. ما عليّ إلا أن أضع ذلك الجزء في مكانه الصحيح. سوف أذهب إلى نوفا سكوشا، سوف ألتقي أسرتي!

- 15 -

روثي

كانت الغرفة صغيرة بالقياس إلى عدد الناس الذين فيها. رائحة عفونة خفيفة، تلك الرائحة التي ترافق البيوت القديمة، البيوت التي تختزن جدرانها أفراحاً وأحزاناً. بيوت امتصت تشققات طلائها أصوات الضحكات وغسلت الدموع أرضها مرة تلو مرة. هذا بيت أسرة صارت قصصها محمولة في روائحه تلك الذكريات التي أُنكرت عليّ. الغرف التي شهدت ولادة أحلام أشقائي وداوت كوابيسهم. نظرت فرأيت رجلاً ضئيل الحجم عيناه داكنتان، غائرتان. كان جلده مرتخياً صبغه اليرقان بصفرته. وقفت أنظر إليه، إلى هذا الرجل الضئيل المريض الذي صارت عيناه غائمتين لكثرة الأدوية وشدة الإرهاق. حاولت تركيز نظره علي. ثم بدأ يبكي.

«مرحباً، يا جو!». ارتحلت هاتان الكلمتان إلى أذنيه محمولتين على تنهيدة أثقلها الترقب وشيء من الخوف. صحيح أنني فقدت أشخاصاً، لكني ما كنت من قبل على هذه المقربة الشديدة من الموت. وما كنت قريبة هذا القرب كله من أخٍ شقيق. وها أنا الآن هنا، واحدة من الواقفين بباب تلك الغرفة الصغيرة.

أمسكت ماي يدي وأدخلتني الغرفة في حين تناول بن منديلاً ومسح به العرق عن وجه جو. أشاح جو بوجهه عنه متذمراً.

«دعني أفعل هذا، يا بن!». كان صوته حشرجة خفيضة.

«دعني أفعل هذا». رفع يده وأخذ المنديل مع جلوسي على حافة فراشه. تأوه متألماً فنهضت واقفة. خشيت أن أكون قد آلمته.

«لا تقلقي، يا روثي! الآن، صار كل شيء يؤلمني. ما من أحد مذنب في هذا. كل ما في الأمر أنني صرت هكذا. يسرني أن تجلسي هنا». رفع يده من جديد وأشار إلى المكان الذي كنت جالسة فيه داعياً إياي إلى الجلوس من جديد.

جلست بحذر وما عرفت ما يُنتظر مني قوله بعد ذلك. إحساس غريب أن أسمع شخصاً آخر يدعوني روثي. لقد كررت قول هذا الاسم مرات ومرات في طريقي من بوسطن إلى نوفا سكوشا؛ قلته همساً، وقلته بصوت عالٍ، بل صحت به في لحظة من اللحظات. بل إنني قدمت نفسي باسم روثي عندما توقفت في مطعم في نيو برونزويك. بدأ الاسم يصير مألوفاً لي كأنه صار منتمياً لي ... أخيراً.

«روثي! هل أنت بخير؟» جلست ماي على حافة السرير قبالتي، إلى جانب بن.

«أنا بخير. آسفة. كل ما في الأمر أن أحداً لم يخاطبني قبل الآن باسم روثي».

«لقد خوطبت باسم روثي مرات كثيرة جداً، لكنك لا تتذكرين. نحن نتذكر بدلاً منك، فلا تقلقي».

«صحيح. آسفة. أنت محق بالطبع. كل ما في الأمر أنني أحس ...»

تدخلت ماي عندما طال صمتي قبل أن أكمل جملتي، «طغت عليك مشاعرك».

«صحيح. طغت علي مشاعري، لكني مسرورة جداً لأنني هنا. مسرورة جداً جداً».

«انتظري فقط ريثما تستيقظ ماما من قيلولتها. آمل ألا تقتلها الفرحة».

ضحك بن وضحكت ماي. وحاول جو أن يضحك مثلهما. انضممت إليهم آملة أن يتسرب شيء من ضحكي إلى شقوق هذا البيت الذي عشت محرومة منه. لم أدر إن كنت منتمية إلى هذا المكان، إلى هذا البيت، إلى هؤلاء الناس. ولكن ... لم أدر أيضاً إن كنت منتمية إلى البيت الذي نشأت فيه. بالتأكيد، ما من طريقة لمعرفة هذا، بل إن التفكير فيه مضيعة للوقت. لكني فكرت فيه. تساءلت عن المجرى الذي كان ممكناً أن تتخذه القصة كلها لو لم أكن جالسة على تلك الصخرة، لو لم أكن شديدة الهدوء، شديدة الثقة بالناس. وفي الوقت نفسه، ساءني كثيراً أن أفكر هكذا لأن فيه خيانة لذكرى أبي وأمي، فكيف لا أحكي لأسرتي التي عثرت عليها الآن عن خالتي جون وعن أليس، عن الحب الذي حظيت به... حتى إن كان حباً مختلفاً.

أشار جو إلى الخزانة وقال، «ماي، ألا تناولينني حذاء روثي؟»

نهضت ماي وتناولت فردتي الحذاء الصغيرتين. كانت دمية مصنوعة من جوارب قديمة مستندة إلى لسان إحدى الفردتين. عين مصنوعة من زر لا تزال معلقة بخيط واحد. نفخت ماي الغبار عن الحذاء وناولتني إياه.

قال بن، «كان هذا حذاؤك. لم تسمح ماما لأحد بأن يرميه».

جرت أصابعي على جلد الحذاء. جلده عتيق، متشقق. لم

أستطع تصديق أن قدميّ كانت على مقاس حذاء صغير إلى هذا الحد. مدت ماي يدها وأخذت الدمية الموضوعة في الحذاء. سرحت شعرها المصنوع من خيوط قديمة مهترئة.

«هذا الحذاء جالس على الرف منذ ضياعك. أنزلتُه مرة واحدة كي تراه ليا». كان جو مرهقاً فأغمض عينيه بعد أن قال هذا، أغمضهما كي يستريح.

«ليا!؟»

أجابت ماي، «ليا هي ابنة جو. فتاة طيبة. لا شك عندي في أنها أفضل شخص بيننا جميعاً».

همس جو من غير أن يفتح عينيه، «بالتأكيد أفضل. سوف ترينها. صارت الآن تأتي دائماً».

لم أدر ما كان منتظراً مني فعله بالحذاء أو بالدمية. وضعت الحذاء على الفراش إلى جانبي ولسبب لا تعلمه غير قوة عليا، رفعت الدمية إلى أنفي واستنشقت نفساً عميقاً. خمسون سنة من مكوثها على رف في مكان بعيد جداً عن ولاية مين لم تخفف رائحة نار المخيم وأمسيات الصيف. لعل رائحة الدمية كانت رائحة غبار، لا أكثر، لكنها حملتني في تلك اللحظة إلى مكان آخر، إلى مكان كنت منتمية إليه.

«أظنني سأذهب مع بن لإعداد العشاء. سنترككما معاً كي تتعارفا من جديد». نهضت ماي واقفة وأشارت إلى بن بأن يلحق بها.

وعند مروره بي، ركع واحتضنني. «كنت واثقاً من أن التي رأيتها في بوسطن كانت أنت. في المظاهرة، كنت واثقاً من أنها أنت».

لا يـزال بـن رجـلاً قويـاً علـى الرغـم مـن سـنه. احتضننـي بذراعيـن قويتيـن كأنهمـا قادرتـان علـى احتضـان العالـم كلـه.

«آسـفة لأننـي لـم أدرك أنـك أخـي». أحسسـت دموعـي قبـل أن تنبجـس مـن عينـي ... لسـعتهما حرارتهـا مـن داخلـي. كأن الغصـة التـي كانـت فـي حلقـي قـد اندفعـت صاعـدة وخرجـت مـن عينـي.

«لسـت مذنبـة فـي شـيء مـن هـذا كلـه. ومـا مـن شـيء يسـتوجب أسـفك، يـا روثـي. مـا مـن شـيء أبـداً». نهـض بـن واقفـاً وسـار لاحقـاً بمـاي.

قـال لـي المنطـق إنـه محـق، لكـن المنطـق لا محـل لـه فـي وضـع مثـل وضعـي. كان فـي وسـعي أن أصيـح وأبكـي عندمـا وضعتنـي أمـي فـي مقعـد السـيارة الخلفـي. كان فـي وسـعي أن أجـري هاربـة. كان فـي وسـعي أن أتذكـر. لكنـي لـم أفعـل شيئاً مـن هـذا كلـه. لقـد تركـت نفسـي أصيـر نورمـا. والآن، أريـد أن أكـون روثـي. تشـبثت بالدميـة.

«كنـت أحلـم بـكَ. لـم أسـتطع رؤيـة وجهـك، لكنـي كنـت أسـمع ضحكتـك». بـدأ جـو يسـعل فهـز الجهـد جسـده كلـه. تناولـت منديـلاً ومسـحت اللعـاب عـن فمـه. راح جـو يبكـي مـن جديـد.

«أكـره أن يكـون هـذا مـا سـتتذكرينه منـي. أكـره أنكمـا، أنـت وابنتـي ليـا، لـم تعرفـا منـي غيـر جـو المريـض، جـو المحتضـر». استنشـق نفسـاً عميقـاً ... «لـم أكـن مـلاكاً. لا تسـمحي لهـم بـأن يقـول لـك هـذا بعـد رحيلـي. لقـد دمـرت نفسـي بنفسـي، لكنـي أتمنـى، أتمنـى فقـط، لـو أننـا التقينـا قبـل أن أصيـر هكـذا ... قبـل أن أغضـب علـى العالـم غضبـاً مجنونـاً».

«وأنـا أيضـاً. لسـت أدري سـبب حـدوث هـذا لنـا، لكنـي أحـب أن

أعرفك الآن، أن أسمع قصصك». جذبت طرف الخيط فاستقرت عين الدمية في مكانها.

«وأنا أحب سماع قصصك. يبدو لي أنك تعيشين حياة جيدة. هذا ليس قليلاً. لقد اعتنوا بك». بدأت أجفانه ترفرف، وصارت أنفاسه ضحلة. جلست أرقبه يغرق في النوم. مددت يدي وأمسكت يده ... يد باردة، هزيلة. ظللت ممسكة بها إلى أن آلمني ظهري فاضطررت إلى تركها. أعدتها إلى الفراش برفق وتسللت خارجة من الغرفة محاذرة أن أوقظه. أغلقت الباب بكل هدوء، ونزلت إلى الصالة. سمعت أصواتاً آتية من غرفة المعيشة.

كان بن يقول، «تفضلي، يا ماما. خذي شايك. روثي جالسة مع جو قليلاً، ثم ستأتي لرؤيتك».

أسرعت فدخلت الحمام. لماذا؟ لا أدري. أقفلت الباب وجلست على غطاء كرسي المرحاض. كان غطاء بلاستيكياً انثنى تحت ثقلي. طفا إلى السطح ذلك الإحساس بالذنب الذي كانت أمي تفرضه علي، لكني دفعته عني، أزحته جانباً. غسلت وجهي بماء بارد وخرجت إلى غرفة المعيشة.

كانت أمي ضئيلة الجسم، لكن ليس مثلما كان جو ضئيلاً. الشيخوخة جعلتها ضئيلة، لا المرض. عندما رأتني، وضعت فنجان الشاي على الطاولة الصغيرة إلى جانب كرسيها.

«كنت أصلي من أجلك». مدت إلي يديها فسرت إليها وأمسكت بهما ... «كنت أصلي أن تعودي إلى البيت، إلينا. لو كان أبوك حياً لكان في غاية السعادة لرؤيتك». لم تبك، لكن عينيها البنيتين الداكنتين صارتا لامعتين.

«أنا آسفة جداً!».

قالت، «روثي، ما الذي يجعلك آسفة، بحق الرب؟».

«لا أدري. أحسست أن هذا هو الشيء الصحيح الذي ينبغي قوله».

راحت تضحك. «لا بأس! لن أقبل اعتذاراً لا ضرورة له. والآن، عانقيني عناقاً كبيراً، عناقاً يعوض خمسين عاماً».

انحنيت وعانقتها. شممت رائحتها. لم تكن رائحة حطب وبطاطس، بل بودرة وشامبو بالورد. كانت رائحة أمي.

قلت لها بعد أن جلست على الأريكة قبالتها، «أتذكرك. لكني كنت أظن أنني أختلق تلك الذكرى، كنت أظنك حلماً. كنت أحلم بك، وكنت أيضاً أكتب عنك في يومياتي. أمي ... أعني لينور، أمي لينور ... كانت تقول لي إنني أحلم. تقول إن ما من شيء حقيقي في هذا».

ابتسمت أمي، المرأة التي ولدتني، التي عرفتني وأحبتني أكثر من أي شخص غيرها على وجه الأرض، ابتسمت ومسحت بضع دموع عرفتُ كيف تنساب على خديها.

«أمتلك بيتاً صغيراً على بحيرة في ولاية مين. الحقيقة أنه غير بعيد عن حقول التوت». توقفت كي ألتقط أنفاسي، كي أتذكر تماماً بحيث تعلم أنني أحببتها طيلة هذا الزمن. كان هذا أمراً تستحقه مني ... «وعندما أكون هناك وأقف في الماء الذي يغمر قدمي وأنظر إلى القمر، أستطيع أن أشم رائحتك، أن أسمع صوتك. كان هذا يحيرني طيلة تلك السنين، لكنه كان أيضاً يمنحني راحة من نوع غريب».

«يسعدني أنك بقيت متمسكة بشيء ما. لا بد أن الأمر كان صعباً عليك. يؤسفني هذا». ازداد بكاؤها شدة.

قلت محاولة تطييب خاطرها، «لسنا مذنبين في شيء من هذا كله».

حاولت أن تبتسم. «يحزنني أن أباك لم يبق كي يعلم أنك بخير. كان رجلاً صالحاً. لكني أعتقد أننا سنكون كلنا معاً، يوماً من الأيام، في ذلك المكان العظيم بعد الموت. وأنا واثقة من أنه سيكون سعيداً لرؤيتك. تشارلي سيكون سعيداً أيضاً».

لست مؤمنة؛ لكن ثمة أمراً واحداً مشتركاً بين أمي هذه وأمي تلك، أمراً مشتركاً بينهماغير حبهما لي ... إيمانهما بإله محب. ومن أجلهما، من أجل المرأتين اللتين كانت معاناتهما كبيرة جداً، جارَيتُها.

قلت لها، «ثمة روح أخرى ستكون في انتظارنا. كانت لي بنت. طفلة صغيرة جميلة، لم تفلح في الخروج إلى هذه الدنيا، لكنها ستكون معنا في الحياة الآخرة».

مالت صوبي وأمسكت يدي، «ما اسمها؟»

«سارة».

همست أمي، «سارة». أسندت جبهتها إلى جبهتي. لم أشعر يوماً بأنني محبوبة مثلما شعرت لحظتها ... «سنضع اسمها في إنجيل العائلة، سنضعه إلى جانب اسمك».

بعد أول عشاء سبت لي مع أسرتي، طلبت مني أمي أن أذهب معها إلى الكنيسة. «أحب أن تتعرفي على الأب مايكل».

كنت جالسة على الأريكة، قبالتها. كانت هذه عادة ألفتها سريعاً، وكانت سبيلاً إلى أن أفهم الأم التي لم أعرفها طيلة حياتي، سبيلاً إلى رؤية عينيها عندما تكونان فرحتين وإلى فهم تجهمها عندما يضايقها أمر من الأمور.

قلت، «يسرني هذا». وما كنت كاذبة. صحيح أنني ما كنت أحب الكنائس في طفولتي؛ لكن هذا أمر مختلف. وددت أن أقوم بهذا الأمر الذي يعني لها الكثير.

صبيحة اليوم التالي، ارتديت أفضل ما أتيت به معي من ملابس وأجلست أمي في سيارتي وانطلقنا صوب الكنيسة.

سألتها عندما صارت جالسة في السيارة إلى جانبي، «ألن يأتي معنا أحد؟».

«لا. قلت لهم أن يبقوا في البيت. أريد اليوم أن تكوني لي وحدي». مالت إلي وأمسكت يدي. تركتها ممسكة بها إلى أن صارت مستعدة لتركها.

كانت الكنيسة مبنى متيناً مصنوعاً من الخشب، وكانت حديثة الطلاء. مجموعة من الأشخاص المصطفين في الخارج في انتظار مصافحة القس. تنحى أكثرهم جانباً وتركونا نتقدمهم. لاحظت التفاتات غريبة فأدركت أن عودتي كانت مدار أحاديث تلك البلدة الصغيرة. تصادف عيناي عيونهم فيبتسمون ابتسامات خجلى ويشيحون بوجوههم.

«أيها الأب مايكل، هذه هي ابنتي روثي».

صافحني القس وقال، «نعم، لقد أتى بك الرب الرحيم إلى ديارك. أنا في غاية السرور لرؤيتك هنا مع والدتك. لم تتوقف

يوماً عن الحديث عنك وعن تذكرك. أحس من خلال قصصها أنني عرفت تلك البنت الصغيرة التي هي أنت». ظل ممسكاً بيدي. أردت أن أسحبها، لكني لم أرد أن أكون وقحة. بدأت يدي تتعرق، لكن الفرحة البادية على وجه أمي جعلتني أتركه ممسكاً بيدي زمناً أطول قليلاً. تركها أخيراً ودخلنا الكنيسة. كان داخل الكنيسة معتماً ... جدران خشبية ونوافذ طُلي زجاجها بلون أزرق. الجو داخل الكنيسة أشد برودة من الخارج. فاحت رائحة بخور وخبز قديم وعصير عنب بائت تخالطها كلها روائح العطور التي يفضلها الكهول. كان القداس طويلاً، غير مألوف، لكني سررت لجلوسي معها، يدها في يدي، أصغي إلى صوتها الشائخ يتهدج عندما تنشد التراتيل وأراها تومئ برأسها وتبتسم كلما أعجبها شيء مما يقال في القداس.

«فلنذهب الآن لتناول الغداء ... على حسابي!». كانت متألقة ببدلتها البنفسجية وشفتيها المطليتين باللون نفسه ... يانعة كلها بعد سماعها كلمات الرب.

«موافقة. أين نذهب؟ تذكري أنني لا أعرف طريقي هنا. أنت ستوجهينني».

«هذه ليست مشكلة، ما عليك إلا أن تنعطفي يساراً وتتابعي السير إلى أن نرى البحر. هناك، فوق الجبل».

انطلقت بالسيارة ولوحت بيدي للواقفين عند الكنيسة. كان واضحاً أنهم لا يزالون حائرين لوجودي بينهم.

مع خروجنا من البلدة، بدا لي أن أمي ازدادت نشاطاً في سرد قصصها. مررنا ببيوت المزارع وبالحقول المفتوحة. راحت تحكي لي عن روثي التي كنتها.

«أتذكر يوم مولدك. بعد هذه السنين كلها، لا أزال أتذكره كأنه يوم أمس. كنت شيئاً صغيراً جداً، وكنت لا تزالين لزجة، لكن شعرك الكثيف الأسود كان طويلاً. أقسم أنني كنت أستطيع أن أجدله لحظة ولادتك». ضحكت أمي لهذه النكتة. واصلنا تقدمنا على سفح الجبل إلى أن استولت الأرض من جديد وحلت محل الأشجار التي كانت تحف بالطريق من الجهتين مزارع وحقول منبسطة جديدة.

«مع أنك مولودة في شهر ديسمبر، فقد ولدتك تحت الشجرة التي شهدت قدوم أجيال من الأطفال الهنود إلى هذا العالم. كان يوماً بارداً، لكنا أشعلنا ناراً، وكان لدينا قدر ما نشاء من الشاي. طالت ولادتك قليلاً، لكنك كنت مستحقة ذلك العناء. كنت آخر أطفالي وآخر من ولد تحت تلك الشجرة. غسلك والدك بماء دافئ معطر بأوراق الصنوبر. كانت رائحتك مثل رائحة عيد الميلاد».

«غريب!».

«ما الغريب؟»

«كنت أحتفل دائماً بيوم مولدي في الثالث والعشرين من أغسطس، ذلك هو اليوم الذي قالت لي أمي، لينور، إنه يوم مولدي».

ظلت بعض الوقت صامتة، ظلت تنظر من النافذة وترقب العالم يمر بنا.

«كان ذلك يوم ضياعك. كان واحداً من أقسى الأيام في حياتي كلها. أظنني أفهم سبب اختيارها هذا اليوم».

بدأت الأرض تنحدر أمامي من جديد نازلة صوب الماء. صارت زرقة الخليج خلفية لألوان الأرض الخضراء. بلغنا منعطفاً حاداً يتجه يميناً محاذياً خط الشاطئ. وأمامنا، رأيت قمة منارة مطلية بخطوط أفقية سوداء وبيضاء. بضع سيارات متوقفة إلى جانب الطريق، وبشر جالسون إلى طاولات النزهة يأكلون من أطباق من الورق المقوى.

«لديهم هنا أفضل أسماك مع شرائح البطاطس. أسماك آتية من البحر مباشرة». أشارت إلى حيث كانت بضعة قوارب صيد مربوطة إلى مرسى تتهادى على وقع الأمواج. الهواء هنا أشد برودة من هواء الوادي، وروائح زيوت الأخشاب ومياه البحر مختلطة بروائح الأسماك المقلية ... روائح ملأت أنفي. طلبنا طعامنا عبر نافذة مفتوحة في جانب المنارة. علمت من لوحة على الجدار أن المنارة لا تزال عاملة، لكن فيها أيضاً مطعماً للوجبات السريعة ومكتباً للبريد. فكرت لحظة في مارك، في أنه سيجد هذا كله ساحراً. عثرنا على طاولة من طاولات النزهات مع مظلة، وجلسنا كي نأكل.

«أخبريني عن أبي ... إن كان هذا لا يزعجك».

«أوه، هذا لا يزعجني أبداً. أستطيع أن أتحدث عنه إلى الأبد». تناولت لقمة من طعامها وابتسمت لي. سألتني، «لذيذ، أليس كذلك؟»

كان لا بد لي من الإقرار بأن الطعام لذيذ.

«التقيت والدك في هذه البلدة. أتى لزيارة شقيقته ليندي قبل أن تتزوج وتنتقل جنوباً. كانت لديه عطلة في مدرسته الهندية،

وكنت مع أبي. كان يعمل نجاراً يستأجره الناس لبناء البيوت. كانوا يستأجرونه مع أنه هندي لأنه يتقن عمله. كانت ثمة معرفة بين ليندي وأبي. لست أدري كيف، لكنهما كانا على معرفة. وهكذا ذهبنا إلى بيتها لتناول لحم الغزال الذي تبرع ليندي في إعداده؛ وكان والدك هناك. كان وسيماً جداً، طويل القامة. لم أستطع الكف عن النظر إليه. كنت في الخامسة عشرة، ووقعت في حبه على الفور. قال لي بعد ذلك إنه علم لحظة دخولي مطبخ ليندي أنه سيتزوجني».

كانت على ذقنها نقطة من صلصة التارتار فمددت يدي من فوق الطاولة ومسحتها. ابتسمت لي مثلما تبتسم أم لابنة حسنة السلوك.

«كان عليه أن يعود إلى تلك المدرسة سنة أخرى، لكنا صرنا نتراسل. احتفظت بتلك الرسائل، إلا أن العث أكلها فصارت تراباً. لكني أتذكر شيئاً مما كان يكتبه لي. وقد كان بارعاً أيضاً. ترك المدرسة الهندية عندما بلغ السادسة عشرة، ثم أتى وسأل أبي إن كان يقبل زواجه مني. حصل على عمل في المطحنة قبل أن يطلبني من أبي. أراد أن يبين له أنه صار رجلاً قادراً على تحمل مسؤولية الزواج».

بدأ طعامي يبرد. لكن اهتمامي بالتركيز على القصة كان أكبر من اهتمامي بالطعام. ومن خلفنا، بدأ الجزر وبدأت مياه البحر تراجعها. «علمتني ليندي الخياطة فعملت حيناً من الزمن خياطة إلى أن وُلد بن». كانت سعيدة بأن تروي لي هذه القصص، وكنت راغبة في سماعها وتذكرها.

بعد أن فرغنا من طعامنا وصار في يد كل منا مخروط من الآيس كريم، جلسنا على مقعد ننظر إلى مياه البحر المتراجعة وإلى اقتتال النوارس على ما تركه الناس من فطائر الهوت دوغ وشرائح البطاطس المقلية.

سألتني وهي تلعق الآيس كريم بالفانيليا، «هل كانوا طيبين معك ... تلك الأسرة الأخرى؟»

«أجل. أحبوني بطريقتهم الخاصة. اهتموا برعايتي».

قالت، «جيد». سكتت لحظة ... «قد أستطيع مسامحتهم يوماً من الأيام».

تلك الليلة، عدت إلى غرفتي في الفندق ودوّنت كل ما سمعته من أمي. كتبت وكتبت إلى أن آلمتني يدي. ثم اتصلت بخالتي جون. كنت قد طلبت منها أن ترافقني في هذه الرحلة، لكنها قالت إن لا مكان لها هنا. قالت أيضاً إنها تحب أن أحكي لها عنها عندما تسنح لي فرصة.

«خالتي جون، مرحباً!».

«أهلاً، يا نورما، يا حبيبتي!». انتظرت أن أتكلم.

«إنهم لطيفون جداً، يا خالتي جون». بدأت أبكي من جديد ... «إنني أبكي كثيراً. إذا استمر الأمر هكذا فأظن أنه لن تبقى لدي دموع». نشقت بأنفي.

«اتركي دموعك تجري، يا نورما ... أو يا ...»

«نورما، يا خالتي جون ... خاطبيني باسم نورما».

«دعي دموعك تجري! كانت أليس تقول دائماً إن حبس الدموع مثل حبس البول. يضرك الأمر في النهاية. لذا، من الأفضل أن

تتركي دموعك تجري كلما أحسست حاجة إلى ذلك».

ضحكت وقلت، «هل قالت أليس هذا بالفعل؟»

«الحقيقة أنه كان من الممكن تقول هذا. أنت تصغين إلى الكلمات الحكيمة عندما تظنين أنها آتية من أليس».

«أصغي إليك أيضاً، يا خالتي جون».

«إذاً، احك لي عنهم!».

قصصت عليها كل شيء ... إعادة كاملة للأيام القليلة الماضية، كاملة بكل ما فيها من ضحكات ودموع وحزن على جو. أخبرتها عن حذائي القديم وعن الدمية التي هي الآن جالسة عند وسادتي في غرفة الفندق، وعن تاريخ ميلادي الحقيقي. أخبرتها عن عيني أمي البنيتين، وعن حكمة أختي ماي وعن القوة الهادئة عند أخي بن. قلت لها إنني شيء اسمه «ميكماو»، وإن بن وماي وعدا بأن يشرحا لي معنى ذلك. قلت لها إن سمرة جلدي ولون عيني الداكن ليسا مختلفين عما في ذلك البيت. وكانت خالتي جون تهمهم وتبدي عجبها في اللحظات الصحيحة، وتتنهد وتضحك عندما أتوقع منها أن تتنهد أو تضحك. قارب الوقت منتصف الليل، وكان جسدي في غاية الإرهاق عندما قلت لها كل شيء وصرت مستعدة لإعادة سماعة الهاتف إلى مكانها.

«أحبك، يا خالتي جون».

«وأنا أيضاً أحبك. أتمنى لك أحلاماً حلوة!».

استيقظت مع طلوع الشمس، على الرغم من سهري حتى ساعة متأخرة. أعددت فنجان قهوة. استخدمت آلة صنع القهوة

الصغيرة التي في غرفة الفندق، ثم خرجت متجهة إلى البيت. لاقتني ماي عند الباب.

«ادخلي. هل تحبين مساعدتي في إعداد الإفطار؟».

وحدها ماي كانت مستيقظة. كان البيت هادئاً. ناولتني بضع حبات من البطاطس.

«أول كلمتين عليك من لغة ميكماو عليك تعلمهما هما *تاباتات وبيتيوي*. بطاطس وشاي». ضحكت وناولتني مقشرة البطاطس.

كررت الكلمتين إلى أن صرت واثقة من حفظهما.

«هل تتكلمين ...»

«لغة ميكماو؟ لا. ما عاد أحد منا يتكلمها. ماما وبابا كانا يعرفانها، لكني أظنها تخبو في ذاكرتها مع تقدم السن بها. لم تعلمنا إياها أبداً. كنا نعرف بعض الشتائم لكنها ضاعت، نسيتها. أنا وبن نحاول تعلم اللغة، لكن ذلك أمر صعب. إلا أن الجميع يعرف كلمتي *تاباتات وبيتيوي*». ضحكت من جديد ... «تستطيعين تعلمها معنا».

«أتمنى هذا». نظرت إلى يدي الرطبتين بنشاء البطاطس ثم تابعت التقشير. «ماي ...» توقفتُ لحظة، حاولت التفكير في الكلمات المناسبة ... «ألا تجدين غرابة في عدم إدراكي أبداً أنني هندية؟ بل إنني لم أشك في الأمر! ألا ينبغي أن يعرف المرء هذا بإحساسه؟».

«الحقيقة أن هذا سؤال ثقيل في هذه الساعة المبكرة من الصباح». ضحكت ماي وضحكت معها ... «لا! ظل البيض قروناً يحاولون إخراج ما هو هندي منا. ليس غريباً ألا تتذكري. وأما

الآن، بعد أن عرفت، فقد صار عليك أن تخبري الآخرين. عليك أن تحاولي الإحساس بأنك هندية. لا يجوز أن نترك أولئك الأوغاد يفوزون. علينا استعادة ما أُخذ منا؛ علينا جميعاً. يبدأ هذا بأن تعلمي أن بيتيوي تعني الشاي».

ضحكت ماي.

ما أكثر ما يضحكون جميعاً ... هذه الأسرة، أسرتي! يضحكون حتى عندما يكون الكلام جاداً. كان هذا أمراً جديداً علي. كان أمراً جديداً أن تظهر هذه المشاعر كلها إلى العلن.

أعدت ماي الشاي بينما قشّرت كمية من البطاطس كافية لنا جميعاً ثم قطعتها قطعاً صغيرة لقليها مع البيض. خبز من صنع بيتي مستقر وسط الطاولة. قلت ماي البيكون. أعددت صحناً وهممت بالخروج إلى الممر كي آخذه إلى جو، لكن بن ظهر عند الزاوية حاملاً جو.

قال جو، «أحببت أن آكل جالساً إلى الطاولة مع الأسرة كلها».

أجلسه بن إلى جواره. وبعد أن جلس الجميع، تلت أمي صلاة قصيرة. لم أعتد أبداً أن تجعلنا أمي نتلو صلاة قبل الطعام مع أنها كانت ملتزمة بالكنيسة. كان هذا أمراً جديداً بالنسبة إلي. كانت الصلاة قصيرة جداً، ثم ملأت أذني جلبة الأسرة التي راحت تتناول طعام الإفطار. اهتم بن بمساعدة جو الذي كان يجد صعوبة في حمل الطعام بالشوكة إلى فمه. وكم كانت رؤية ذلك لطيفة! ... رجل يُطعم شقيقه ويمسح ذقنه كلما سقطت عليها نقطة زيت.

«مرحباً!». سمعت صوت إغلاق باب البيت، ثم ظهرت شابة

في أواخر العشرينيات، على ما أظن. دخلت المطبخ. انحنت وطبعت قبلة على قمة رأس جو.

«صباح الخير، يا بابا. صباح الخير، يا كيجو». زرعت قبلة على رأس أمي ... «عمتي ماي، عمي بن!». ألقت في اتجاهي نظرة سريعة قبل أن تلتقط قطعة بيكون من صحن ماي وتلقي بها في فمها ... «وأنت ينبغي أن تكوني عمتي روثي». مدت يدها من فوق الطاولة وصافحتني.

«وأنت ينبغي أن تكوني ليا».

«أعترفُ بهذا».

غيّر بن مكانه فجلست ليا إلى جوار جو. أمسكتُ الشوكة وتابعت ما كان يفعله بن ... غرست الشوكة في قطعة بطاطس ورفعتها إلى فم أبيها. ابتلعها جو بصعوبة، ثم تناول جرعة ماء.

«أنت وليا كأنكما في وضع واحد. تعرفت عليها منذ شهور قليلة. ثمة الكثير مما ينبغي تعويضه، ولم يبق لي وقت طويل». حاول جو أن يضحك، لكن ضحكته انقلبت سعالاً. وعندما استعاد أنفاسه قال، «أظن أن ما من أحد غيري يجد موتي أمراً طريفاً».

***

في صباح غائم بارد بعد نحو أسبوع وبضعة أيام من إقامتي في البلدة، كان جو وماما نائمين، وخرج بن مع ماي للتسوق، وبقيت وحدي، أول مرة، في البيت الذي عرف السنوات الأولى من حياتي. رحت أمعن النظر في الصور العائلية. الفتاة الصغيرة التي كانت أنا رأيتُها مضيّقةً عينيها في الشمس، وكانت على وجه تشارلي الوسيم ابتسامة كبيرة جداً لا يملك المرء إلا أن يحس

بهجة عندما ينظر إليها. وجدت الصورة التي أرسلتها إليهم، تلك الصورة العابسة التي رأت خالتي جون أنها جميلة جداً. لقد وضعها أحدهم في ألبومٍ بين صور بن وماي وتشارلي وجو. وها أنا هنا، ملصقة على صفحة الألبوم خلف ستار من النايلون كأنني لم أغب أبداً. كنت على أهبة البكاء، لكن الباب انفتح ودخلت ليا. حتى الآن، لم نلتق على انفراد، نحن الاثنتان. لكن كلاً منا كانت جديدة على جو، جديدة تماماً. هذا ما جعلنا تواقتين إلى مزيد من الوقت معه.

علّقت سترتها على ظهر كرسي. «هل تركوك وحدك؟»

«لا. بعضهم نائم وبعضهم يتسوق. والدك نائم، لكني واثقة من أنه يحب أن توقظيه».

«لا. سأتركه نائماً. أظن أن هذا هو الوقت الوحيد الذي يرتاح فيه من ألمه».

جلست ليا إلى جانبي وبدأت تحكي لي عن الصور التي في الألبومات. حكت لي عن عطلات نهاية الأسبوع كلها التي كانت تمضيها هنا في طفولتها، تمضيها مع جدها وجدتها. حكت لي عن أبي الذي كان هادئاً، لكنه ظل قوياً طويل القامة حتى في شيخوخته. لقد أخذها إلى الصيد وعلمها كيف تصنع من الأغصان الصغيرة شراكاً لاصطياد الأرانب وكيف تعزف الكمان. قالت إنها افتقدته كثيراً. وأنا افتقدته أيضاً، لكن بطريقة أخرى. أمضت ليا معه أكثر من عشرين سنة. وأنا ليس لدي شيء غير صوره. حكت لي عن أمها، كورا.

«لا يزالان متزوجين، هل كنت تعلمين هذا؟»

مكتبة
t.me/soramnqraa

«لا».

«نعم. لقد اختفى زمناً طويلاً جداً. والبطاقات البريدية التي أرسلها إلينا كانت تأتي من أماكن مختلفة كثيرة. وجدوه ذات مرة عندما كان في الغرب، لكنه لم يرد العودة. بعد ذلك، وبعد مرور زمن، اكتشفوا أنه في ولاية مين. قررت كيجو، جدتي، أن من الأفضل تركه وشأنه».

«لماذا لم يعد من أجلك؟»

«لم يدر بأمري إلا بعد زمن طويل. هذا ما أرادته أمي. قالت كيجو إنه كان روحاً ضالة؛ وعلى الروح الضالة أن تجد بنفسها سبيلاً للعودة إلى ديارها».

أمسكت يدها فقالت، «أظنه يخفي عن أموراً عندما نتكلم. وأظنه يخشى أن يقول شيئاً يجعلني أبتعد عنه. الظاهر أنني غير قادرة على إقناعه بأنني باقية طالما ظل هنا».

بدا لي أنني انسجمت هنا بسرعة كبيرة ... تقريباً، كأنني لم أضيعهم ولم يضيّعوني. سرعان ما صارت لي ساعات محددة أمضيها مع جو، أنام على السرير المجاور له وأصغي إلى تنفسه، إلى تنفسه الصعب الضحل، وأجلب له الماء عندما يجف فمه، وأحرص على أن يتناول أدويته في الوقت الصحيح. كان معترضاً على هذا، وكان يقول لي إنني لا ينبغي أن أحمل هذا العبء؛ لكن مساعدته بدت لي أمراً صائباً.

كانت الشمس قد بدأت شروقها، وكنت مستلقية هناك أنظر إلى السقف وأرقب شذرات الغبار راقصة على شعاع الشمس

عندما أطلق جو سعلة صغيرة وقال لي، «أظن أن علينا أن نذهب نزهة بالسيارة». استويت جالسة، واتكأت على مرفقي فواجهته. «لا أظنها فكرة حسنة. ألن تكون النزهة مؤلمة لك؟».

«ما عدت مبالياً بهذا. من الأفضل لي أن أتحرك، أن أكون حياً خلال الزمن القصير الباقي لي. أعلم أن أجلي بات قريباً جداً وأنه قد يأتي في أي يوم، لهذا، فلنذهب في نزهة؟»

في وقت لاحق من ذلك الصباح وبعد مناقشات كثيرة، أجلس بن جو على مقعد السيارة الأمامي وثبّت حزام الأمان بعد أن وضع وسائد كثيرة من حوله كي يوفر له أقصى راحة ممكنة. ثم انطلقنا. جلستُ مع ماي في المقعد الخلفي، وتولى بن قيادة السيارة. ظلت ليا مع جدتها. لوحتا لنا بيديهما من عند باب البيت خلال خروجنا من الممر الطويل المفروش بالحصى.

سألته ماي، «هل أنت مرتاح، يا جو؟». ووضعت يدها على كتفه.

أطلق جو زفرة ثقيلة، «أنا بخير». كان كاذباً، لكنني صرت أفهم أن لا معنى لمجادلة رجل محتضر.

مضينا بالسيارة طيلة النهار متجولين في عدد من الطرق، الطرق نفسها التي سلكتها مع مارك منذ سنين طويلة. بدا لي بعضها مألوفاً وبعضها الآخر جديداً علي. وبعد تناول الغداء، توقفنا إلى جانب طريق ترابية حيث كانت أطلال بيت صغير لا تزال ظاهرة فوق أساساته. أغصان كرمة جميلة ملتفة على أطر الأبواب الخالية وحواف الزجاج المتكسر. مرج فائضٌ خضرة وأزهاراً برية وأعشاباً طويلة. كان مشهداً حزيناً، لكنه جميل أيضاً.

«كان هذا بيت العمة ليندي. رحلتْ منذ زمن بعيد، لكنها كانت أفضل من تطهو لحم الغزال». ضغط جو على مفتاح كي ينزل زجاج نافذته واستنشق نفساً عميقاً كأنه يمكن أن يشم رائحة مطبخ العمة ليندي. «كانت شقيقة بابا. الدرب المفضية إلى مخيم الصيد الذي بدأه جدي ليست بعيدة، لكننا لم نعد قادرين على العثور عليها».

صمتوا جميعاً، غرقوا في ذكريات لا أمتلكها. لكني صمتُّ مثلما صمتوا ... وبطريقتي الخاصة، حزنت على تلك التي فقدوها.

قال بن، «كانت امرأة ضخمة، يا إلهي، كانت ضخمة».

قال جو بصوت واهٍ، «كانت ممتلئة حباً».

«الصحيح أنها كانت ممتلئة لحماً وخبزاً. لكن ... حباً أيضاً، يا جو. أنا متفقة معك». ضحكت ماي ضحكة صغيرة.

«كنا نخشى دائماً أن تهرسنا عندما تعانقنا. وأنت كنت صغيرة جداً، يا روثي. كنا في ذعر دائم من أن صدرها يمكن أن يبتلعك ذات يوم». بدأ جو يضحك. ضحك عميق أجش. ثم بدأت كتفا ماي ترتعشان. شدت على فمها محاولة أن تكتم ضحكتها، لكن الضحكة انفجرت. ثم انضم بن إليهما. الضحك معدٍ مثله مثل التثاؤب. وما كان أمامي من خيار غير أن أشاركهم الضحك بدوري. سرعان ما رحنا نذرف دموعاً جعلت الرؤية صعبة. انثنت ماي على نفسها ممسكة بطنها. «كفى! كفى!». حاولتُ التوقف عن الضحك. لكنها كانت تفلح في التقاط أنفاسها مرة، ثم تنظر إلى بن فتبدأ الضحك من جديد.

أفلحت في القول من خلال أنفاسي التي تقطعت، «أريد أن أبول».

كان علي أن أبول إلى جانب الطريق في حين وقفت أختي حاملة سترتها بيدها كي تحجبني عن الآخرين. أصداء الضحكات تتردد بين الأشجار.

صحت، «لقد بلت على حذائي»، فازداد ضحك ماي.

هدأت ضحكات شقيقينا عندما عدنا إلى السيارة، لكن نظرة واحدة من جو في اتجاه بن جعلت الضحك يبدأ من جديد. ظللنا زمناً طويلاً نضحك في السيارة، زمناً طويلاً أنسانا السبب الذي جعلنا نضحك أصلاً. لم نهدأ إلا بعد أن بدأ جو يسعل.

قلت، «شكراً!».

نظرت ماي إلي، «شكراً على ماذا؟»

«لا أظنني ضحكت بهذه الشدة كلها طيلة حياتي».

عدنا إلى البيت سالكين طريقاً طويلة. صعدنا الجبل الشمالي، وسرنا على امتداد ساحل خليج فندي. وفي ضوء شمس الغروب، استحال لون الغيوم وردياً، واستحال أرجوانياً. غروبٌ كالقطن ... هكذا دعته ماي. أنزلنا زجاج النوافذ وتركنا هواء البحر المالح البارد يغسل وجوهنا إلى أن توردت وجناتنا. تابعنا السير إلى أن صارت السماء داكنة الزرقة، ثم صارت سوداء، إلى أن تألقت النجوم ساطعة من فوقنا. ثم توقفنا في حقل وأعان بن جو على الخروج من السيارة. وسط ذلك الحقل، في المكان الذي أنا واحدة من أهله، مع الناس الذين أحببتهم دائماً مع أنني لم أعرفهم أبداً، فرشنا على الأرض بطانية وجلسنا نرقب النجوم مبحرة في السماء.

- 16 -

جو

ثمة سلام يأتي عند اقتراب الموت كثيراً. لا أستطيع فتح عيني، لكني أحس يد ليا في يدي وأود أن يكون هذا آخر ما أتذكره ... لمسة يد ابنتي. أعلم أنهم موجودون هنا، في هذه الغرفة. حتى عندما صار الموت قريباً مني هذا القرب كله، لا أزال غير مقتنع تماماً بوجود عالم آخر، أو بأن لي مكاناً فيه. لكني قادر على الإحساس بأن بابا وتشارلي واقفان عند الزاوية، واقفان في انتظاري. ما عدت أحس ألماً، بل صار جسدي خفيفاً كجسد طفل.

لا أود أن تتالى صور حياتي في ذهني. أود أن أظل في هذه اللحظة، أن أظل مع الناس الذين أحببتهم، أشقاء وشقيقات وأشباح وابنة لم أستحقها أبداً، أن يكونوا جميعاً في مكان واحد ... معي. أظن أن هذا قد يبدو لأي شخص آخر أمراً غريباً، لكن هذه اللحظة قد تكون أسعد لحظة عشتها منذ ذلك اليوم الذي انقض فيه غراب واختطف قطعة الخبز التي رميتها في حقل التوت في ولاية مين.

- 16 -

روثي

مات جو صباح يوم سبت. ابتسم لكل واحد منا قبل أن يغرق في النوم رويداً رويداً، ثم في الموت. موت هادئ لرجل هادئ. الرجل الذي أمضى الشطر الأكبر من حياته وحيداً، كان محاطاً بالحب عندما جاء أجله. بكت ليا عليه وضمت يده وقبّلتها. بقينا أنا وماي جالستين مثلما تفعل النساء القويات ... تركناه يمضي. كان بن واقفاً عند الباب كأنه مستعد لمواكبة شبحه عند اجتيازه العتبة. رفضت ماما أن ترى شيئاً. ظلت تبكي من غير صوت جالسة على كرسيها في غرفة المعيشة ترقب الحساسين آتية من أجل الطعام.

أُحرق جثمان جو نزولاً عند رغبته. أراد أن يُدفن نصف رماده في نوفا سكوشا إلى جوار تشارلي، وأراد أن يُدفن النصف الآخر في ولاية مين. وبعد عشرة أيام من قداس الجنازة، قدت سيارتي خارجة إلى الطريق وكانت ليا جالسة إلى جانبي. مضينا صوب حقول التوت، وكانت بقية الرماد معنا على مقعد السيارة الخلفي.

بدا الكوخ الصغير مثلما رأيته آخر مرة. كان طلاؤه لامعاً في ضياء العصر الناعم. جرت أصابع ليا على سوق الأزهار، على حواف الغيوم، على قمم الأمواج الزرقاء، جرت عليها معجبة بعمل أبيها.

إلى جانب الدرجات التي أقامها جو، دفنا بقية رماده. وعندما وقفت مع ابنة أخي، يدي ممسكة يدها، ابنة أخي التي تشبهني قليلاً، بدأتُ أتحرر من تلك الأشباح التي سكنتني.

شكر وتنويه

أنا واحدة ممن يقرؤون كلمات الشكر التي تكون في أواخر الكتب. ولهذا، أعلم كيف يسير الأمر. لذا، سوف أعتذر في البداية ممن سأغفل ذكرهم، لا محالة. أنا آسفة حقاً!

وثانياً، أشكر أسرتي وأصدقائي الذين ساندوني في هذا المشروع وعززوا قدرتي على الوصول به إلى غايته. أشكركم على صبركم وعلى إصغائكم إلي أتكلم عن هذا الأمر وعلى اهتمامكم به خلال السنوات الأربع الماضية. أشكر خاصة تايلور لايتفوت الذي كان أول قرائي وأكبر مسانديّ. وأشكر أبي الذي كان يحكي القصص نفسها مرة بعد مرة ويضحك ذلك الضحك الشديد في كل مرة منها، أبي الذي أخذني إلى ولاية مين كي أرى حقول التوت.

أشكر مايكل لوينثال وإيرين سوروس وكيندرا فيش وثيو دي كاستري وإنغريد كنان وزاهدة رحمة الله وكريس بيلي وتشارلي فريست، من مجموعة «بالف إنيرجينغ رايتف إنتنسف» الذين كانوا أول من رأوا الفصل الأول من هذا الكتاب وشاركوا في ورشة عمل من أجله. لقد زوّدتموني بالثقة اللازمة لمراجعة عملي ومواصلة المضي في هذه الطريق.

أشكر تشيب ليفينغستون وبام هاوستون وبراندون هوستون وجونا كوتلر وجيليان اسكويفيا كوهن وتاشينا إميري ومايكل أويل وكروز كاستيلو وماكسي موا وشانتال روندو ويفل، زملائي والمشرفين علي في «معهد الفنون الهندية الأميركية»، وذلك

لمساعدتهم إياي في أن أصير كاتبة أفضل ولمنحهم إياي ذلك الحب الذي يحتاج إليه كل كاتب.

أشكر مارلين بيدرمان، وكيلتي الصبور على الدوام التي انتظرت وانتظرت ثم أعملت سحرها وساعدتني في تحقيق حلم لازمني طيلة حياتي، حلمُ جعلِ قصة أكتبها تخرج إلى العالم. وأشكر محررتي جانيس زاوربني لأنها استطاعت أن ترى شيئاً ذا قيمة في مخطوطي الأولي فساعدتني في تكوين الكتاب وفي تمويله. أنتما رائعتان.

وقد ابتسم لي الحظ كثيراً عندما هيأ لي أن أعمل تحت إشراف ثلاث نساء رائعات. أشكرك يا ستيفاني دوميت التي جلست في شرفة بيتي الخلفية بعد ظهر يوم صيفي مع كأس نبيذ واستمعت إلى فكرة كانت في رأسي عن رواية مستوحاة من قصص سمعتها من أبي. كانت ستيفاني أول شخص يقول لي، «عليك أن تكتبي هذا». وأشكر كاثرينا فيرميت التي كنت معجبة بها منذ عهد بعيد ثم فاجأتني كثيراً وأسعدتني عندما اختارتني للمشاركة في برنامج «رايترز ترست رايزينغ ستارز». نصائحك اللطيفة وأحاديثك الأخّاذة زرعت في نفسي ثقة بأنني سأدخل مكتبةً ذات يوم فأرى كتابي على الرف.

أخيراً، أشكر كريستي آن كولين، معلمتي، مرشدتي (لا تحب أن أقول لها هذا)، صديقتي العزيزة العزيزة. لقد أبصرت في كتابتي شيئاً لم أستطع أنا نفسي أن أبصره. قرأتْ ما هو حسن وما هو رديء وما هو قبيح لكنها ظلت مؤمنة بي حتى عندما

فقدت إيماني بنفسي. لازمتني كريستي منذ بداية رحلة الكتابة؛ وأنا مدينة لها بالقمر وبالنجوم.

«ويلاليوك» لكل من ساعدني في تحقيق حلمي. أتمنى أن تعلموا كم يعني هذا بالنسبة إلي. وأقول أخيراً لكل من قد يصادفون هذا الكتاب: أتمنى أن تستمتعوا بقراءته.

مكتبة
t.me/soramnqraa

إذا أعجبك الكتاب وترغب
بقراءة كل جديد
انضم لمكتبة على تلجرام
حتى لا يفوتك شيء

A M A N D A P E T E R S

قاطفو التوت

من الكتب الأكثر مبيعًا على المستوى الوطني
نالت جائزة "بارنز ونوبل ديسكفر" سنة 2023
نالت ميدالية "أندرو كارنيجي" للتميز في فن الرواية

طفلة من شعب الميكماك في الرابعة من عمرها تضيع في حقول التوت في ولاية مين، فتكون تلك الحادثة بداية لغز يهزّ كيان أسرة ويشتتها على مدار خمسين عامًا.

"حكاية مروّعة عن فراق يحلّ بأسرة من السكان الأصليين... في قاطفو التوت، تخوض بيترز تحديًا عظيمًا، وهو توثيق معاناة شعبها من الميكماك، الذين تعرضوا لمحاولات عنصرية لمحو وجودهم كما حدث مع أسلافهم" - نيويورك تايمز بوك ريفيو

في صيف عام 1962، تصل أسرة من الميكماك من نوفا سكوشا إلى ولاية مين للعمل في قطاف التوت. وبعد أسابيع قليلة، تختفي روثي، أصغر أفراد الأسرة، التي لم يتجاوز عمرها أربع سنوات. كانت آخر مرة شوهدت فيها جالسة على صخرة عند طرف حقل التوت بجانب شقيقها جو، البالغ من العمر ست سنوات. سيعيش جو طيلة حياته مثقلًا باضطراب فقدان أخته.
في مكان آخر بولاية مين، تترعرع طفلة وحيدة اسمها نورما في كنف والدين موسرين. أبوها بعيد عنها عاطفيًا، وأمها تبالغ كثيرًا في حمايتها. تتعرض نورما لأحلام ورؤى مقلقة تبدو أقرب إلى ذكريات ضبابية منها إلى تخيلات عابرة. ومع مرور السنوات، تكتشف شيئًا فشيئًا أن هناك سرًّا عائليًّا خفيًّا، فتتشبث بحدسها وتكرّس عقوداً من حياتها لمحاولة كشف هذا اللغز الدفين.

مكتبة
t.me/soramnqraa

سُرة